حِينَ يَفِيضُ النُّورُ

رِحْلَةُ القَلْبِ فِي سُورَةِ النُّورِ



رَدَّادُ السَّلَامِيُّ

حين يَفِيضُ النُورُ

رحلة القلب في سورة النور

رداد الســـلامي

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

الإهـــــداء

إلى كل قلبٍ تعب من العتمة،
وظلّ يبحث عن نافذة صغيرة يدخل منها الضوء.

إلى الذين عرفوا أن الطهر ليس قسوة،
وأن الحياء ليس انطفاء،
وأن الستر ليس غيابًا عن الحياة،
بل حضورٌ أكرم فيها.

إلى العيون التي جاهدت أن تغضّ،
والألسنة التي تعلّمت أن تصمت،
والبيوت التي اشتهت أن ترتفع،
والقلوب التي قالت في لحظة صدق:
يا رب، اجعل لي نورًا.

إلى الذين آلمتهم الشائعة،
أو كسرتهم كلمة،
أو طاردهم ظنٌّ لم يصنعوه،
ثم وجدوا في سورة النور ربًّا يحرس البراءة،
وكتابًا لا يترك الأعراض لطيش الألسنة.

إلى كل من وقف يومًا عند قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾

فشعر أن في صدره مصباحًا قديمًا،
غمره الغبار طويلًا،
لكنه لم يمت.

إلى الباحثين عن نورٍ لا يخونهم عند أول ريح،
ولا ينطفئ حين تغيب وجوه الناس،
ولا يستمد حياته من التصفيق،
بل من الله وحده.

نهدي هذه الصفحات.

فما كُتبت هذه الأوراق لتزيد الكلام عن النور، بل لتوقظ في القلب شهوة السير إليه.

مقدمة المؤلف

على عتبة السورة

ليست سورة النور سورةً تقرأها ثم تخرج منها كما دخلت.

إنها سورة تفتّش فيك.
تضع المصباح في يدك، ثم تطلب منك أن تمشي به في غرفك الداخلية:
في اللسان حين يخفّ،
وفي العين حين تجوع،
وفي القلب حين يظن،
وفي البيت حين ينكشف،
وفي العلاقة حين تتردد بين الحلال والحرام،
وفي المجتمع حين يصبح الخبر أسرع من الرحمة،
وفي النفس حين تريد نورًا بلا طاعة.

منذ بدايتها، لا تدخل السورة إلى القارئ دخول القصائد، بل دخول الأمر:
﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾

كأنها تقول لنا من أول الطريق:
هذا النور ليس مزاجًا روحيًا عابرًا.
ليس تأملًا جميلًا نعلقه على جدار القلب.
ليس كلامًا شفافًا نقوله حين تصفو النفوس ثم ننساه عند أول فتنة.

إنه نور نازل.

وفرضٌ منزل.

وهداية لها كلفة.

وطهر يحتاج إلى حراسة.

النور الذي لا يتحول إلى طاعة يبقى زينةً لغوية على أطراف القلب.

ولقد ظن كثيرون أن سورة النور هي سورة آية النور وحدها، وأن قلبها في المشكاة والمصباح والزجاجة والكوكب الدري.

وهذا حق من وجه، لكنها قبل أن تأخذنا إلى المشكاة، تأخذنا إلى مواضع لا يحب الإنسان غالبًا أن يفتش فيها: الجسد، والشهوة، واللسان، والسمعة، والبيوت، والأبواب، والعلاقات، والزينة، والاستئذان، والمال، والطاعة، والجماعة.

وكأن السورة تعلمنا أن القلب لا يصلح أن يكون مشكاة حتى تنظف نوافذه.

فلا يستقر النور في قلبٍ يرسل لسانه في أعراض الناس.

ولا في عينٍ لا تعرف الحياء.

ولا في بيتٍ لا يعرف الستر.

ولا في علاقةٍ لا تعرف الحلال.

ولا في مجتمعٍ يحب إشاعة الفاحشة ثم يتساءل لماذا أظلمت روحه.

قبل أن تسأل: أين النور؟ اسأل: أين الفتحة التي يدخل منها الظلام؟

هذا الكتاب محاولة للسير مع السورة سير المتأمل لا المستعجل.
ليس تفسيرًا فقهيًا مفصلًا، ولا بحثًا أكاديميًا في مسائلها، ولا جمعًا لأقوال المفسرين، وإن كان لا يستغني عن نورهم.
إنه محاولة للاقتراب من روح السورة: ماذا تفعل سورة النور في الإنسان؟ كيف تعيد ترتيب داخله؟ كيف تبني مجتمعًا يحرس الطهر دون أن يفقد الرحمة؟ كيف تجعل النور أدبًا في الكلام، وغضًّا في البصر، وسلامًا عند الباب، وصدقًا عند الحكم، وسكينةً في البيت؟

أردت لهذه الصفحات أن تكون مزيجًا من الأدب والفكر والتدبر.
أن لا تكتفي بشرح المعنى، بل تترك للقارئ أثر المعنى.
أن لا تكتفي بأن تقول له: هذا حكم، بل تجعله يرى الرحمة التي تسكن الحكم.
أن لا تكتفي بأن تذكره بالنور، بل تسأله: ماذا فعلت بمصباحك؟

قد يفهم الإنسان الآية بعقله، ثم لا تزال بعيدة عنه حتى تبكي عندها روحه.

ولهذا جاء الأسلوب في هذه الصفحات على هيئة رحلة.
في كل فصل نقف عند مقطع من السورة، ثم نفتح حوله نوافذ التأمل:
ماذا تقول الآية عن النفس؟
ماذا تقول عن المجتمع؟
ماذا تقول عن البيت؟
ماذا تقول عن علاقتنا بالله، وبالناس، وبأجسادنا، وبألسنتنا، وبما نراه ونخفيه؟

ولم أرد للجمل المضيئة في هذا الكتاب أن تكون زخرفة.
بل أردتها محطات يتوقف عندها القارئ ليلتقط أنفاسه، كأنها مصابيح صغيرة في الطريق الطويل.

ليست الجملة المضيئة زينةً في الصفحة، بل وقفة للقلب كي لا يمرّ سريعًا على ما ينبغي أن يبقى.

ولعل أكثر ما يخيف في سورة النور أنها تكشف سهولة دخول الظلام.
فالظلام لا يأتي دائمًا بوجهه القبيح.
قد يأتي في هيئة خبر.
أو نظرة.
أو ضحكة.
أو فضول.
أو علاقة مؤجلة التوبة.
أو باب يُفتح بلا إذن.
أو كلمة تُقال في غياب صاحبها.
أو حقٍّ شرعي نمدحه حين يكون لنا، ونضيق به حين يكون علينا.

إنها سورة تعلمنا أن الشيطان لا يحتاج دائمًا إلى أن يهدم البيت دفعة واحدة؛ يكفيه أن يفتح ثقبًا صغيرًا في جدار الحياء.

الظلام لا ينتصر غالبًا لأنه أقوى من النور، بل لأننا نترك له أبوابًا صغيرة بلا حراسة.

ومع هذا كله، ليست سورة النور سورة تخويف مجرد.
إنها سورة رحمة عظيمة.

فيها حدّ، لكن فيها توبة.
وفيها زجر عن القذف، لكن فيها دعوة إلى العفو.
وفيها تحذير من خطوات الشيطان، لكن فيها فتح لباب التزكية.
وفيها أمر بالستر، لكن فيها رفق بالناس وأحوالهم.
وفيها خوف من يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار، لكن فيها وعد بالاستخلاف والأمن.
وفيها ظلمات البحر اللجي، لكن في قلبها:
نور على نور.

ومن هنا جاءت هذه الصفحات: لا لتجعل القارئ يكره نفسه، بل ليعرف كيف يعود بها إلى الله. لا لتزيد عليه ثقل الذنب، بل لتفتح أمامه طريق التوبة. لا لتجعله ينظر إلى الناس بقسوة، بل لينظر إلى نفسه بصدق، وإلى الناس برحمة، وإلى الله برجاء وخوف.

القرآن لا يكشف ظلامك ليهينك، بل ليضع في يدك مصباح العودة.

هذه السورة، في حقيقتها، مدرسة في بناء الإنسان النقي دون أن يكون ساذجًا، والرحيم دون أن يكون مائعًا، والحازم دون أن يكون قاسيًا، والمضيء دون أن يكون مدّعيًا.

إنها تعلمنا أن الطهر ليس عزلة عن الحياة، بل طريقة مضيئة في عبورها.
وأن الحياء ليس موتًا للجمال، بل وضع الجمال في موضعه الكريم.

وأن الستر ليس تواطؤًا مع الخطأ، بل رحمة تحفظ المجتمع من حب الفضيحة.
وأن العفو ليس نسيانًا ساذجًا، بل صعودٌ بالقلب فوق مرارة الجرح.
وأن النور ليس حالة وجدانية فقط، بل مسؤولية يومية.

فإن وجد القارئ في هذه الصفحات عبارة توقظه، أو سؤالًا يلاحقه، أو آيةً يراها بعينٍ جديدة، فذلك من فضل الله.
وإن وجد تقصيرًا أو خللًا، فذلك من ضعف الكاتب، وحسبي أنني حاولت الوقوف عند سورةٍ لو وقف عندها القلب حقًا، لتغير كثيرٌ من طريقه.

ما هذا الكتاب إلا محاولة أن نقف تحت آية النور طويلًا، حتى نرى ما حولها وما فينا على ضوئها.

تمهيد

لماذا سورة النور؟

لأن الإنسان في هذا الزمن غارق في الأضواء، لكنه ليس بالضرورة قريبًا من النور.

كل شيء يلمع حوله.
الشاشات تلمع.
الوجوه تلمع.
الإعلانات تلمع.
الأخبار تلمع.
الشهوات تلمع.
الشهرة تلمع.
حتى الظلام صار يعرف كيف يرتدي ثوب الضوء.

لكن سورة النور تأتي لتفرّق بين اللمعان والنور.
بين ما يخطف العين وما يهدي القلب.
بين البرق الذي يكاد يذهب بالأبصار، والمصباح الذي يستقر في المشكاة.
بين السراب الذي يحسبه الظمآن ماء، والنور الذي يهدي الله إليه من يشاء.

ليس كل ما أضاء حولك أضاء فيك.

نحتاج سورة النور لأننا نعيش في زمن الصورة.
والسورة تعلّم العين أن لا تكون عبدةً لكل ما تراه.

نحتاجها لأننا نعيش في زمن الشائعة.
والسورة تعلّم اللسان أن لا يكون جسرًا للظلم.

نحتاجها لأننا نعيش في زمن اقتحام الخصوصيات.
والسورة تعلّمنا أدب الباب، وأدب الرجوع، وأدب الاستئذان.

نحتاجها لأن العلاقات اختلطت فيها الأسماء:
صار الحرام يُسمى حبًا،
والتساهل يُسمى حرية،
والفضول يُسمى اهتمامًا،
والتشهير يُسمى نصيحة،
والتهاون في الستر يُسمى عفوية.

فتأتي سورة النور لتعيد للأشياء أسماءها.

من أول أعمال النور أنه يخلع عن الظلام أسماءه الجميلة.

نحتاج سورة النور لأن البيوت كثيرة، لكن السكينة قليلة.
البيوت امتلأت بالأجهزة، لكنها فقدت أحيانًا معنى السلام.
كثر الدخول والخروج، وقلّ الاستئذان.
كثرت الأصوات، وقلّ الذكر.
اتسعت الغرف، وضاقت الصدور.

صار أهل البيت تحت سقف واحد، لكن لكل واحد عزلته وقلقه وشاشته الخاصة.

فتأتي السورة لتقول إن البيت ليس مساحة للسكن فقط، بل موضع ستر، ومكان تربية، ومدرسة حياء، ومشكاة صغيرة إن ذُكر فيها اسم الله.

البيت الذي لا يعرف الستر لا يعرف السكينة، ولو أُغلقت أبوابه كلها.

ونحتاج سورة النور لأن المجتمع إذا فقد حرمة العرض، فقد شيئًا من إنسانيته.
فليس أخطر ما في الشائعة أنها كذب فحسب، بل أنها تجعل الإنسان موضوعًا للتداول. تحوله من روح مكرمة إلى مادة حديث. من أخٍ له حرمة إلى قصة مسلية. من بيتٍ له أسراره إلى خبرٍ يمرّ بين المجالس.

وسورة النور تقف أمام هذا الانحطاط بقوة هائلة.
تقول لنا: الأعراض ليست ميدانًا للظنون.
والسمعة ليست حقًا عامًا.
والخبر لا يصير حقًا لأنه انتشر.
واللسان ليس بريئًا لأنه قال: سمعت.

انتشار الكلام لا يمنحه صدقًا؛ قد يكون الباطل واسع الطريق.

ونحتاج سورة النور لأن الطهر صار عند كثيرين كلمة محرجة.
كأن العفة تهمة، والحياء ضعف، وغض البصر كبت، والستر رجعية، والزواج مسؤولية ثقيلة، والحرام تجربة شخصية لا يحق لأحد أن يسميها باسمها.

فتأتي السورة لا لتعتذر عن الطهر، بل لتعيد له هيبته.
تقول إن العفاف ليس عداوة للجسد، بل حفظٌ له من الابتذال.
وإن الحلال ليس قيدًا على الحب، بل بيتٌ يحميه.
وإن الحياء ليس إنكارًا للجمال، بل صيانة لموضعه.

الطهر ليس رفضًا للحياة، بل رفضٌ لأن تتحول الحياة إلى سوقٍ مفتوح للشهوة.

ونحتاج سورة النور لأن كثيرًا من التدين قد يبقى في منطقة الشعور، ولا ينزل إلى السلوك.
نحب آية النور، لكننا لا نغض أبصارنا.
نتأثر بالمشكاة، لكننا لا نحرس زجاجة القلب.
نردد **نور على نور**، ثم نترك ألسنتنا في الظنون، وقلوبنا في الحسد، وبيوتنا في الفوضى.

وسورة النور لا تقبل هذا الفصل.
إنها تجعل الطريق إلى الآية الكبرى يمر عبر كل هذه الأبواب الصغيرة.
كأنها تقول: من أراد أن يفهم نور الله في السماوات والأرض، فليتعلم أولًا كيف لا يطفئ النور في نفسه وفي الناس.

لا معنى لأن تتأمل النور الكبير وأنت تهمل المصابيح الصغيرة التي بين يديك.

ونحتاج سورة النور لأنها لا تعالج الفرد وحده.
إنها تعالج المجتمع كله.

تبدأ من الجسد، ثم تمضي إلى اللسان، ثم إلى البيت، ثم إلى العين، ثم إلى الزواج، ثم إلى المال، ثم إلى السوق، ثم إلى الجماعة، ثم إلى الأمة

والاستخلاف.

إنها تبني شبكة كاملة من النور.

فلا طهر بلا مجتمع يعين عليه.

ولا عفة بلا تيسير للحلال.

ولا سكينة بلا بيوت تعرف الستر.

ولا ثقة بلا ألسنة تحفظ الأعراض.

ولا تمكين بلا طاعة.

ولا حضارة بلا بيوت صغيرة مضيئة.

الأمة التي تريد النور في ساحاتها الكبرى، يجب أن تربيه أولًا في غرفها الصغيرة.

ونحتاج سورة النور لأنها تضع أمامنا حقيقتين عظيمتين:

الأولى: أن الله هو مصدر النور.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

فلا نور حقيقي بلا صلة به.

ولا هداية بلا إذنه.

ولا بصيرة بلا فضله.

ولا نجاة من الظلمات إلا بما يجعله في القلب من نور.

والثانية: أن الإنسان مسؤول عن حراسة منافذ النور.

فالله يهدي لنوره من يشاء، لكن القلب مطالب أن لا يخون هذا النور.

أن لا يملأ المشكاة بالدخان ثم يسأل لماذا ضعف المصباح.

أن لا يغذي قلبه بالصور والشبهات والشهوات ثم يسأل أين السكينة.
أن لا يفتح أبواب الظلام ثم يطلب نورًا لا تهزه الريح.

الهداية فضل من الله، وحراسة أسبابها صدقٌ من العبد.

لذلك ليست سورة النور مجرد سورة عن أحكام اجتماعية، ولا مجرد سورة عن مشهد روحي عظيم.
إنها السورة التي تجمع بين التشريع والمشكاة.
بين الحد والرحمة.
بين البيت والسماء.
بين العين والقلب.
بين السوق والآخرة.
بين المصباح والطريق.

إنها تقول للإنسان:
لن يكون قلبك مضيئًا حتى تتعلم كيف تتكلم، وكيف تنظر، وكيف تدخل، وكيف تحب، وكيف تختلف، وكيف تعمل، وكيف تطيع.

النور في سورة النور ليس شيئًا تملكه، بل طريقة تصير بها.

وهذا الكتاب، إذ يختار سورة النور موضوعًا له، لا يزعم أنه أحاط بها.
ومن يحيط بسورةٍ من كتاب الله؟
إنما هو اقتراب محب، ووقوف طويل، ومحاولة أن نستمع إلى السورة وهي تعيد ترتيبنا.

سنمشي معها آيةً آية، ومعنىً معنى، لا بعجلة من يريد الانتهاء، بل بروح من يريد أن يتطهر.
سنقف عند القذف لا لنرجم الناس بأحكامنا، بل لنخاف على ألسنتنا.
وعند غض البصر لا لنحتقر الجمال، بل لنفهم قيمة القلب.
وعند الاستئذان لا لنزيد الجفاء، بل لنؤسس احترام المسافة.
وعند آية النور لا لنحلق بعيدًا عن الحياة، بل لنعود إليها بمصباح.

التدبر ليس أن تبقى أمام الآية، بل أن تعود بها إلى حياتك.

فإن كانت في قلبك عتمة، فهذه السورة لا تطردك.
وإن كان في ماضيك خطأ، فهذه السورة لا تغلق الباب.
وإن كان في بيتك اضطراب، فهي تدلك على السلام.
وإن كان في لسانك خفة، فهي تعلمك الوقار.
وإن كانت عينك متعبة بالصور، فهي تفتح لك باب الغض.
وإن كنت تخاف على نفسك من السراب، فهي تريك النور الذي لا يخون.

تعال إذن إلى السورة لا كقارئٍ متفرج، بل كمريض يدخل غرفة الشفاء.
وكعابرٍ يحمل في داخله مصباحًا ضعيفًا، ويريد أن يتعلم كيف يحرسه.
وكقلبٍ يقول بصدق:

يا رب، دلّني على النور،
ثم دلّني كيف لا أضيعه.

من دخل سورة النور بصدق، خرج وهو يعرف أن أعظم ما يملكه ليس عينه ولا لسانه ولا بيته، بل المصباح الذي ائتمنه الله عليه في قلبه.

افتتاحية الكتاب

تجيء سورة النور كأنها مصباح موضوع على عتبة العالم. لا تدخل إليها حتى تشعر أن شيئًا فيك يُستدعى إلى الغسل: عينك، ولسانك، وظنك، وخطوتك، وبيتك، وعلاقاتك، وذاك المكان الخفي في القلب حيث تبدأ الظلمة قبل أن تظهر في السلوك.

ليست سورة النور حديثًا عن الضوء بمعناه الرقيق وحده، وليست نشيدًا روحانيًا يحلّق بعيدًا عن الأرض. إنها سورة تمسك الإنسان من يده وتقول له: إن أردت النور، فابدأ من هنا؛ من الجسد حين يشتهي، ومن اللسان حين ينقل، ومن العين حين تطلق، ومن الباب حين تطرقه، ومن البيت حين تدخله، ومن المجتمع حين يتساهل في الأعراض، ومن القلب حين يظن أن الإيمان فكرة لا تحتاج إلى أدب.

ولعل من أسرار هذه السورة أنها لا تفصل بين الطهر والجمال، ولا بين التشريع والروح، ولا بين المجتمع والقلب. ففيها حدود صارمة، ثم فيها مشكاة مضيئة. فيها حديث عن الزنا والقذف، ثم حديث عن نور الله في السماوات والأرض. فيها بيوت لا تُدخل إلا بإذن، ثم بيوت أذن الله أن تُرفع. كأن السورة تقول لنا إن النور لا يستقر في عالم مستباح، وإن القلب الذي يريد أن يشتعل بمصباح الهداية لا بد أن يتعلم أولًا كيف يصون منافذه.

إنها سورة الحراسة الكبرى: حراسة العرض، وحراسة اللسان، وحراسة العين، وحراسة البيت، وحراسة الذاكرة من الشائعات، وحراسة المجتمع

من أن يصبح السوق الأعلى فيه هو سوق الفضائح. لكنها، وهي تحرس، لا تخنق. وهي تمنع، لا تميت. وهي تؤدب، لا تقسو. إنها تصنع للإنسان مساحة نقية يستطيع فيها أن يرى الله، ويرى نفسه، ويرى الناس بلا عتمة.

في سورة النور لا يكون الإيمان مجرد انفعال داخل الصدر. الإيمان يصبح طريقة في الدخول إلى البيوت، وطريقة في النظر، وطريقة في الكلام، وطريقة في استقبال الأخبار، وطريقة في الزواج، وطريقة في البيع والشراء، وطريقة في حمل الجسد داخل العالم دون أن يتحول الجسد إلى فوضى.

ومن هنا يبدأ هذا الكتاب: من محاولة الإصغاء إلى السورة لا بوصفها نصًا بعيدًا نمر عليه، بل بوصفها مرآة تكشف لنا مقدار الضوء فينا، ومقدار ما تسلل إلينا من غبار.

نموذج مقطع من فصل آية النور

حين يقول الله تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾، فنحن لا نقف أمام جملة تُقرأ، بل أمام أفق لا ينتهي. كل نور في الوجود مستعار من هذا النور. نور الصباح، ونور البصيرة، ونور الرحمة في وجه أم، ونور التوبة في قلب مذنب، ونور الفهم حين تنفتح آية كانت مغلقة، ونور السكينة حين يهدأ القلب بعد طول اضطراب.

ثم تأتي الصورة: **مشكاة، مصباح، زجاجة، كوكب دري**. ليست الصورة ترفًا بلاغيًا، بل تربية للخيال الإيماني. كأن القلب بيت صغير، وفي البيت كوة، وفي الكوة مصباح، والمصباح لا يضيء وحده حتى تحيط به زجاجة صافية

تحفظه وتضاعف إشراقه، وهكذا قلب المؤمن: يحتاج إلى نور من الله، ويحتاج إلى صفاء يحفظ النور، ويحتاج إلى زيت لا يكاد ينفد من الذكر، والطاعة، والصدق، والتوبة، واليقين.

ليس كل قلب يصلح أن يكون مشكاة. بعض القلوب كثيرة الثقوب، تهب عليها رياح الشهوة والغفلة والكبر، فلا يستقر فيها مصباح. وبعض القلوب زجاجها معتم؛ يدخلها النور، لكنه لا يخرج منها أثرًا على الوجه والكلمة والعمل. وبعض القلوب امتلأت بالدخان حتى ظنت أن الظلمة هي طبيعة الحياة.

أما القلب الذي أراد الله به نورًا، فإنه لا يكتفي بأن يعرف الحق، بل يصير الحق فيه ضياء. تراه في عينه حين يغض، وفي لسانه حين يكف، وفي بيته حين يستأذن، وفي غضبه حين يعدل، وفي حزنه حين يثق، وفي تجارته حين لا تلهيه عن الصلاة.

النور

السورة التي تعلّمنا كيف نحرس النور

بسم الله، وعلى عتبة هذه السورة نقف كما يقف الداخل إلى بيتٍ لا يشبه البيوت؛ بيتٍ أُذن له أن يُرفع، لا لأن جدرانه عالية، بل لأن معناه عالٍ. نقف وفي أيدينا شيء من غبار الطريق، وفي عيوننا أثر الصور العابرة، وفي ألسنتنا ذاكرة كلمات قلناها أو سمعناها أو كدنا أن نمررها دون أن نسأل: أحق هي أم ظلام متنكر في هيئة خبر؟

تجيء سورة النور لا كقصيدة هادئة عن الضوء، بل كأمر إلهي يعيد ترتيب الإنسان من داخله. إنها لا تبدأ من السماء البعيدة، بل من الأرض القريبة؛ من الجسد، والبيت، واللسان، والعين، والعلاقة، والسمعة، والباب، والاستئذان، والزواج، والطهر، والشائعة، والحد، والستر.

ثم بعد ذلك كله، كأنها تأخذنا من يدنا إلى القلب الأكبر في السورة، إلى الآية التي ترتجف عندها الروح:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

كأن السورة تقول لنا: لا تطلبوا النور في الخيال وحده، ولا تبحثوا عنه في لحظات الصفاء العابرة فقط؛ فالنور يبدأ من طريقة نظرك، ومن صدق لسانك، ومن أدب دخولك، ومن طهارة رغبتك، ومن حرمة بيتك، ومن خوفك على أعراض الناس كما تخاف على عرضك.

النور في سورة النور ليس فكرة تضاء في العقل فقط، بل حياة تُضاء في السلوك.

ومن عجيب ترتيب هذه السورة أنها تضع أمامنا حقيقة كبرى: أن الإنسان لا يظلم دفعة واحدة. لا ينطفئ القلب فجأة كما ينطفئ مصباح بضربة ريح، بل تخفت فيه الأنوار شيئًا فشيئًا. نظرة لا تُرد. كلمة لا تُمحّص. ظن لا يُقاوم. باب يُفتح بلا إذن. رغبة تُترك بلا زمام. شائعة تُتداول بلا خوف. حتى يجد الإنسان نفسه في عتمة لا يعرف متى دخلها، ولا من أي نافذة تسللت إليه.

لذلك جاءت السورة حارسة للنوافذ.

تحرس العين من الفوضى.
وتحرس اللسان من الخفة.
وتحرس البيوت من الانكشاف.
وتحرس الأعراض من العبث.
وتحرس المجتمع من أن يتحول إلى سوقٍ للفضائح.
وتحرس القلب من أن يظن أن الإيمان شعور بلا التزام.

كل ظلمة كبرى تبدأ من ثغرة صغيرة لم نحرسها في وقتها.

وليست السورة قاسية وهي تفعل ذلك. إنها حازمة، نعم؛ لكنها حازمة كما تكون يد الطبيب حين يمنع الجرح من الاتساع. وكما تكون يد الأم حين تجذب ولدها عن حافة الطريق. وكما يكون الباب حين يُغلق لا كراهية للضيوف، بل حمايةً لمن في الداخل.

في سورة النور لا تنفصل الرحمة عن التشريع، ولا ينفصل الجمال عن الطهر، ولا تنفصل الحرية عن المسؤولية. فالإنسان في نظر القرآن ليس جسدًا يُترك لشهوته، ولا روحًا تُنتزع من واقعها، ولا عقلًا مجردًا يعيش فوق التراب. الإنسان كلٌّ واحد: عين ولسان وقلب وجسد وبيت وعلاقة ومجتمع ومصير.

ولهذا لم تكن السورة حديثًا عن الفرد وحده، ولا عن المجتمع وحده. إنها تبني بينهما جسرًا عجيبًا: ما يفعله الفرد في خلوته يصبح أثرًا في الجماعة، وما تتساهل فيه الجماعة يعود فيفسد خلوات الأفراد. فإذا أطلقت العيون، اضطربت البيوت. وإذا خفّت الألسنة، تهدمت السمعة. وإذا تهاون الناس في الاستئذان، ضاع الستر. وإذا صار العرض مادة للحديث، اختنق النور في الصدور.

المجتمع لا يظلم حين تنعدم المصابيح، بل حين يفقد الناس أدب حمل النور.

هذه السورة تعلّمنا أن النور ليس مجرد إشراق داخلي يملكه الإنسان ثم يمضي به وحده. النور مسؤولية. من أُعطي نورًا صار مطالبًا أن لا يطفئه في غيره. من عرف حرمة الكلمة صار مطالبًا أن لا يجرح بها بريئًا. من ذاق حلاوة الستر صار مطالبًا أن يستر. من أحب الطهر صار مطالبًا أن يفتح أبوابه الحلال، لا أن يكتفي بذم الظلام.

ولذلك، حين تتحدث السورة عن الفاحشة، لا تتحدث عنها بوصفها خطأً شخصيًا فقط، بل بوصفها شرخًا في معنى الإنسان. وحين تتحدث عن القذف، لا تتحدث عن جملة قيلت وانتهت، بل عن سهمٍ قد يبقى في روح بريء عمرًا كاملًا. وحين تتحدث عن الاستئذان، لا تتحدث عن إجراء

اجتماعي صغير، بل عن فلسفة كاملة في احترام المسافات. وحين تأمر بغض البصر، لا تريد أن تطفئ العين، بل أن تعلّمها كيف ترى دون أن تلتهم.

ليست كل عين مفتوحة مبصرة، فقد تكون العين أكثر أعضاء الإنسان ظلمة.

ثم تبلغ السورة ذروتها عند آية النور، لا كخروج مفاجئ من الأحكام إلى العقيدة، بل ككشف للسر الذي يجري في السورة كلها. فكل تلك الأحكام والآداب ليست قيودًا منفصلة، بل هي تهيئة للمشكاة. كأن القلب لا يصلح أن يحمل المصباح حتى تنظف زجاجته. وكأن المجتمع لا يصلح أن يسكنه النور حتى يتعلم حرمة البيوت، وحرمة الأعراض، وحرمة الأبواب، وحرمة النظر، وحرمة الكلام.

قبل أن تقول السورة: الله نور السماوات والأرض، تعلّمك كيف لا تكون أنت سببًا في إطفاء النور.

وهذا الكتاب محاولة للسير في هذه السورة سير المتأمل لا المستعجل. لا نريد أن نمر على آياتها كما يمر العابر أمام بستان مغلق. نريد أن ندخل، أن نصغي، أن نرى كيف تتحول الآية إلى مرآة، والحكم إلى رحمة، والأدب إلى نور، والحد إلى حماية، والستر إلى عبادة، والزواج إلى طريق عفاف، والبيوت إلى محاريب، والتجارة إلى امتحان، والكون كله إلى تسبيح.

سنقرأ السورة لا لنستخرج منها معلومات فحسب، بل لنتركها تستخرج منا ما علق بنا من غبار. سنقف عند الآية كما يقف العطشان عند الماء، لا يسأل عن تركيب الماء قبل أن يشرب، ولا يشرب دون أن يعرف أنه أمام نعمة.

فإن كان فينا لسانٌ خفيف، فلتثقله السورة بالخشية.
وإن كان فينا نظرٌ هائم، فلترده السورة إلى الحياء.
وإن كان فينا قلبٌ متعب، فليجلس طويلًا عند المشكاة.
وإن كان في بيوتنا ضجيج، فلتفتح السورة فيها نافذة للسكينة.
وإن كان في مجتمعاتنا ظلام الشائعة، فلتعلّمنا السورة كيف نغسل أفواهنا من الكلام الذي لا بينة له.

ما أكثر ما نطلب النور من السماء، ونحن لا نغلق أبواب الظلام في الأرض.

هذه إذن ليست قراءة بعيدة في سورة بعيدة. إنها قراءة فينا نحن. في العين حين تنظر، وفي اللسان حين يتكلم، وفي القلب حين يظن، وفي البيت حين ينكشف، وفي المجتمع حين ينسى أن كرامة الإنسان ليست مجالًا للتجربة، ولا مادة للتسلية.

سورة النور ليست فقط سورة تُتلى. إنها بيت ندخل إليه، ومصباح نمشي خلفه، ومرآة نرى فيها ما بقي فينا من صفاء، وما يحتاج إلى تطهير.

فلندخل.

الفصل الأول

حين يبدأ النور بالأمر

﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

تبدأ سورة النور بدايةً لا تترك للقارئ فرصة أن يتعامل معها بخفة. ليست البداية حكاية، ولا مشهدًا، ولا نداءً رقيقًا، بل إعلان مهيب:

﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾

وكأن أول درس في النور أن تعرف مصدره. هذا ليس نورًا اخترعته الحكمة البشرية، ولا ذوقًا أخلاقيًا صنعته المجتمعات حين استحسنت شيئًا واستقبحت آخر. هذا نور نازل. والنور حين يكون نازلًا من عند الله، لا يحق للأرض أن تعامله كاقتراح.

ما نزل من السماء لا يُستقبل بمزاج الأرض.

في هذه البداية شيء من الجلال الذي يوقظ القلب قبل أن يدخل في التفاصيل. فالسورة ستتحدث بعد قليل عن الجسد، والشهوة، والزنا، والقذف، والبيوت، والاستئذان، واللباس، والزينة، والزواج، وغض البصر. وهذه كلها مناطق يحب الإنسان أن يتركها لهواه، أو لعادته، أو لذوق عصره، أو لما يسميه الناس حرية شخصية. لكن السورة تسبق كل ذلك بقولها: **أنزلناها وفرضناها**.

أي إن ما سيأتي ليس قابلًا لأن يوضع على طاولة العبث. وليس مجالًا للمساومة بين رغبة الإنسان وضعفه. إنه تشريع من العليم بالإنسان، العليم بفتنته، العليم بطرق سقوطه، العليم بأن القلب قد يرفع شعارات الحرية وهو في الحقيقة يوقّع وثيقة عبوديته لشهوة عابرة.

أحيانًا لا يكون الإنسان حرًا حين يفعل ما يشتهي، بل يكون عبدًا لا يرى قيوده.

السورة منذ أول كلمة تسحبنا من فوضى الانطباع إلى وقار التكليف. تقول لنا إن النور لا يكفي أن يُعجبنا؛ لا بد أن نطيعه. فكثيرون يحبون المعاني الجميلة: الطهر، العفاف، الصدق، الستر، الأمان، كرامة البيوت، نقاء المجتمع. لكنهم يريدون هذه الثمرات دون أن يلتزموا بجذورها. يريدون مجتمعًا نظيفًا بأعين منفلتة. ويريدون أعراضًا مصونة بألسنة سائبة. ويريدون بيوتًا آمنة وشهواتٍ بلا حدود. ويريدون نورًا بلا حراسة.

وسورة النور، من أولها، تكشف هذا الوهم.

لا يولد النور في حياةٍ ترفض النظام.

النور ليس فوضى بيضاء. ليس عاطفة لطيفة نعلّقها على جدار القلب ثم نترك حياتنا تمضي في عكسها. النور في القرآن ترتيب. أن تعرف متى تنظر ومتى تغض. متى تتكلم ومتى تصمت. متى تدخل ومتى تستأذن. متى تقترب ومتى تقف عند الحد. متى تشتهي ومتى تقول لشهوتك: لستِ أنتِ الإله.

إن الإنسان المعاصر كثيرًا ما يخاف من كلمة "الحدود"، كأن كل حدٍّ عدوٌّ للحياة. لكنه ينسى أنه لا شيء جميلًا يبقى جميلًا بلا حدود، النهر إن فقد

ضفتيه صار فيضانًا. والنار إن خرجت من موضعها صارت حريقًا. والكلمة إن لم يحرسها صدق صارت طعنة. والنظر إن لم يضبطه حياء صار اقتحامًا. والجسد إن لم تصنه شريعة صار سلعة، ولو لبس ألف اسم من أسماء الحرية.

ليست الحدود ضد الجمال؛ الحدود هي التي تمنع الجمال من التحول إلى فوضى.

ولذلك تبدأ السورة بالفرض، لأن الله لا يريد للإنسان أن يظل يمدح النور من بعيد، بل يريد له أن يدخل في نظامه. ومن دخل في نظام النور تغيرت علاقته بكل شيء. لم تعد عينه ملكًا لشهوته وحدها. لم يعد لسانه أداة تسلية. لم يعد البيت مكانًا مستباحًا. لم تعد السمعة شيئًا رخيصًا يمر بين المجالس. لم تعد المرأة جسدًا معروضًا على قلق العيون. لم يعد الرجل كائنًا يبرر انفلاته باسم الطبيعة. لم تعد الحرية خروجًا من كل قيد، بل خروجًا من القيد الأدنى إلى العبودية الأعلى: عبودية الله.

الحرية الحقيقية ليست أن تتحرر من الأمر، بل أن تتحرر بالأمر من عبودية الهوى.

تأمل كيف تقول الآية: ﴿**وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ**﴾.

ليست الآيات غامضة، ولا خافتة، ولا مترددة. إنها بينات؛ واضحة بما يكفي لمن أراد أن يرى، ومضيئة بما يكفي لمن لم يضع على عينيه غطاء العناد. فالقرآن لا يعجز غالبًا عن البيان، ولكن الإنسان يعجز أحيانًا عن التسليم. وفرق كبير بين من لم يفهم، ومن فهم ثم خاف أن يكلّفه الفهم تغييرًا في حياته.

إن وضوح الآية امتحان. لأن الغموض أحيانًا يمنح النفس فرصة للهرب، أما البيان فيضع القلب أمام مسؤوليته. لذلك قالت الآية في ختامها: ﴿**لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾.

ولم تقل: لعلكم تعلمون فقط.

فالمشكلة ليست دائمًا في نقص العلم. كثير من الظلام لا يأتي لأن الإنسان لا يعرف، بل لأنه نسي. نسي ربه. نسي ضعفه. نسي أن للسان حسابًا. نسي أن للعين صحيفة. نسي أن البيوت حرمات. نسي أن الأعراض ليست موضوعًا للفضول. نسي أن الجسد أمانة. نسي أن الشهوة إذا تُركت وحدها لا تقود إلى السعادة، بل إلى المزيد من الجوع.

التذكّر هو عودة القلب إلى حقيقة كان يعرفها ثم غطّاها الغبار.

وسورة النور سورة تذكير بهذا المعنى العميق. إنها لا تأتي لتضيف إلى الإنسان معلومات كثيرة بقدر ما تأتي لتوقظ فيه عهودًا قديمة. توقظ الفطرة التي تعرف أن الطهر أجمل. وتوقظ القلب الذي يعرف أن الستر أرحم. وتوقظ العقل الذي يعرف أن المجتمع لا يبنى على إطلاق الغرائز. وتوقظ الروح التي تعرف أن الحياة بلا نور الله مهما لمع سطحها، تبقى من الداخل معتمة.

ومن هنا نفهم أن أول كلمة في طريق النور ليست "تأمل" فقط، بل "امتثل". ليست "تذوق" فقط، بل "اخضع". ليست "أُعجب" فقط، بل "استجب".

لأن النور الذي لا يتحول إلى طاعة يبقى زينة لغوية.
والآية التي لا تغيّر شيئًا في السلوك قد تتحول يوم القيامة إلى حجة على صاحبها.

والقلب الذي يصفق للمعنى ثم لا يتبعه، يشبه رجلًا يمدح الطريق ولا يمشي فيه.

أخطر مسافة في حياة الإنسان: المسافة بين إعجابه بالحق واستسلامه له.

ولعلنا نحتاج أن نقف طويلًا عند هذا المعنى، لأن كثيرًا من التدين اليوم يعيش في منطقة الإعجاب. نعجب بالآية. نعجب بالموعظة. نعجب بالعبارة المؤثرة. وربما بكينا، وربما شاركناها مع غيرنا، وربما قلنا: ما أجمل هذا الكلام. ثم نعود كما كنا. العين كما هي. اللسان كما هو. البيت كما هو. الخلوة كما هي. العلاقات كما هي.

لكن القرآن لم ينزل ليكون مادة إعجاب. نزل ليكون هداية. والهداية ليست لحظة تأثر عابر، بل انتقال. أن تنتقل من عادة إلى عبادة، من غفلة إلى يقظة، من انفلات إلى أدب، من كلام كثير إلى ورع، من نظر جائع إلى عين تخاف الله، من بيت مفتوح على الفوضى إلى بيت يعرف معنى الستر.

ليس كل من تأثر تغيّر، وليس كل من بكى تاب، وليس كل من أحب النور خرج من الظلمة.

لذلك جاءت سورة النور بآيات بينات. كأنها تمسك بيد القارئ وتقول له: تعال نرتب الفوضى من أولها. قبل أن تبحث عن المشكاة في السماء، فتش عن النوافذ المفتوحة للظلام في حياتك. قبل أن تسأل عن نور القلب، اسأل عن عتمة اللسان. قبل أن تتمنى السكينة، اسأل نفسك: كم بابًا تركته مفتوحًا للاضطراب؟

إن السورة تعلمنا أن الطريق إلى النور يبدأ من الصراحة. أن نعترف أن فينا مناطق تحتاج إلى أمر، لا إلى مجاملة. فينا رغبات لا يصلح معها الوعظ الناعم وحده. فينا ألسنة تحتاج إلى حدٍّ من الخوف. فينا عيون تحتاج إلى تدريب. فينا بيوت تحتاج إلى أدب. فينا مجتمعات تحتاج أن تتعلم من جديد أن الإنسان ليس خبرًا، وليس صورة، وليس جسدًا، وليس مادة للتعليق.

من رحمة الله أنه لم يترك نورنا لأمزجتنا.

لو تُرك الإنسان لنفسه في باب الشهوة لسمّى سقوطه حرية. ولو تُرك لنفسه في باب الكلام لسمّى غيبته صراحة. ولو تُرك لنفسه في باب النظر لسمّى فضوله إعجابًا بالجمال. ولو تُرك لنفسه في باب البيوت لسمّى اقتحامه عفوية. ولو تُرك لنفسه في باب العلاقات لخلط بين الحب والامتلاك، وبين القرب والابتذال، وبين الستر والكتمان المريض، وبين الوضوح والفضيحة.

لهذا كان الوحي رحمة. لا لأنه يوافق رغبتنا دائمًا، بل لأنه ينقذنا من رغبتنا حين تعمى. ولا لأنه يتركنا كما نحن، بل لأنه يحبنا أكثر من أن يتركنا كما نحن.

في بداية سورة النور، نحن لا نقرأ حكمًا فقط، بل نسمع طرقًا على باب القلب:

استيقظ.

هذه سورة منزلة.

هذه سورة مفروضة.

هذه آيات بينات.

وهذا النور لن يدخل حياة تتعامل مع أمر الله كأنه رأي من الآراء.

عندما يأمر الله، فهو لا ينتقص من إنسانيتك؛ إنه ينقذها من النسخة الأدنى منها.

ولذلك ينبغي أن يدخل القارئ إلى السورة متخففًا من كبريائه. لا يدخل إليها ليحاكمها إلى ذوقه، بل ليحاكم ذوقه إليها. لا يدخل إليها وهو يقول: ماذا بقي صالحًا من هذه الآيات لعصرنا؟ بل يقول: ماذا فسد في عصرنا حتى صارت هذه الآيات تبدو ثقيلة على بعض النفوس؟

فالقرآن لا يشيخ. الذي يشيخ هو إحساس الإنسان بالحقيقة. والآية لا تفقد نورها، لكن العيون قد تضعف. والوحي لا يصبح بعيدًا، لكن القلوب قد تبتعد حتى ترى القريب بعيدًا.

ليست المشكلة أن الآية بعيدة عن الحياة، بل أن الحياة ابتعدت عن الآية.

وهنا، في أول السورة، يبدأ الامتحان الحقيقي. هل نقبل أن يكون النور حاكمًا علينا، لا مجرد صورة نحبها؟ هل نقبل أن يفتش القرآن في غرفنا الداخلية؟ في هواتفنا، في نظراتنا، في مجالسنا، في تعليقاتنا، في أبواب بيوتنا، في طريقة تعاملنا مع الأخبار، في مفهومنا للجمال والحرية والستر؟

إن سورة النور لا تترك منطقة رمادية كثيرة. إنها تضع المصباح في الوسط، وحين يضاء المصباح تظهر الأشياء بأسمائها. الزنا ليس حرية. القذف ليس كلامًا عابرًا. إشاعة الفاحشة ليست تسلية. اقتحام البيوت ليس عفوية. إطلاق

البصر ليس براءة. تعطيل الزواج مع القدرة ليس شأنًا فرديًا معزولًا. إهمال آداب البيت ليس تفصيلًا صغيرًا.

النور يسمي الأشياء بأسمائها، لأن الظلام يعيش طويلًا على تغيير الأسماء.

من حيل الظلام أنه لا يطلب منك أن تحبه، بل يطلب منك فقط أن تسميه باسمٍ أجمل.

وهذا ما يجعل بداية السورة ضرورية جدًا. فقبل أن نغوص في الأحكام، لا بد أن يستقر فينا أصل التسليم. لا تسليم العاجز الذي لا يفكر، بل تسليم المؤمن الذي عرف أن الله أعلم به منه. تسليم من أدرك أن خالقه لا يأمره ليضيّق عليه، بل ليعيد إليه سعته الحقيقية. تسليم من فهم أن الطاعة ليست خسارة في المعنى، بل اكتشاف له.

في حضرة هذه الآية الأولى، يستطيع كل واحد منا أن يسأل نفسه:

ما الأمر الإلهي الذي ما زلت أتعامل معه كأنه اقتراح؟
ما الآية التي أعرفها جيدًا، لكنني أؤجل الاستسلام لها؟
ما الباب الذي دخلت منه العتمة إلى حياتي لأنني رفضت أن أضع عليه حارسًا من أمر الله؟

لا يبدأ التدبر حين نفهم الآية فقط، بل حين نسمح لها أن تفهمنا.

ولعل هذه هي أول هدية تقدمها سورة النور لقارئها: أن تعيده إلى موضع العبد. والعبد حين يعود إلى موضعه لا يصغر، بل يستريح. لأن أشد ما يتعب

الإنسان أن يمثل دور الإله في حياته؛ يشرّع لنفسه، ويبرر لنفسه، ويغفر لنفسه، ويخدع نفسه، ثم ينهار تحت ثقل نفسه.

أما حين يقول: يا رب، أنت النور، وأنا العابر في الظلمة؛ أنت تعلم، وأنا أتعلم؛ أنت تأمر، وأنا أستجيب؛ فإنه لا يفقد حريته، بل يجدها في أن يكون عبدًا لمن لا يظلمه.

وهكذا يبدأ النور:
لا بمصباح في السقف، بل بسجدة في الداخل.
لا بزينة على اللسان، بل بخضوع في القلب.
لا بإعجاب بعيد، بل بطاعة قريبة.

فمن لم يقبل أول السورة، لن يفهم وسطها. ومن لم يخضع لـ ﴿**فَرَضْنَاهَا**﴾، قد يقف عند ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ وقوف المتذوق لا وقوف المهتدي.

والفرق بعيد بين من يعجبه المصباح، ومن يمشي على ضوئه.

الفصل الثاني

حين تُهان قداسة الجسد

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

تدخل سورة النور إلى واحدة من أكثر مناطق الإنسان حساسية: الجسد حين يضل طريقه، والرغبة حين تنفصل عن العهد، والشهوة حين تتمرد على المعنى.

ولا تبدأ السورة هنا بحديث ناعم؛ لأن الجرح عميق. وحين يكون الجرح عميقًا، لا تكفي فوقه العطور. لا بد من تطهير، ولو كان التطهير موجعًا.

إن الزنا في ميزان القرآن ليس لحظة عابرة بين جسدين، ولا خطأً خاصًا ينتهي بانتهاء ساعته. إنه كسرٌ في نظام الطهر، واعتداءٌ على معنى الأسرة، وعبثٌ بأمانة النسب، وفتحٌ لبابٍ إذا دخلت منه الفوضى لم تقف عند فردين، بل امتدت إلى البيت، والطفل، والمرأة، والرجل، والذاكرة، والمجتمع كله.

الجسد في القرآن ليس سلعة للرغبة، بل أمانة للمعنى.

وهذه أول قضية ينبغي أن نستعيدها قبل أن نقرأ الحكم: أن الجسد في الإسلام ليس شيئًا محتقرًا، ولا عدوًا للروح، ولا موضعًا للعار بذاته. بل هو مخلوق مكرم، ووعاء للعبادة، وموضع للسجود، ومحلٌّ للأمانة. اليد التي تمتد إلى

الحرام هي نفسها التي يمكن أن ترتفع بالدعاء. والعين التي تنكسر أمام فتنة هي نفسها التي يمكن أن تبكي من خشية الله. والجسد الذي قد يهبط بصاحبه إلى وحل الشهوة هو نفسه الذي قد يرفعه بالصلاة والصيام والجهاد والصبر.

المشكلة ليست في الجسد، بل في فقدان وجهته.

حين ينفصل الجسد عن الله، يصبح سريعًا إلى السوق. وحين ينفصل الجمال عن الحياء، يصبح فريسة للعيون. وحين تنفصل الرغبة عن العهد، تتحول العلاقة من ميثاق إلى استهلاك، ومن سكن إلى توتر، ومن مودة إلى لحظة تترك وراءها قلقًا طويلًا.

ليست الخطيئة أن يكون الإنسان صاحب رغبة، بل أن يجعل الرغبة صاحبة الأمر.

لذلك لا تأتي السورة لتقتل الرغبة، بل لتعيدها إلى بيتها. الإسلام لا ينكر أن في الإنسان شهوة، لكنه يرفض أن تتحول الشهوة إلى إله صغير يأمر فيُطاع، ويشتهي فيُلبّى، ويجوع فيُقدَّم له كل شيء: الدين، والحياء، والوفاء، والبيت، والكرامة.

إن القرآن لا يعادي الفطرة، بل يحرسها من التشوه. فالزواج في الإسلام ليس مجرد عقد اجتماعي بارد، بل هو طريق كريم للرغبة حين ترتبط بالمسؤولية، ومكان آمن للجسد حين يلتقي بالمودة والرحمة، وسياج يحفظ الإنسان من أن يتبع كل نداء داخلي كأن كل نداء حقيقة.

العفاف ليس رفضًا للجسد، بل إنقاذ له من الابتذال.

وحين نقرأ قوله تعالى: ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي**﴾ نلاحظ أن السورة تسمي الفعل بلا مواربة. لا تزينه باسم رومانسي، ولا تخففه بمصطلح اجتماعي، ولا تمنحه قناعًا لغويًا. فالقرآن يعرف أن أول انتصار للباطل هو أن يغير اسمه.

الزنا قد يُسمى علاقة.
وقد يُسمى حرية.
وقد يُسمى تجربة.
وقد يُسمى حبًا.
وقد يُسمى حقًا شخصيًا.

لكن النور لا يسمح للظلام أن يكتب لافتته الخاصة.

حين تتغير أسماء الخطايا، تبدأ القلوب في مصالحتها دون أن تشعر.

والقرآن حين يسمي الزنا زنا، لا يفعل ذلك ليقسو على الإنسان، بل ليحميه من خداع اللغة. فكم من سقوطٍ بدأ بكلمة مخففة. وكم من بابٍ فتحه الإنسان على نفسه لأنه أقنعها أن الأمر أبسط من أن تخاف. وكم من علاقة محرمة بدأت بحديث بريء، ثم نظرة طويلة، ثم وعد غامض، ثم خلوة، ثم انهيار داخلي لا يسمعه أحد.

ليست المعصية دائمًا قفزة واحدة. أحيانًا تكون درجًا نازلًا، كل درجة فيه تبدو صغيرة، حتى يجد الإنسان نفسه في قاع لم يكن يتخيل أن يصل إليه.

لا يسقط الإنسان غالبًا لأنه أراد الهاوية، بل لأنه استهان بالطريق إليها.

ومن هنا نفهم شيئًا من شدة الآية. فالحكم هنا ليس انتقامًا من جسد أخطأ، بل إعلان أن المجتمع المؤمن لا يسمح بتحويل الفاحشة إلى أمر مألوف. لأن الفاحشة إذا خرجت من دائرة الذنب المستتر إلى دائرة الاستسهال، فإنها لا تبقى خطأً فرديًا، بل تصير ثقافة.

وحين تصير الفاحشة ثقافة، تتغير نظرة الناس إلى الطهر. يصبح العفيف معقدًا، والمستقيم متشددًا، والحريص قديمًا، والمستهين متحررًا. وتنقلب الموازين حتى يحتاج الطاهر أن يعتذر عن طهره، بينما يمشي المتفلت مرفوع الرأس كأنه اكتشف سر الحياة.

من أعظم مصائب المجتمع أن يصبح الطهر غريبًا، والفوضى طبيعية.

ولذلك تقول الآية: ﴿**وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ**﴾.

وهذه الجملة تحتاج إلى فهم دقيق؛ لأن القرآن ليس ضد الرحمة. بل هو كتاب الرحمة. والله سبحانه كتب على نفسه الرحمة، وبعث نبيه رحمة للعالمين. لكن هناك فرقًا بين الرحمة التي تنقذ الإنسان، والرأفة التي تفسد النظام. فرق بين أن نرحم المذنب فنفتح له باب التوبة، وأن نلغي حرمة الذنب حتى لا يتألم أحد من وصفه.

ليست كل رقة رحمة. أحيانًا تكون الرقة خيانة للحقيقة.
وأحيانًا تكون القسوة الظاهرة أصدق رحمة من تساهل يترك النار تنتشر في البيت كله.

الرحمة التي تلغي الحدود ليست رحمة، بل عاطفة فقدت بصيرتها.

إن القلب المؤمن لا يفرح بالعقوبة. لا يشمت، ولا يتشفى، ولا يتعامل مع الحدود كأنها مشهد غضب بشري. لكنه في الوقت نفسه لا يكون أرحم من الله بخلق الله. لأن الله الذي شرع التوبة هو الذي شرع الحد، والله الذي فتح أبواب المغفرة هو الذي أقام أبواب الوقاية.

فليست الرحمة أن نترك المجتمع ينهار باسم الرفق. وليست الرحمة أن نسكت عن الفاحشة حتى لا نجرح مشاعر الفاعل، بينما نجرح أرواح أجيال كاملة ستدفع ثمن هذا السكوت.

هناك رقة تحمي الفرد وتنسى الأمة.
وهناك عاطفة ترى لحظة الألم ولا ترى مستقبل الخراب.
وهناك قلب يلين في غير موضع اللين، فيظن أنه متقدم في الرحمة، وهو في الحقيقة متأخر في الفهم.

الرأفة التي تعطل أمر الله قد تبدو بيضاء، لكنها تحمل في داخلها بذرة ظلام طويل.

ثم تربط الآية الأمر بالإيمان: ﴿**إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾

كأن القضية ليست قضية قانونية مجردة. إنها قضية إيمان. فمن آمن بالله عرف أن الله لا يشرع عبثًا. ومن آمن باليوم الآخر عرف أن آثار الذنوب لا تنتهي في الدنيا. ومن آمن بالله واليوم الآخر لم يقس الأحكام الإلهية بمزاجه العابر، ولا بخجل العصر، ولا بما تروجه المجتمعات حين تفقد بوصلتها.

إن الإيمان بالله يمنح القلب ثقة في الأمر.
والإيمان باليوم الآخر يمنحه خوفًا من العاقبة.
وبين الثقة والخوف يولد التسليم.

لا يفهم الحدود من لا يؤمن بأن للحياة عاقبة تتجاوز لحظتها.

ثم تأتي الجملة العجيبة: ﴿**وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾

ليس المقصود أن يتحول المجتمع إلى جمهور متعطش للمشهد. المؤمن لا يطلب الفضيحة، ولا يتلذذ برؤية الوجع. لكن حضور الطائفة يحمل معنى الإعلان أن الفاحشة ليست شأنًا خفيًا إذا ثبتت وظهرت وبلغت القضاء. إنها رسالة اجتماعية أن الطهر العام له حرمة، وأن المجتمع لا يتعامل مع انتهاكها كأنه حدث صغير.

فكما أن الذنب حين يشيع يطبع النفوس على التهاون، فإن الحد حين يعلن يوقظ النفوس إلى الهيبة. وليس كل ما يوقظ النفس يكون لطيفًا. أحيانًا لا تستيقظ القلوب إلا إذا رأت عاقبة الطريق الذي كانت تظنه سهلًا.

بعض المشاهد لا يراد بها إذلال الساقط، بل إنقاذ الواقفين على الحافة.

ومع ذلك، تبقى هذه الآية محاطة بسياج عظيم في الشريعة: إثبات الزنا ليس أمرًا سهلًا، ولا مبنيًا على الظنون، ولا على التجسس، ولا على اقتحام الخلوات، ولا على تتبع العورات. وهذا من عدل الإسلام ورحمته. فهو من جهة يشدد في حرمة الفاحشة، ومن جهة أخرى يشدد في حرمة اتهام الناس بها.

وهنا تشرق دقة النور:
لا تساهل مع الفاحشة.
ولا تساهل مع اتهام الأبرياء بالفاحشة.

إنها ليست شريعة فضائح، بل شريعة طهر.
وليست شريعة تتبع، بل شريعة ستر.
وليست شريعة تهوين، بل شريعة ميزان.

النور لا يفضح الناس، لكنه لا يترك الفاحشة تصبح طريقًا عامًا.

وهذا التوازن من أعظم ما نحتاجه اليوم. فنحن نعيش بين طرفين: طرف يريد أن يميع كل شيء، فلا يبقى للحرام اسم ولا للحد حرمة، وطرف قد يتعامل مع ذنوب الناس بعين قاسية لا تعرف الستر ولا الرحمة ولا التوبة.

أما سورة النور فتأخذنا إلى طريق ثالث: طريق الهيبة والستر معًا.
أن تكره الفاحشة دون أن تكره التائب.
أن تحفظ الحدود دون أن تتحول إلى قاضٍ على القلوب.
أن تسمي الذنب باسمه دون أن تغلق باب العودة.
أن تحمي المجتمع دون أن تسحق الإنسان.

الطهر القرآني لا يعرف الشماتة؛ يعرف الحزم، ويعرف الستر، ويعرف باب التوبة.

إن من أخطر ما يحدث للإنسان حين يبتعد عن الوحي أنه يفقد قدرته على الجمع بين المعاني. فإذا رحم، ألغى الحكم. وإذا حكم، ألغى الرحمة. وإذا ستر، هوّن الذنب. وإذا أنكر، فضح الإنسان. أما القرآن فيعلمنا أن نجمع: أن

يكون القلب رحيمًا، والميزان مستقيمًا، واللسان عفيفًا، والعين غير متتبعة، والمجتمع غير متهاون.

ولذلك ينبغي أن نقرأ هذه الآيات بخشوع، لا بصخب. لا نقرؤها كأننا واقفون خارجها نحاكم غيرنا، بل كأنها تكلم فينا شيئًا قابلًا للضعف. فكل إنسان يحمل داخله مناطق تحتاج إلى حراسة. وليس أحدٌ أكبر من الفتنة. ومن ظن أنه بعيد جدًا عن السقوط، فقد اقترب من أول الغرور.

لا أحد يسقط في الحرام إلا بعد أن يضعف في قلبه حارس الخوف من الله.

ربما لا يبدأ الأمر بفعل كبير. ربما يبدأ برسالة. بصورة. بمزاح. بفضول. بنظرة متكررة. بتعليق لا حاجة له. بفراغ طويل. بصداقة غير بريئة. بتبرير صغير. بغفلة عن الصلاة. بضعف في الذكر. بانطفاء الحياء شيئًا فشيئًا.

والنفس إذا اعتادت الاقتراب من النار، تغير إحساسها بالحرارة. أول مرة تخاف. ثاني مرة تتردد. ثالث مرة تطمئن. ثم تظن أن النار صارت صديقة، حتى تحرقها.

أخطر ما في الذنب ليس لحظته، بل قدرته على تدريب القلب أن لا يرتجف.

ولهذا جاءت سورة النور في مطلعها صارمة. إنها تريد أن تبقي الرجفة حية في القلب. تريد أن يبقى الحرام حرامًا في الوعي، لا أن يتحول إلى عادة اجتماعية. تريد أن يبقى الجسد كريمًا، لا ممرًا عابرًا لرغبة بلا عهد. تريد أن تبقى العلاقة بين الرجل والمرأة محروسة بالحياء، لا مفتوحة على فوضى التجربة.

لكن هذا كله لا يعني أن القرآن يغلق باب الرجاء. فمن قرأ القرآن كله علم أن الله يحب التوابين، وأن التوبة تهدم ما قبلها، وأن العبد قد يعود من ذنب عظيم بقلب أشد انكسارًا وصفاءً ممن لم يعرف معنى الانكسار. غير أن فتح باب التوبة شيء، وتزيين باب المعصية شيء آخر.

التوبة تفتح الطريق للعائدين، لكنها لا تحول الطريق الخاطئ إلى طريق صحيح.

ما أعظم رحمة الله حين لا يطرد عبده بعد السقوط. وما أعظم حكمته حين لا يسمح للسقوط أن يصبح ثقافة. بين هذين المعنيين تسير سورة النور: رحمة للتائب، وحماية للمجتمع، وتطهير للمعنى الإنساني من الابتذال.

إنها تقول للإنسان: جسدك ليس رخيصًا.
ورغبتك ليست عدوة، لكنها تحتاج إلى عهد.
وجمالك ليس لعنة، لكنه يحتاج إلى حياء.
وحريتك ليست أن تفعل كل ما يخطر لك، بل أن ترتفع عن كل ما يهينك.
والحب ليس أن تكسر حدود الله باسم الشعور، بل أن تطلب الشعور من بابه الطاهر.

كل علاقة لا يحرسها الله ستجرح أصحابها ولو تزينت بأجمل الكلمات.

وفي نهاية هذا المقطع، لا يخرج القارئ بسؤال عن الآخرين، بل بسؤال عن نفسه:

أين موضع الفتنة في حياتي؟
ما الباب الذي أحتاج أن أغلقه قبل أن يتسع؟
ما العلاقة التي أعرف في أعماقي أنها تأخذني بعيدًا عن الله؟

ما الاسم الجميل الذي أطلقته على شيء لا يرضي الله؟
هل أتعامل مع جسدي كأمانة، أم كساحة مفتوحة لكل رغبة عابرة؟

إن سورة النور لا تريد أن تخيفنا من أجسادنا، بل أن تخيفنا عليها. لا تريد أن تجعل الحياة كئيبة، بل أن تمنع اللذة من أن تتحول إلى ندم. ولا تريد أن تجعل الطهر عبئًا، بل أن تكشف لنا أن الطهر هو الشكل الأعمق للحرية.

من صان جسده لله، أضاء الله في قلبه معنى الكرامة.

وهكذا نرى أن النور يبدأ هنا من منطقة ملتهبة. من الجسد. من الشهوة. من الحد. من الخوف. لكنه لا يبقى هناك. إنه يمضي بنا إلى معنى أوسع: أن الإنسان لا يكون مضيئًا حتى تتصالح رغباته مع عبوديته، وحتى يتعلم أن يقول لا لما يهينه، نعم لما يرفعه.

فليس النور أن تنعدم الرغبة، بل أن تهتدي.
وليس النور أن لا توجد الفتنة، بل أن تقوم في القلب مقاومة.
وليس النور أن لا يخطئ الإنسان أبدًا، بل أن لا يجعل الخطأ وطنًا.

وفي سورة اسمها النور، كان لا بد أن تبدأ هذه المواجهة مبكرًا؛ لأن
المصباح لا يستقر في بيتٍ امتلأت أرضه بالزيت المسكوب.
ولا يطمئن الضوء في قلبٍ لا يحرس منافذه.
ولا يشرق المجتمع إذا صار الجسد فيه بلا قداسة، والحياء بلا قيمة، والعلاقة بلا عهد.

وبهذا نفهم:
أن الأمر ليس حدًا فحسب.

إنه دفاع عن الإنسان.

عن صورته التي أرادها الله له.

عن جسده أن يصير سوقًا.

عن قلبه أن يصير فريسة.

عن بيته أن يصير هشًا.

عن مجتمعه أن يصير عاريًا من المعنى.

كل حكم في سورة النور هو في عمقه محاولة لإنقاذ النور من يد الظلام.

الفصل الثالث

حين تكشف العلاقةُ معدنَ الروح

﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

بعد أن تحدثت السورة عن الفعل الآثم، تنتقل إلى أثره في معنى العلاقة. فالزنا ليس خطأ يقع ثم ينتهي في مكانه، بل يترك وراءه رائحة في التصور، وجرحًا في الثقة، واضطرابًا في معنى الارتباط.

إن العلاقة بين الرجل والمرأة في القرآن ليست مجرّد اقتراب جسدين، ولا اتفاقًا عابرًا على لذة، ولا مساحة مفتوحة للتجربة. العلاقة في أصلها **ميثاق**. والميثاق لا يحتمله قلب مستهين بالحدود، ولا نفس اعتادت أن تأخذ من الآخر ما تريد ثم تمضي.

العلاقة التي لا يحرسها الإيمان تتحول من سكنٍ إلى استهلاك.

حين يقول القرآن: **﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾**، فهو يكشف لنا أن الاختيارات ليست بريئة دائمًا. فالإنسان غالبًا ينجذب إلى ما يشبه باطنه. النفس التي هان عليها الحرام تبحث عمّن يشاركها هذا الهوان، أو عمّن لا يرى في الطهر قيمة عظيمة.

ليس المقصود أن باب التوبة مغلق، فباب الله أوسع من ذنوب العباد. ولكن المقصود أن الإصرار على الفاحشة يغيّر ذائقة الإنسان. يجعله يستثقل الطهر،

ويخاف من النقاء، ويشعر أن العفيف يفضحه بصمته، وأن المستقيم يربكه بمجرد وجوده.

أحيانًا لا يكره الإنسان الطهر لأنه لم يفهمه، بل لأنه يذكّره بما خسره من نفسه.

وهذا من أسرار الذنب: أنه لا يكتفي بأن يقع في السلوك، بل يريد أن يعيد تشكيل المعايير. فالذي يعتاد الحرام لا يبقى ينظر إليه كما كان ينظر أول مرة. في البداية يخاف، ثم يبرر، ثم يكرر، ثم يدافع، ثم ربما صار يرى من ينكر عليه ضيقًا أو قسوة أو تخلفًا.

وهكذا تتحول المعصية من سقطة إلى هوية، ومن ضعف إلى منهج، ومن ذنب يرجو صاحبه أن يغفره الله إلى راية يرفعها في وجه الطهر.

الخطر ليس أن يخطئ الإنسان، بل أن يصالح خطأه حتى يصبح جزءًا من تعريفه لنفسه.

لذلك جاءت الآية لتفصل بين المجتمع المؤمن وبين تطبيع الفاحشة. فالمؤمن قد يضعف، وقد يتعثر، وقد تسحبه لحظة، لكنه لا يمنح الذنب حق الإقامة الدائمة في قلبه. لا يبدل أسماء الأشياء. لا يسمي الظلام نورًا. لا يجعل سقوطه مذهبًا. لا يبحث عن مجتمع يصفق لجراحه بدل أن يعينه على الشفاء.

أما حين يصبح الحرام مألوفًا في النفس، فإن الإنسان يبدأ في اختيار علاقاته على أساس هذا المألوف. لا يريد من يوقظه، بل من ينام معه في الغفلة. لا يريد من يذكّره بالله، بل من يطمئنه أن الطريق المظلم ليس مظلمًا إلى هذا الحد.

كل علاقة تُسكت صوت الله في داخلك ليست حبًا، ولو تحدثت كثيرًا عن الحب.

إن الحب في القرآن لا ينفصل عن الطهر. قد يمتلئ القلب بعاطفة، لكن العاطفة وحدها لا تكفي لتبرئة الطريق. فكم من شعور جميل قاد صاحبه إلى باب قبيح. وكم من كلمة حب كانت ستارًا لرغبة لا تريد أن تتحمل مسؤولية. وكم من قلب ظن أنه وجد النور في إنسان، فإذا به يبتعد بسببه عن نور الله.

الحب الحقيقي لا يطلب منك أن تخون ربك.
لا يطلب منك أن تكسر حياءك.
لا يطلب منك أن تهدم بيتًا.
لا يطلب منك أن تخاف من انكشافه.
لا يطلب منك أن تعيش مزدوجًا: وجهًا أمام الناس، ووجهًا في الخفاء.

ما احتاج إلى الظلام كي يعيش، فليس نورًا مهما بدا دافئًا.

ولهذا كان الزواج في التصور القرآني انتقالًا من الرغبة إلى المسؤولية، ومن الانجذاب إلى العهد، ومن الخفاء القلق إلى الإعلان المطمئن. الزواج ليس إطفاءً للشهوة، بل تهذيب لها. وليس قيدًا على الحب، بل بيتًا يحمي الحب من أن يتحول إلى عبث.

فالذي يريد الجسد بلا عهد، يريد ثمرة بلا شجرة. والذي يريد القرب بلا مسؤولية، يريد دفء البيت دون أن يبنيه. والذي يريد اللذة دون تبعة، يريد أن يأخذ من الإنسان جزءًا ويترك بقيته في العراء.

في الحرام يأخذ الإنسان من الآخر لحظته، وفي الحلال يتسلم أمانته.

ومن هنا نفهم لماذا تختم الآية بقوله تعالى: ﴿**وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾.

إنها لا تخاطب جسد المؤمن فقط، بل تخاطب هويته. كأنها تقول له: أنت لست كائنًا عابرًا في سوق الرغبات. أنت مؤمن. لك نسب إلى السماء. لك عهد مع الله. لك ميزان لا تصنعه الشهوة. لك اسم ينبغي أن تحرسه: عبد الله.

والمؤمن لا يليق به أن يضع قلبه حيث لا يرضى الله. لا يليق به أن يجعل حياته العاطفية منطقة مستثناة من العبودية. لا يليق به أن يكون في المسجد عبدًا، وفي علاقاته تابعًا للهوى.

الإيمان لا يترك للحب منطقةً خارجة عن نور الله.

وهذا معنى يحتاجه الإنسان بشدة؛ لأن كثيرًا من الناس حين يدخلون باب العاطفة يظنون أنهم خرجوا من دائرة التكليف. كأن الحب يمنحهم رخصة خاصة. كأن المشاعر إذا اشتدت صارت دليلًا على البراءة. كأن القلب حين يخفق لا يعود مطالبًا أن يسأل: أهذا الطريق يرضي الله؟

لكن سورة النور لا تسمح للعاطفة أن تصبح مشرّعًا. تحترم حرارة الإنسان، لكنها لا تجعل حرارته إلهًا. تعرف أن القلب يشتاق، لكنها تعرف أيضًا أن القلب قد يشتاق إلى ما يهلكه. تعرف أن الإنسان يحب، لكنها تعرف أن الحب قد يختلط بالتملك، والضعف، والشهوة، والفراغ، والغرور، والبحث عن التعويض.

ليس كل ما تحرك في القلب حقًا، فبعض المشاعر امتحان لا هداية.

ما أكثر من دخلوا علاقةً وهم يظنون أنهم يبحثون عن الحب، فإذا بهم يبحثون عن اعتراف. أو عن ملء فراغ. أو عن انتقام من وحدة قديمة. أو عن إثبات للجاذبية. أو عن هروب من أنفسهم. وحين لا يكون القلب ممتلئًا بالله، فإنه يطلب من البشر ما لا يقدر البشر أن يمنحوه.

فيثقل على الآخر.
ويبالغ في التعلق.
ويخاف الفقد حتى يذل.
ويقبل الحرام لأنه يخشى أن يخسر.
وينسى أن من خاف فقد إنسان حتى عصى الله لأجله، فقد خسر نفسه قبل أن يخسره.

لا تجعل أحدًا طريقك إلى اللهو عن الله، ثم تسمي ذلك حبًا.

إن سورة النور تعيد للعلاقات هيبتها. لا تجعلها لعبًا، ولا تجربة، ولا تسلية لوقت الفراغ. فكل اقتراب من إنسان هو دخول في حرمة. كل كلمة قد تفتح بابًا. كل نظرة قد تنشئ وعدًا صامتًا. كل تعلق قد يصنع في القلب حقًا لا يملك صاحبه الوفاء به.

لذلك كان الطهر رحمة بالطرفين. العفاف ليس حرمانًا من الحب، بل حماية للحب من أن يولد مشوهًا. والحدود ليست إهانة للمشاعر، بل إنقاذ لها من أن تستهلك نفسها قبل أوانها.

أجمل المشاعر قد تُهان إذا وُضعت في الطريق الخطأ.

وحين نقول إن العلاقة تحتاج إلى طهر، فليس معنى ذلك أن الطاهرين بلا ضعف، أو أن الصالحين بلا احتياج، أو أن المؤمنين لا يعرفون الحنين. بل لعل قلوبهم أرق، وأرواحهم أشد إحساسًا، لكن الفرق أنهم لا يجعلون احتياجهم حجة على الله.

المؤمن قد يحب، لكنه يسأل: أين يضع هذا الحب؟
قد يشتاق، لكنه يسأل: إلى أين يقوده هذا الشوق؟
قد يتألم من المنع، لكنه يعلم أن ألم الطاعة أرحم من لذة المعصية.
قد يترك شيئًا يحبه، لأنه يحب الله أكثر.

ليس العفاف أن لا تشتهي، بل أن تعرف لمن تطيع حين تشتهي.

وفي هذا المعنى يظهر جمال الإيمان، فالإيمان لا يلغي إنسانية الإنسان، بل يهذبها، لا يقول له: لا تحب، بل يقول له: أحب بنور. لا يقول له: لا ترغب، بل يقول له: اجعل رغبتك في طريقها الكريم. لا يقول له: اقتل قلبك، بل يقول له: لا تسلمه لمن يقتله ببطء.

وكم من قلب ظن أن الحرام سيمنحه حياة، فإذا به يسرق حياته.
وكم من علاقة بدأت بوهجٍ وانتهت بندبة.
وكم من رسالة أضحكت صاحبها ساعة، ثم أبكته طويلًا.
وكم من وعدٍ في الخفاء كان في الحقيقة تدريبًا على الخيانة.
وكم من إنسان فقد طمأنينته لأنه أودع سره عند قلب لا يخاف الله فيه.

من لا يخاف الله في نفسه، لا تأمن أن يخاف الله في قلبك.

تأتي سورة النور لتضع هذه الحقيقة في موضعها: العلاقات تكشف معدن الإنسان. فمن كان قلبه مؤمنًا، لم يرضَ أن يبني قربًا على معصية. ومن كان يريد الله، خاف أن يصل إلى مخلوق بطريق يبعده عن الخالق. ومن كان يعرف قيمة نفسه، لم يسمح لشهوة عابرة أن تخفض قدره في عينه.

إن الآية لا تسجن الإنسان في ماضيه إن تاب، لكنها تحذره من الإصرار الذي يصنع بيئة كاملة للحرام. فمن تاب، تبدل. ومن تبدل، تغيرت اختياراته. ومن صدق مع الله، صار يبحث عمّن يعينه على النور، لا عمّن يشاركه الظلمة.

التوبة لا تمحو الذنب من الصحيفة فقط، بل تعيد تشكيل الذائقة.

فالذي تاب حقًا لا يعود يرى الحرام جذابًا كما كان. قد تضعف نفسه أحيانًا، لكنه يكره الطريق. قد تلمع الصورة أمامه، لكنه يتذكر الحفرة خلفها. قد يحنّ إلى شيء من الماضي، لكنه يحزن من حنينه ويستغفر. لأن التوبة ليست مجرد ندم على حادثة، بل عودة في الاتجاه كله.

وهنا يصبح السؤال عميقًا:
من هم الذين نقترب منهم؟
ما نوع العلاقات التي نسمح لها أن تسكن أيامنا؟
هل يزداد نورنا مع من نحب، أم ينطفئ؟
هل نخرج من الحديث معهم أقرب إلى الله، أم أكثر جرأة على الغفلة؟
هل نطمئن لأنهم يحرسون أرواحنا، أم نخاف لأنهم يعرفون مداخل ضعفنا؟

قِس علاقاتك بهذا: هل تزيد فيك الحياء أم تسرقه منك بهدوء؟

إن الإنسان لا يفسد وحده دائمًا. أحيانًا يفسد بصحبة، أو برسالة، أو بعلاقة، أو بإعجاب، أو بمن يمنحه لغة جديدة لتبرير ما كان يخافه من قبل. ولهذا كان من رحمة الله أن جعل الإيمان لا يكتفي بإصلاح الداخل، بل يعلّمك أن تختار من يدخل إلى داخلك.

فليس كل طارق يستحق أن تفتح له.
وليس كل معجب بك يحب نجاتك.
وليس كل من قال لك كلامًا جميلًا يريد لك طريقًا جميلًا.
وليس كل من أيقظ فيك شعورًا أيقظ فيك نورًا.

بعض الناس لا يدخلون حياتك كأشخاص، بل كاختبار لطهارتك.

وهذا لا يعني أن نحتقر العصاة، ولا أن نتكبر على المذنبين، ولا أن ننسى أننا جميعًا نحتاج إلى رحمة الله. بل يعني أن نفرق بين الرحمة والمشاركة، وبين الدعاء للإنسان واتباع طريقه، وبين ستر ضعفه وفتح القلب لنمط حياته.

قد ترحم غريقًا دون أن تقفز معه إلى البحر بلا حبل.
وقد تدعو لمبتلى دون أن تجعل بلاءه بيتك.
وقد تحب الخير لإنسان دون أن تسلمه مفاتيح روحك.

فالقلب ليس مكانًا عامًا. القلب بيت. وسورة النور ستعلمنا بعد قليل أدب البيوت. ومن أعظم البيوت: هذا البيت الخفي الذي في الصدر.

لا تُدخل إلى قلبك من لا يستأذن الله قبل أن يقترب منك.

إن الآية تجعل المؤمن يقف أمام معنى الاصطفاء في العلاقات. فالنكاح ليس مجرد توافق رغبات، بل توافق وجهات. ليس فقط: هل نحب بعضنا؟ بل: إلى أين سيأخذ أحدنا الآخر؟ هل نبني بيتًا يقربنا من الله، أم مأوى نتعاون فيه على الغفلة؟ هل سيكون بيننا ستر، أو سنصبح سببًا في انكشاف أرواحنا؟

البيت الذي يبدأ بمعصية يحتاج توبةً صادقة حتى لا يبقى ظله معتمًا. والحب الذي لا يمر على الله يظل ناقص الطمأنينة. والقرب الذي لا يحرسه الحلال يظل قلقًا، مهما تظاهر بالاستقرار.

ما بُني بعيدًا عن الله سيظل يطلب النور ولا يعرف أين يجده.

وفي نهاية هذا الفصل، لا بد أن نسمع الآية وهي تسألنا في صمت:

ما الذي يشبهنا في اختياراتنا؟
هل نختار من يرفعنا، أم من يبرر سقوطنا؟
هل نبحث عن قلبٍ نطمئن معه إلى الله، أم عن قلبٍ نختبئ معه من الله؟
هل علاقاتنا امتداد لإيماننا، أم استثناء مؤلم منه؟

إن سورة النور لا تريد علاقات بلا عاطفة، بل تريد عاطفة بلا ظلام. لا تريد بيوتًا باردة، بل بيوتًا طاهرة. لا تريد قلوبًا حجرية، بل قلوبًا تعرف أن الحب نعمة لا يجوز أن تُحمل في طريق معصية.

فالطهارة ليست ضد الحب.
إنها شرط نضجه.
وليست الحدود ضد السعادة.
إنها سياجها.

وليست العفة رفضًا للحياة.
إنها اختيار النسخة الأعلى من الحياة.

الحب إذا لم يزدد بالله نورًا، صار مع الأيام بابًا من أبواب العتمة.

وهكذا تمضي السورة خطوة أخرى في هندسة النور: بعد أن حرست الجسد من الفاحشة، بدأت تحرس العلاقة من الابتذال. وبعد أن سمّت الذنب باسمه، كشفت أن الذنب حين يستقر يغيّر الذائقة والاختيار.
وبعد أن أقامت الحد على الفعل، أقامت في القلب حدًا آخر: لا تمنح مقام القرب لمن يهون عليه أمر الله.

فالنور ليس فقط أن لا تفعل الحرام.
النور أيضًا أن لا تحب الحرام.
ولا تزينه.
ولا تختار من يجعله مألوفًا في عينك.
ولا تسمح لعلاقة أن تنقلك من حياء المؤمن إلى جرأة الغافل.

ومن هنا نفهم أن سورة النور لا تبني مجتمعًا طاهرًا بالعقوبات وحدها، بل تبنيه بإعادة تشكيل الذوق: ماذا نحب؟ ممن نقترب؟ ماذا نرى جميلًا؟ ماذا نرى قبيحًا؟ وأي القلوب تستحق أن نربط مصيرنا بها؟

لا يكتمل نور الإنسان حتى تصبح اختياراته العاطفية جزءًا من إيمانه.

الفصل الرابع

حين تتحول الكلمة إلى حجر

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

بعد أن وقفت سورة النور أمام الفاحشة نفسها، تقف الآن أمام ظلٍّ آخر من ظلالها: اتهام الأبرياء بها.

وهنا نرى عدل القرآن في أبهى صوره؛ فهو لا يشتد على الفاحشة ثم يترك ألسنة الناس تعبث بأعراض الخلق. لا يرفع جدار الطهر من جهة، ثم يترك فيه ثغرةً واسعة من جهة الكلام. لا يقول للناس: احذروا الزنا، ثم يسمح لكل لسان أن يرمي الناس به متى شاء، وكيف شاء، وبأي شبهة شاء.

إن السورة تعرف أن العرض لا يُجرح بالفعل وحده، بل قد يجرحه الكلام. وتعرف أن الإنسان قد ينجو من الذنب، لكنه لا ينجو من تهمة الناس. وتعرف أن اللسان إذا انفلت صار أحيانًا أشد قسوة من الفعل نفسه.

ليست كل الجراح تنزف من الجسد؛ بعضها ينزف من السمعة.

يقول الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ**﴾.

والتعبير بالرمي عجيب. فالقذف ليس مجرد كلام يخرج من الفم، بل حجر يُلقى. سهم يُطلق. شيء يصيب ولا يعود كما كان. الكلمة هنا ليست هواءً؛ إنها أداة جرح. كأن المتكلم حين يتهم بريئًا في عرضه لا يتحدث، بل يرمي. يرمي قلبًا، وبيتًا، وأسرة، وتاريخًا، وطمأنينة، وربما مستقبلًا كاملًا.

الكلمة إذا خرجت في عرض إنسان، لم تعد كلمة؛ صارت قدرًا صغيرًا يطارده بين الناس.

كم من بريء تغيّر وجهه في أعين الناس لا لشيء إلا لأن لسانًا خفيفًا قال، ولسانًا آخر نقل، وثالثًا زاد، ورابعًا ابتسم، وخامسًا سأل سؤالًا خبيثًا: هل صحيح ما يُقال؟

هكذا تبدأ الكارثة. لا يأتي الظلم دائمًا صارخًا. أحيانًا يأتي في هيئة همسة. في هيئة: سمعت. في هيئة: لا أريد أن أظلم أحدًا، ولكن. في هيئة: الله يستر علينا وعليهم. في هيئة سؤال يلبس ثوب البراءة وهو يحمل سكينًا تحت الثوب.

أخطر الشائعات تلك التي تتوضأ بلغة التقوى قبل أن تطعن.

وسورة النور لا تسمح بهذا. لا تترك الأعراض في مهب المزاج، ولا تجعل سمعة الناس أرضًا مفتوحة لكل ظن. إنها تضع شرطًا ثقيلًا: ﴿**ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ**﴾.

أربعة شهداء.

ليس شاهدًا واحدًا.

ولا اثنين.

ولا قرينة عابرة.

ولا صورة مبتورة.

ولا رسالة محتملة.

ولا ظنًا قويًا في نفس صاحبه.

ولا تحليلًا نفسيًا.

ولا فراسة يتباهى بها صاحبها.

أربعة شهداء.

كأن القرآن يريد أن يقول: إن العرض منطقة محرمة، فلا تقترب منها إلا ببينة ترفع عنك التهمة أمام الله قبل الناس.

حيث تكون السمعة، لا يكفي الظن؛ لأن الظن قد يكون ظلامًا يرتدي هيئة بصيرة.

إن هذا الشرط الصارم ليس تعقيدًا للإثبات فحسب، بل تربية للمجتمع على أن الأصل في أعراض الناس الستر والسلامة. لا يجوز أن تكون الألسنة أسرع من البينات. لا يجوز أن يصبح الناس قضاة على بعضهم بمجرد إشارات. لا يجوز أن تُبنى الأحكام على ملامح، أو خلوات متوهمة، أو حكايات ناقصة، أو رسائل لا يعرف أحد سياقها، أو صور قديمة، أو خصومة تريد أن تنتقم.

فالإنسان ليس ملفًا مفتوحًا للتحليل.
والسمعة ليست ساحة تجارب.
والعرض ليس خبرًا يُتداول حتى يثبت العكس.

في ميزان سورة النور: كرامة الإنسان أثقل من فضول الناس.

ثم يأتي الحكم: ﴿**فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً**﴾.

وهنا يشتد النور من جديد. لأن الكلام في الأعراض ليس خطأً خفيفًا. ليس زلة مجلس فقط. ليس عبارة طائشة تنتهي باعتذار بارد. إن القذف جريمة في حق إنسان، وفي حق مجتمع، وفي حق معنى الطهر نفسه.

فالذي يرمي الناس بالفاحشة بلا بينة لا يحمي المجتمع من الفساد كما يتوهم، بل يفسده من باب آخر. يشيع الريبة. يلوث الخيال العام. يجعل الناس يتخيلون الفاحشة حيث لا بينة. يقتل الثقة. يفتح السوق السوداء للكلام. يحول المجالس إلى محاكم بلا عدل، والمستمعين إلى شهود زور صامتين.

من أشاع التهمة بلا بينة، فقد شارك في صناعة الفاحشة ولو كان يزعم إنكارها.

وهذا معنى دقيق. فهناك من يظن أنه حين يتكلم عن سقوط فلان أو فلانة فإنه يغار على الطهر، بينما هو في الحقيقة يشيع صورة السقوط في عقول الناس. يفتح باب التخيل. يمرر القذارة من فمه إلى آذانهم. يجعل الفاحشة مألوفة في الحديث، وإن كان يتكلم عنها بلهجة إنكار.

ليست الغيرة على الدين أن تجعل أعراض الناس مادة للمجالس.
وليست النصيحة أن تفضح.
وليست الشجاعة أن تتكلم بلا بينة.
وليست حماية المجتمع أن تهدم بريئًا لتبدو أنت حارس الفضيلة.

الحارس الحقيقي للطهر يحرس لسانه أولًا.

ثم يقول الله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا**﴾.

يا له من أثر موجع. فالذي خان حرمة الكلام في عرض إنسان، تهتز الثقة في كلامه كله. من استسهل رمي الناس بما يهدم حياتهم، كيف يؤتمن على شهادة؟ من جعل لسانه أداة عدوان، كيف يصبح لسانه ميزان عدل؟

إن الشهادة مقام أمانة. ولا يليق بهذا المقام لسان اعتاد أن يرمي بلا بينة. فالقضية ليست فقط عقوبة جسدية، بل سقوط معنوي في أهلية الثقة. إن المجتمع المؤمن لا يبني أحكامه على ألسنة ثبت أنها لا تخاف الله في أعراض الناس.

من خان الكلمة مرةً في عرض بريء، جعل الناس يخافون من صدقه حتى حين يصدق.

وهذا من عدل القرآن؛ لأنه يعرف أن المجتمعات تقوم على الثقة. فإذا ضاعت الثقة في الكلام، ضاع الأمن. وإذا صار كل أحد يخشى أن تُخترع حوله حكاية، وأن يُزاد على خطئه ما لم يفعل، وأن تفسر عثراته بأقبح الوجوه، ماتت السكينة بين الناس.

أي مجتمع هذا الذي لا يأمن فيه الإنسان على سمعته؟
أي بيت يطمئن وأفراده عرضة لرماح المجالس؟
أي طهر يبقى إذا صار الطاهر محتاجًا أن يثبت كل يوم أنه لم يفعل؟
أي نور يستقر في بيئة تتغذى على الظنون؟

المجتمع الذي لا يصون الأعراض يعيش في ظلام دائم، ولو كثرت فيه الكلمات عن الفضيلة.

ثم تختم الآية بوصف شديد: ﴿**وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾.

الفسق هنا خروج. خروج عن الطاعة، وخروج عن الأدب، وخروج عن حرمة الجماعة المؤمنة. فاللسان الذي يقذف ليس مجرد لسان مخطئ، بل لسان خرج من نظام النور. خرج من الصدق إلى الظن، ومن الستر إلى الفضح، ومن الورع إلى الخفة.

والعجيب أن الإنسان قد يظن نفسه مستقيمًا لأنه لم يقع في الفاحشة، ثم يقع في جريمة الكلام عنها في الأبرياء. وقد ينجو بجسده من الحرام، لكنه يهلك بلسانه وهو يتحدث عن حرام غيره. وقد يرفع راية الطهر، وفي يده حجر يقذف به محصنة أو محصنًا.

ليس الطاهر من سلم جسده فقط، بل من سلم الناس من ظلمه أيضًا.

إن سورة النور توسع مفهوم الطهر. الطهر ليس أن تحفظ نفسك من الفاحشة فحسب، بل أن تحفظ غيرك من أن تتهمه بها بلا حق. الطهر ليس امتناعًا شخصيًا فقط، بل عدلٌ في النظر إلى الناس. الطهر ليس بياض ثوبك وحده، بل نظافة لسانك حين يمر اسم إنسان أمامك.

ما قيمة أن تغض بصرك، ثم لا تغض لسانك؟
ما قيمة أن تحفظ بدنك، ثم تمزق سمعة غيرك؟
ما قيمة أن تكره الفاحشة، ثم تحب أخبارها؟
ما قيمة أن تفر من الحرام، ثم تقترب من رائحته في مجالس الكلام؟

قد يكون اللسان بابًا إلى ظلامٍ لم تدخله الجوارح.

ولهذا يحتاج المؤمن أن يتعلم أدب التوقف. ليس كل ما يسمع يقال. وليس كل ما يقال يصدق. وليس كل ما يصدق ينشر. وليس كل ما تعرفه تملك حق إعلانه. فكيف إذا كان ما سمعته لا بينة عليه، ولا شهود، ولا يقين؟

هناك عبادة اسمها الصمت.
وهناك ورع اسمه: لا أدري.
وهناك نجاة اسمها: لم أرَ، ولم أسمع، ولا أتكلم.
وهناك نور عظيم في أن ترد الكلمة عند أول باب، قبل أن تصبح حريقًا في بيوت الناس.

أحيانًا يكون أعظم عمل صالح في المجلس أن تقتل الشائعة قبل أن تولد كاملة.

كم يحتاج الإنسان إلى أن يضع على لسانه حارسًا. فالفم باب صغير، لكن قد يخرج منه خراب واسع. والكلمة قد لا تأخذ من صاحبها ثانية، لكنها تأخذ من ضحيتها سنوات. وقد يقولها المتكلم وهو يضحك، ويبكي بها المظلوم عمرًا. وقد ينساها قائلها بعد قليل، وتظل عالقة في قلب من قيلت فيه كشوكة لا تخرج.

ولذلك كانت آيات القذف في سورة النور في غاية الرحمة بالمجتمع. إنها تعلّم الناس أن الأعراض ليست مباحة للذكاء الاجتماعي، ولا للتوقعات، ولا للانطباعات، ولا للشماتة، ولا لتصفية الحسابات.

لا تجعل لسانك مقبرةً لسمعة أحد.

ثم بعد هذه الشدة كلها، يأتي الاستثناء المضيء: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾

ما أعظم هذا الباب. فحتى من رمى، وظلم، وجرح، وأسقط نفسه من مقام العدالة، لا يغلق القرآن في وجهه باب الرجوع. لكنه لا يقول: تابوا فقط. بل يقول: ﴿**وَأَصْلَحُوا**﴾.

لأن الذنب الذي أفسد في الناس يحتاج إلى إصلاح في الناس. والكلمة التي جرحت العلن تحتاج إلى توبة لا تبقى حبيسة السر. والعرض الذي شوهته أمام الخلق لا يكفي أن تندم عليه بينك وبين نفسك ثم تمضي كأن شيئًا لم يكن.

التوبة من ظلم الناس لا تكتمل بدمعة في الخلوة، حتى يرد المظلوم ما استطعت من حقه.

الإصلاح هنا كلمة كبيرة. أن تصلح ما أفسدته. أن تكذب نفسك حيث نشرت الكذبة. أن تبرئ من اتهمته حيث استطعت. أن تمنع امتداد النار التي أشعلتها. أن تعتذر بصدق. أن تحمل ثقل خطئك بدل أن تترك الضحية وحدها تحمل ثقل التهمة.

فليست التوبة من القذف مجرد استغفار باللسان؛ لأن الجريمة نفسها كانت باللسان. لا بد أن يعود اللسان خادمًا للحق بعد أن كان خادمًا للظلم.

من كسر سمعة إنسان، فليجعل من توبته جسرًا لإعادتها ما استطاع.

ومع ذلك، تظل الآية تختم باسمين كريمين: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾.

فالله لا يريد أن يدفع المذنب إلى اليأس. لا يقول له: أخطأت فلا رجعة. بل يقول: تب، وأصلح، وستجدني غفورًا رحيمًا. لكن المغفرة هنا ليست لعبة سهلة. إنها طريق عودة حقيقي، فيه ندم، وفيه إصلاح، وفيه اعتراف بأن اللسان الذي رمى لا بد أن يتطهر.

وهنا يتجلى توازن السورة مرة أخرى:
حزمٌ يحمي الأبرياء.
وتوبةٌ تنقذ الظالم إذا رجع.
عقوبةٌ تمنع العبث.
ورحمةٌ تمنع اليأس.
سترٌ للأعراض.
وبابٌ مفتوح لمن لوّث لسانه ثم أراد الغسل.

القرآن لا يساوم على حق المظلوم، ولا يغلق باب الله في وجه الظالم إذا تاب.

ما أجمل هذا العدل. وما أندر أن يجتمع في نظام واحد هذا الصفاء كله: حماية للضحية، وردع للمعتدي، وتطهير للمجتمع، وتربية للألسنة، ثم فتح باب الرجاء لمن عاد.

إن المجتمعات حين تفقد الوحي تقع غالبًا في أحد طرفين: إما أن تستبيح السمعة باسم حرية الكلام، وإما أن تسحق المخطئ سحقًا لا عودة بعده. أما سورة النور، فتقول: العرض مقدس، والقذف جريمة، والتوبة ممكنة، والإصلاح واجب.

لا نور بلا عدل، ولا عدل بلا رحمة، ولا رحمة بلا إصلاح.

ولعلنا في زمننا هذا أشد حاجة إلى هذه الآيات من أي وقت. فاللسان لم يعد لسانًا واحدًا في مجلس صغير. صار اللسان منشورًا، ورسالة، وتعليقًا، ومقطعًا، وتسجيلًا، وإعادة نشر. صار الإنسان قادرًا أن يقذف وهو في غرفته، وأن يجرح سمعة لا يعرف صاحبها، وأن يشارك في هدم بيت بضغطة عابرة، ثم ينام كأنه لم يفعل شيئًا.

لكن الملائكة لا تنام عن الكلمات.
والصحائف لا تعرف زر الحذف كما تعرفه الشاشات.
والله يسمع ما قيل، وما نُقل، وما أُعيد تداوله، وما أُرسل في الخفاء، وما ضُحك عليه في المجموعات.

في زمن السرعة، صار اللسان أصابع أيضًا.

فليحذر المؤمن من القذف الرقمي كما يحذر من القذف في المجلس. وليعلم أن إعادة نشر التهمة ليست حيادًا. وأن قول: "منقول" لا يعفي القلب من المسؤولية. وأن الفضول ليس عذرًا. وأن الناس ليسوا محتوى. وأن أعراضهم ليست مادة للتفاعل.

كم من حساب بُني على هدم الناس.
وكم من شهرة صُنعت من تتبع العورات.
وكم من جماهير صفقت لفضيحة، ثم نسيت أن في السماء ربًا لا ينسى.
وكم من كلمة قيلت في لحظة حماس، ثم صارت حملًا على صاحبها إلى يوم يلقى الله.

لا تكن جسرًا يعبر عليه الظلم إلى سمعة إنسان.

ومن تدبر هذه الآيات خرج بقلب أكثر خوفًا من الكلام. ليس خوف الجبن، بل خوف الورع. أن تزن الكلمة قبل أن تقولها. أن تتذكر أن لكل إنسان أمًا قد تبكي، وأبًا قد ينكسر، وبيتًا قد يهتز، وأطفالًا قد يكبرون تحت ظل تهمة لم تثبت.

لا تقل: الناس يقولون.
فالناس لا يدخلون قبرك معك.

لا تقل: الجميع نشر.
فالجميع لا يحمل عنك وزر إصبعك.

لا تقل: أنا لم أبدأ.
فربما لم تبدأ النار، لكنك وضعت فيها حطبًا.

لا تقل: يبدو الأمر واضحًا.
فكم من واضح في الظاهر كان مظلومًا في الحقيقة.

الورع أن تخاف من كلمةٍ لا تستطيع أن تدافع عنها أمام الله.

ثم إن حفظ الأعراض ليس مجرد امتناع عن القذف، بل هو خلق إيجابي. أن تحب ستر الناس. أن تفرح بسلامتهم. أن تكره انتشار الفضيحة. أن تدعو للمبتلى. أن تلتمس المعاذير حيث لا بينة. أن تقول لمن يفتح باب الكلام: اتق الله، لا ندري، لا نخوض.

إن المؤمن ليس شخصًا لا يظلم فقط، بل شخص يمنع الظلم إن استطاع. ليس طاهر اللسان فحسب، بل حارس لنقاء المجلس. لا يكفي أن تسكت أحيانًا إذا كان سكوتك يسمح للباطل أن يمشي مطمئنًا.

من نور القلب أن يضيق صدرك حين تُنتهك سمعة غائب أمامك.

وهذا الأدب عزيز. لأن النفس أحيانًا تحب أن تسمع. تحب الأسرار. تحب الأخبار المثيرة. تحب أن تعرف ما لا يعنيها. تحب أن تشعر أنها مطلعة. لكن القرآن يربي فينا ذوقًا آخر: أن لا نلذّ بما يلوثنا. أن لا نفتح آذاننا لكل شيء. أن نغلق المجلس كما نغلق الباب عن ريح خبيثة.

فالأذن شريكة.
والقلب يتلوث بما يستضيف.
ومن أكثر الاستماع إلى أعراض الناس، صار داخله مزدحمًا بصور لا تنفعه، وظنون لا يملكها، وأحكام لا يستطيع حملها.

كما تغض بصرك عن الحرام، غض سمعك عن فضائح الناس.

في نهاية هذه الآيات، تقف سورة النور بنا أمام سؤال كبير:

ما قيمة مجتمع يعاقب الفاحشة ولا يعاقب الكذب عنها؟
ما معنى الطهر إذا لم يكن للسمعة حرمة؟
ما معنى الإيمان إذا ظل اللسان مستثنى من الخشية؟
ما معنى الأخلاق إذا كان الإنسان يخاف على ماله أكثر مما يخاف على عرض أخيه؟

إن السورة تريد أن تجعل العرض منطقة نور. لا يقترب منها إلا الحق. ولا يدخلها الظن. ولا تعبث بها الألسنة. ولا تستثمرها الخصومات. ولا يتسلى بها الفارغون.

العرض في سورة النور ليس ملكًا لصاحبه وحده؛ إنه أمانة في عنق المجتمع كله.

فإذا سمعت اتهامًا، فتذكر هذه الآية.
وإذا دُعيت إلى مجلس يتتبع الناس، فتذكر هذه الآية.
وإذا أغرتك رسالة أن تعيد إرسالها، فتذكر هذه الآية.
وإذا ظننت أن كلمة صغيرة لن تصنع شيئًا، فتذكر أن الله سمّى ذلك رميًا.

الرمي لا يحتاج إلى قوة جسد.
قد يرمي الإنسان بلسان ناعم.
وقد يرمي بابتسامة.
وقد يرمي بسؤال.
وقد يرمي بتعليق قصير.
وقد يرمي بصمت يوحي بالموافقة.

فاحذر أن تكون راميًا وأنت تظن أنك مجرد عابر.

أحيانًا تكون البراءة كلها محتاجة إلى لسان واحد يرفض الظلم في بدايته.

وهكذا يمضي النور في السورة.

في الفصل السابق حرس الجسد من الفاحشة.

وفي هذا الفصل يحرس السمعة من الاتهام.

هناك منع الفعل.

وهنا منع رمي الناس بالفعل.

هناك طهارة السلوك.

وهنا طهارة الكلام.

وكأن السورة تقول: لا يكفي أن تنظف الطريق من الحرام، بل نظفه أيضًا من الظن بالحرام.

لأن المجتمع الذي يخاف الزنا لكنه لا يخاف القذف، مجتمع لم يفهم سورة النور بعد.

والمؤمن الذي يحفظ بدنه ولا يحفظ لسانه، لم تكتمل فيه مشكاة الطهر.

والقلب الذي يستثقل الفاحشة لكنه يستمتع بأخبارها، يحتاج أن يغسل ذوقه من جديد.

النور لا يسكن لسانًا يحب أن يلطخ الآخرين ولو باسم الغيرة.

فلنخرج من هذه الآيات ونحن أكثر هيبة للكلمة.

أكثر خوفًا من الظن.

أكثر رحمة بسمعة الناس.

أكثر استعدادًا لأن نقول: لا أعلم.

أكثر شجاعة في إغلاق باب الشائعة.

أكثر صدقًا في التوبة إن كنا قد رمينا، أو نقلنا، أو ساعدنا الظلم على الانتشار.

فإن من أعظم ما يتقرب به العبد إلى الله في هذا الباب أن يصبح الناس آمنين من لسانه.

أن يمر اسمهم أمامه فلا يخافون.

أن يحضر في مجلس فلا تمتد فيه السكاكين إلى الغائبين.

أن يعرف أن كل عرضٍ له عند الله حرمة، وأن كل كلمة لها عند الله وزنًا، وأن كل اتهام بلا بينة ظلام، ولو قيل في مجلس المتدينين.

من أراد نور سورة النور، فليبدأ بتطهير لسانه من رمي الناس.

الفصل الخامس

حين يدخل الاتهام إلى البيت

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾

بعد أن تحدثت السورة عن رمي المحصنات، تقترب أكثر من موضعٍ أشد حساسية: البيت.

فالاتهام إذا وقع في الناس كان جرحًا كبيرًا، أما إذا دخل بين زوجين فقد صار زلزالًا في المكان الذي خُلق ليكون سكنًا. البيت الذي كان مأوى، يتحول فجأة إلى محكمة. والفراش الذي كان محل ستر، يصبح موضع خصومة. واللسان الذي اعتاد نداء الألفة، ينطق بما لا يعود البيت بعده كما كان.

أقسى الجراح ما جاء من المكان الذي كنا ننتظر منه السكينة.

إن الزواج في القرآن ليس اجتماع جسدين تحت سقف واحد، بل ميثاق غليظ، وسر مشترك، وستر متبادل. الزوجان يعرف أحدهما من الآخر ما لا يعرفه الناس. يرى أحدهما ضعف الآخر، وملامحه في التعب، وخوفه، وعاداته الصغيرة، ولحظاته التي لا يظهر بها أمام العالم.

ولهذا كان البيت أمانة كبرى.
من دخل إلى حياة إنسان زوجًا أو زوجة، دخل إلى منطقة لا يجوز أن يحمل مفاتيحها بخفة.

فالزواج ليس حق معرفة فقط، بل واجب ستر.
وليس قربًا جسديًا فقط، بل مسؤولية أخلاقية.
وليس بابًا مفتوحًا على الآخر، بل عهدًا أن لا تستعمل ما عرفته منه سكينًا في يوم غضب.

البيت ليس أن تعرف أسرار إنسان، بل أن تصبح مأمونًا عليها.

لكن سورة النور لا تتحدث عن عالم مثالي لا تقع فيه الخيانات، ولا تنكسر فيه الثقة، ولا تشتعل فيه الشكوك. إنها سورة واقعية، تعرف الإنسان كما هو: قد يحب، وقد يضعف، وقد يصدق، وقد يكذب، وقد يُظلم، وقد يظلم، وقد يجد نفسه في موقف لا شهود فيه إلا الله.

هنا يأتي حكم اللعان؛ ذلك المشهد المهيب الذي لا يشبه مشاهد الخصومات العادية. ليس الأمر مجرد ادعاء وإنكار. إنه استدعاء لله إلى قلب النزاع. حين يعجز الشهود، وحين يصبح الأمر بين رجل وامرأة في أخص خصوصيات البيت، تقف الشريعة بالاثنين أمام اسم الله.

حين يغيب الشهود، لا يغيب الله.

هذه هي الحقيقة الكبرى في هذه الآيات. قد لا يرى الناس. قد لا يكون هناك دليل ظاهر. قد لا يستطيع أحد أن يخترق ستر البيت. لكن الله كان حاضرًا. وما دام الله حاضرًا، فلا أحد يستطيع أن يجعل الخفاء مملكة للكذب المطلق.

يقول تعالى: ﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ**﴾.

يا لها من عبارة ثقيلة.
أن يكون الإنسان شاهد نفسه.
أن يقف في منطقة لا يملك فيها أن يستدعي الناس، ولا أن يأتي ببينة خارجية، فيبقى وحده مع دعواه، ومع قلبه، ومع ربه.

وهنا يصبح اللسان خطيرًا جدًا. لأن الكلمة لم تعد تمر بين البشر فحسب؛ صارت شهادة بالله. ليست خصومة في مجلس. ليست صراخًا عائليًا. ليست اتهامًا في لحظة غضب. إنها أربع شهادات بالله، ثم خامسة تستدعي اللعنة إن كان كاذبًا.

ما أخف الكلمة على اللسان، وما أثقلها حين تُقال باسم الله.

في هذه الآيات يربينا القرآن على رهبة استحضار الله في الكلام. فكثير من الناس يظن أن القسم بالله يقوي حجته، وهو لا يدري أنه إن كان كاذبًا فقد فتح على نفسه بابًا من الهلاك. ليس اسم الله أداة لتجميل الأكاذيب، ولا ختمًا يوضع على الكلام حتى يصدقه الناس. اسم الله أقدس من أن يستعمله الإنسان جسرًا إلى الظلم.

ومن تأمل اللعان رأى كيف يرفع القرآن النزاع إلى أقصى درجات الجدية. أربع شهادات، ثم الخامسة: ﴿**أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ**﴾.

ليست المسألة أن يقول: أنا صادق.
بل أن يقول، إن كنت كاذبًا، فلعنة الله عليّ.

أي قلب هذا الذي يقدر أن يقولها وهو يعلم من نفسه الكذب؟ وأي جرأة تلك التي تجعل إنسانًا يستدعي اللعنة ليغلب في خصومة؟ وأي ظلام يصيب الروح حين يصير الفوز على الآخر أهم من النجاة عند الله؟

من استعان باسم الله على كذبه، فقد جعل أقدس ما يعرفه خادمًا لأحط ما فيه.

ثم لا تجعل السورة المرأة بلا صوت. لا تتركها تحت وطأة الاتهام صامتة. بل تفتح لها باب الدفع: ﴿**وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ**﴾.

هنا نرى عدل القرآن مرة أخرى.
الاتهام خطير، لكن الرد حاضر.
الرجل يشهد، والمرأة تشهد.
هو يستدعي لعنة الله إن كان كاذبًا، وهي تستدعي غضب الله إن كان صادقًا.

إنها ليست شريعة تسحق طرفًا لحساب طرف. إنها شريعة تضع الاثنين أمام الله، وتترك للحقيقة الغائبة عن الناس أن تحضر في محكمة الغيب.

في سورة النور، لا يُترك الضعيف بلا لسان.

والتعبير في حق المرأة بالغضب عظيم: ﴿**وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾.

كأن المشهد كله يقول للطرفين: انتبها، أنتما لا تتبادلان كلمات، بل تقفان على حافة الغيب. إن كان أحدكما كاذبًا، فقد جعل الله شاهدًا على كذبه. وإن كان أحدكما ظالمًا، فقد ظن أن ستر الدنيا ينجيه من كشف الآخرة.

وهكذا يتحول الخفاء إلى امتحان للإيمان.
فما أكثر ما يقدر الإنسان أن يخفيه عن الناس.
وما أقل ما يقدر أن يخفيه عن ربه.

الخلوة لا تصنع سرًا عن الله، بل تكشف مقدار حيائنا منه.

إن هذه الآيات ليست عن واقعة فقهية فحسب، بل عن معنى أعمق: أن العلاقات لا تستقيم إلا إذا كان الله حاضرًا في داخلها. فالزواج الذي يغيب عنه الله يتحول عند الخصومة إلى معركة بلا ضابط. كل طرف يبحث عن الغلبة. كل طرف يستدعي ما يستطيع من اتهام، أو تبرير، أو صراخ، أو كتمان. أما حين يحضر الله، فإن الكلمة ترتجف قبل أن تخرج.

ما أحوج البيوت إلى هذه الرجفة.
رجفة تمنع الزوج من الظلم.
وتمنع الزوجة من الخيانة.
وتمنع الطرفين من استعمال الأسرار في الانتقام.

وتمنع الغضب من أن يتحول إلى فجور.
وتمنع الشك من أن يتحول إلى حكم نهائي بلا بينة.

البيت الذي لا يخاف أهله الله في الخفاء، لن يحميه قفل ولا جدار.

هناك بيوت تبدو من الخارج ساكنة، لكنها في الداخل مليئة بمحاكم صغيرة. نظرات تفتيش. أسئلة مفخخة. تلميحات. اتهامات غير منطوقة. شكوك تكبر في الصمت. ذاكرة قديمة لا تغفر. هاتف يتحول إلى ساحة قلق. تأخير بسيط يصير دليلًا. كلمة عابرة تُقرأ كخيانة.

وليست كل غيرة طهرًا.
قد تكون الغيرة حبًا، وقد تكون مرضًا.
قد تكون خوفًا على العهد، وقد تكون رغبة في التملك.
قد تكون نورًا يحرس البيت، وقد تكون نارًا تحرقه.

الغيرة إذا فارقها العدل صارت ظلمة باسم الحب.

وسورة النور، وهي تحرس الأعراض، لا تفتح الباب للارتياب المرضي. بل تجعل الاتهام أمرًا هائلًا، محاطًا بالشهادة بالله، لا كلمة تُقال في نوبة غضب، ولا سلاحًا يلوّح به الزوج أو الزوجة كلما اختل المزاج.

فالبيت لا يعيش بالاتهام.
ولا يعيش بالتفتيش.
ولا يعيش بتحويل كل تفصيل إلى دليل.
ولا يعيش بأن يقف الزوجان كل يوم في قفص المحاكمة.

البيت يعيش بالصدق، والستر، والوفاء، وحسن الظن، ومراقبة الله قبل مراقبة البشر.

من احتاج أن يفتش في كل لحظة، فقد فقد شيئًا من معنى السكن.

لكن حسن الظن لا يعني الغفلة، كما أن الغيرة لا تعني الظلم. القرآن يربي فينا التوازن: لا تكن ساذجًا حتى تموت بصيرتك، ولا تكن متهمًا حتى تقتل الرحمة. لا تترك الخيانة باسم الثقة، ولا تخنق الطهر باسم الخوف من الخيانة.

إن بعض الناس يفسدون بيوتهم لا بخيانة وقعت، بل بخيانة يتخيلونها كل يوم. يطعنون العلاقة بسكين الشك، ثم يتعجبون لماذا نزفت. يزرعون الاتهام في كل زاوية، ثم يسألون لماذا ماتت الطمأنينة.

الشك إذا طال مقامه في البيت، صار فردًا ثالثًا بين الزوجين.

ولهذا تأتي هذه الآيات كالسور العالي حول خطورة الاتهام بين الزوجين. إن وصلت المسألة إلى هذا الحد، فليكن الله حاضرًا، لا الهوى. وليكن الكلام شهادة، لا انفعالًا. وليعرف كل طرف أنه لا يغلب إذا كذب، بل يخسر نفسه ولو كسب الموقف.

ثم تختم الآيات بقوله تعالى:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾

تأتي الخاتمة مفتوحة، كأن جواب الشرط محذوف لأن الهول أكبر من أن يقال.

لولا فضل الله ورحمته... ماذا كان يكون؟

لولا فضل الله ورحمته، لضاعت البيوت بين اتهام لا بينة عليه، وخيانة لا طريق لإثباتها.
لولا فضل الله ورحمته، لاختلط الصادق بالكاذب، والمظلوم بالظالم.
لولا فضل الله ورحمته، لتحولت الخصومات الزوجية إلى ظلمات لا مخرج منها.
لولا فضل الله ورحمته، لهلك الناس تحت أثقال ما يخفونه وما يعجزون عن كشفه.

ما من بيت ينجو بقوته وحدها؛ البيوت تنجو بفضل الله ورحمته.

ثم يأتي الاسمان الكريمان: ﴿**تَوَّابٌ حَكِيمٌ**﴾.

تَوَّاب، لأن البيوت تحتاج إلى توبة مستمرة.
كم من زوج يحتاج أن يتوب من ظلم.
وكم من زوجة تحتاج أن تتوب من تقصير.
وكم من بيت يحتاج أن يتوب من لغة قاسية، ومن شكوك متراكمة، ومن أسرار أسيء استعمالها، ومن لحظات غاب فيها الله عن الكلام.

وحكيم، لأن هذه التشريعات ليست انفعالًا. إنها حكمة دقيقة. تضع لكل جرح موضع علاجه. لا تترك الأعراض سائبة، ولا تجعل الاتهام سهلًا، ولا تسد طريق المظلوم، ولا تفتح باب الظالم. إنها حكمة الله حين يدخل إلى أكثر مناطق الإنسان تعقيدًا: الحب حين ينكسر، والثقة حين تتهشم، والبيت حين يصبح ميدان اتهام.

التوبة تغسل ما أفسدته النفوس، والحكمة تمنعها أن تفسده مرة أخرى.

في هذه الآيات نسمع رسالة عميقة لكل بيت:
لا تجعلوا الله آخر من يحضر في خصوماتكم.
ليكن حاضرًا قبل الكلمة.
قبل الاتهام.
قبل القسم.
قبل الغضب.
قبل التفتيش.
قبل أن يتحول الشك إلى جدار.
قبل أن يتحول الجرح إلى حكم نهائي.

فالبيت الذي يذكر الله في لحظات الهدوء فقط، سيضعف حين تأتي العاصفة. أما البيت الذي يجعل الله رقيبًا على الكلمات في الغضب، وعلى الأسرار في الخلوة، وعلى النظر في الغياب، وعلى الوفاء حين لا يراه أحد، فهو بيت له من النور نصيب.

ليست القداسة أن يخلو البيت من الخلاف، بل أن لا يغيب الله عن خلافه.

ما أجمل أن يكون بين الزوجين شيء من هذا الخوف النبيل.
أن يقول أحدهما في نفسه: أستطيع أن أظلمه، لكن الله يراني.
وأستطيع أن أكذب، لكن الله يسمعني.
وأستطيع أن أخفي، لكن الله يعلم.
وأستطيع أن أنتقم، لكن الله أعدل مني.
وأستطيع أن أكسب المعركة، لكن ماذا لو خسرت قلبي؟

إن العلاقات لا يحفظها الحب وحده. فالحب يتعب، ويتغير، ويضعف تحت ضغط الحياة. تحفظها التقوى حين يضعف الحب. يحفظها خوف الله حين يشتد الغضب. يحفظها الحياء من الله حين تغيب العيون.

أجمل ما في التقوى أنها تحرس من نحب من شرورنا حين نغضب.

ومن تأمل اللعان رأى أن الإسلام لا يبني البيوت على السذاجة، ولا على القسوة، بل على مسؤولية رهيبة أمام الله. فالخيانة ليست أمرًا صغيرًا. والاتهام بالخيانة ليس أمرًا صغيرًا. كلاهما نار. والشريعة لا تطفئ النار بنار الهوى، بل بنور الحق.

فمن خان، فليعلم أن الله شاهد.
ومن اتهم كذبًا، فليعلم أن الله شاهد.
ومن ظُلم، فليعلم أن الله لا يضيع حقه.
ومن تاب، فليعلم أن الله تواب.
ومن اختلطت عليه الأمور، فليعلم أن الله حكيم.

حين يعجز البشر عن الوصول إلى الحقيقة، تبقى الحقيقة آمنة عند الله.

وهذه وحدها عزاء كبير. أن لا تضيع حقيقة في الكون. قد تضيع في المحاكم، وقد تضيع في المجالس، وقد تضيع في الروايات المتضاربة، وقد ينجو ظالم ظاهرًا، وقد يتعب مظلوم لأنه لا يملك إثباتًا، لكن الحقيقة نفسها لا تضيع.

إن الله لا يحتاج شهودًا ليعلم.
ولا يحتاج اعترافًا ليحكم.
ولا يحتاج قرائن ليكشف.

كل شيء عنده حاضر: النية، والواقعة، والخوف، والكذب، والدمعة، والخذلان، والجرح الذي لم يره أحد.

ليس أخوف ما في الذنب أن يراك الناس، بل أن تستريح لأنهم لم يروك.

في نهاية هذه الآيات، تقف سورة النور بنا على عتبة البيت من الداخل. لقد تحدثت قبل ذلك عن المجتمع والسمعة، وها هي الآن تحدثنا عن الفراش والزوجية والخصومة حين تبلغ أقصى درجاتها. كأنها تقول: لا نور في مجتمع لا نور في بيوته، ولا نور في بيت لا نور في أسراره.

فالبيت ليس معفى من التقوى.
والحب ليس معفى من الصدق.
والغضب ليس معفى من العدل.
والغيرة ليست معفاة من البينة.
والألم ليس معفى من الخوف من الله.

من لم يتق الله في أقرب الناس إليه، كانت تقواه أمام البعيدين موضع سؤال.

ما أصدق هذا المعنى. فبعض الناس يحسنون أخلاقهم أمام الغرباء، ثم يطلقون أسوأ ما فيهم على أهل بيوتهم. يختارون ألفاظهم في المجالس، ويجرحون بلا حساب في الداخل. يتقنون صورة الوقار خارج البيت، ثم ينسون أن الله في البيت أيضًا.

وسورة النور لا تقبل هذا الانقسام. النور الذي لا يدخل البيت نور ناقص. والتقوى التي لا تظهر في الخصومة تقوى غير ممتحنة. والصدق الذي لا يصمد أمام الخوف من الفضيحة صدق هش.

امتحان الإنسان الحقيقي ليس في أخلاقه حين يُمدح، بل في عدله حين يتألم.

هنا يصبح اللعان، مع قسوته ورهبته، درسًا أوسع من بابه الخاص: لا تستعمل الخفاء ضد الله. لا تجعل العلاقة مكانًا للكذب. لا تجعل العشرة الطويلة ذريعة للظلم. لا تجعل القرب سلاحًا. لا تجعل الغضب شاهدك. لا تجعل الشك إلهك. لا تجعل اسم الله مطية لنجاتك الكاذبة.

ثم، إن وقع الانكسار، فاعلم أن الله تواب حكيم.
تواب لمن رجع.
حكيم فيما شرع.
تواب يفتح باب الإصلاح.
حكيم يمنع الفوضى من أن تلبس لباس الرحمة.

ما دام باب التوبة مفتوحًا، فلا تجعل خطأك وطنًا؛ وما دام الله حكيمًا، فلا تجعل هواك شريعة.

وهكذا نخرج من هذه الآيات ونحن أكثر خشية من ظلم من نحب، وأكثر خوفًا من اتهام من لا بينة عليه، وأكثر وعيًا أن البيوت لا يحميها الحب وحده، بل يحميها حضور الله في السر.

فإذا خاصمت، فاذكر الله.
وإذا شككت، فاذكر الله.

وإذا اتُّهمت، فاذكر الله.
وإذا وجدت في يدك قدرة على ظلم قريب، فاذكر الله.
وإذا أغراك الخفاء، فاذكر الله.

لأن سورة النور لا تريد أن تضيء المساجد وحدها، ولا المجالس وحدها، ولا الطرقات وحدها. إنها تريد أن يدخل النور إلى أعمق غرفة في البيت، إلى المكان الذي لا يراه الناس، إلى السر الذي يظن الإنسان أنه ملكه وحده.

أعظم النور ما بقي مضيئًا حين لا يراك أحد إلا الله.

الفصل السادس

حين تصبح الشائعة ظلامًا له أقدام

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

تبلغ سورة النور هنا واحدًا من أشد مشاهدها إيلامًا وكشفًا. لم تعد القضية حكمًا عامًا في القذف، ولا صورة افتراضية لاتهام عابر، بل جرحًا دخل إلى بيت النبوة، وامتد في المدينة كليلٍ ثقيل.

إنها حادثة الإفك.

والإفك ليس كذبًا عاديًا. إنه الكذب حين ينقلب عن وجه الحقيقة انقلابًا كاملًا. كذبٌ مقلوب، يجعل الطهر تهمة، والبراءة مادة للريبة، والنقاء غنيمة لألسنة لا تخاف.

الإفك ليس أن تقول باطلًا فقط، بل أن تقلب وجه النور حتى يراه الناس ظلامًا.

تقول الآية: **﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾**.

كأن الإفك شيء محمول. شيء جاءوا به من خارج الحقيقة، ثم أدخلوه إلى المجتمع. لم يكن موجودًا في الواقعة، لكنهم صنعوه بالكلام. وهذا من أخطر

ما تفعله الشائعة: أنها تخلق عالمًا لم يقع، ثم تطلب من الناس أن يعيشوا فيه كما لو كان حقيقة.

الشائعة لا تحتاج دائمًا إلى دليل؛ يكفيها أن تجد أذنًا مستعدة، ولسانًا متحمسًا، وقلبًا يحب الإثارة، ومجلسًا فارغًا من الخوف. ثم تبدأ رحلتها. تكبر في الطريق. يتغير لونها. يضاف إليها ما لم يكن فيها. تسقط منها القرائن التي تبرئ، وتثبت فيها الكلمات التي تجرح. ثم تصل إلى آخر الناس كوحشٍ لا يشبه أول همسة خرجت.

كل شائعة تبدأ صغيرة كشرارة، ثم تبحث في الناس عن حطب.

ولذلك لم تقل الآية: إن الذي جاء بالإفك رجل واحد، بل قالت: ﴿**عُصْبَةٌ مِّنكُمْ**﴾.

العصبة جماعة. وهذا يفتح لنا بابًا عميقًا في فهم الشر الاجتماعي. فبعض الشرور لا يقوم بها فرد وحده، بل تتوزع بين الناس حتى يخف شعور كل واحد بالذنب. واحد يخترع. وآخر يلمح. وثالث ينقل. ورابع يستمع. وخامس يبتسم. وسادس يقول: لا أدري، لكن الأمر مريب. وسابع يصمت صمتًا يعطي الشائعة حق المرور.

وهكذا يصبح الظلم عملًا جماعيًا، لكن الألم يقع على قلب واحد.

الشائعة جريمة موزعة؛ كل لسان يحمل منها نصيبًا، وكل أذن راضية تحمل نصيبًا.

وهذا معنى مخيف. فقد لا يكون الإنسان هو الذي بدأ الكذبة، لكنه ساعدها أن تعيش. قد لا يكون هو الذي أشعل النار، لكنه فتح لها نافذة. قد لا يكون هو

صاحب الإفك الأكبر، لكنه كان طريقًا من طرقه. وفي عالم الكلمات، الطريق شريك في الوصول.

إن سورة النور لا تعلّمنا أن نحذر من اختراع الشائعات فقط، بل أن نحذر من ضيافتها. فهناك أناس لا يكذبون، لكنهم يحبون سماع الكذب. لا يقذفون بألسنتهم، لكنهم يمنحون القاذف مجلسًا دافئًا. لا يكتبون التهمة، لكنهم يضغطون على إعادة نشرها. لا يقتلون، لكنهم يفتحون الباب للقاتل.

لا تكن بريئًا من صناعة النار، ثم متورطًا في حمل دخانها بين الناس.

ثم تأتي الجملة التي تقلب فهم المؤمن للمحنة:

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾

يا لها من آية تهز القلب.

كيف يكون الإفك خيرًا؟
كيف يكون الألم خيرًا؟
كيف يكون الاتهام خيرًا؟
كيف تكون الأيام الثقيلة التي عاشتها أم المؤمنين، وعاشها بيت النبوة، وعاشها المجتمع المؤمن، خيرًا؟

هنا يعلّمنا القرآن أن الخير ليس دائمًا في صورة مريحة. قد يأتي الخير بثوب محنة. قد يأتي كاشفًا لا مبهجًا. قد يأتي ليغربل المجتمع، ويميز الصادق من الخفيف، ويكشف المنافق من المؤمن، ويعلّم الأمة إلى يوم القيامة كيف تتعامل مع الشائعة.

ليس كل ما يؤلمك شرًا؛ بعض الألم مصباحٌ قاسٍ يكشف لك ما كان مختبئًا في الظلام.

لقد كان الإفك شرًا في صورته المباشرة، لكنه صار خيرًا بما كشفه الله من خلاله. كشف طهارة المظلومة. وكشف خبث المتربصين. وكشف خفة بعض الألسنة. وكشف حاجة المجتمع إلى تربية عميقة في تلقي الأخبار. وكشف أن بيت النبوة نفسه ليس بعيدًا عن ابتلاء الكلام، حتى تتعلم الأمة أن القرب من الله لا يعني الغياب عن الامتحان.

وهذه من سنن الله العجيبة: أن المحن لا تكشف المظلوم وحده، بل تكشف كل الذين حوله. عند البلاء يظهر الصديق من المتفرج، والوفي من المتردد، وصاحب الورع من صاحب الفضول، ومن كان يحمل في قلبه نورًا ومن كان ينتظر فرصة للعتمة.

البلاء لا يخلق وجوه الناس، لكنه يزيل عنها الطلاء.

في حادثة الإفك لم يكن الامتحان لأم المؤمنين وحدها، بل كان امتحانًا للأمة كلها. كيف سيتكلم الناس؟ كيف سيظنون؟ كيف سيتوقفون؟ كيف سيحرسون بيت النبوة؟ كيف سيتعاملون مع غياب الدليل؟ كيف سيزنون الكلمة؟ كيف سيثقون بالطهر حين تحاصره الظنون؟

ولهذا كانت الآيات مدرسة كبرى في أخلاق المجتمع المؤمن. فالقرآن لم يترك الحادثة تمر كواقعة تاريخية، بل جعلها نورًا دائمًا، يتلوه الناس إلى قيام الساعة، ليدركوا أن الشائعة ليست تفصيلًا اجتماعيًا، بل امتحان إيمان.

عند سماع التهمة، لا يُمتحن المتهم وحده؛ يُمتحن السامع أيضًا.

ثم يقول تعالى: ﴿**لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ**﴾.

هذه الجملة تعيد المسؤولية إلى حجمها الفردي بعد أن ذكرت العصبة. نعم، كانوا جماعة، لكن الجماعة لا تذيب الذنب. لن يأتي أحد يوم القيامة ويقول: كنت مع الناس. لن تنفع عبارة: الجميع كان يتحدث. لن يحميك ضجيج المجموعة من دقة الحساب.

لكل امرئ منهم ما اكتسب.

لكل كلمة وزنها.
لكل نقل أثره.
لكل استماع رضاه.
لكل تلميح إثمه.
لكل مشاركة نصيبها.
لكل قلب نيته.

لا تختبئ خلف كثرة الخائضين؛ فالله يحاسب الألسنة واحدًا واحدًا.

وهذه الآية من أعظم ما يوقظ الإنسان في زمن الجماهير. نحن نعيش عصر العصبة الواسعة؛ عصبة لا تجلس في مجلس واحد، بل تنتشر في الشاشات، والمجموعات، والتعليقات، والمنصات. يشترك الآلاف في ظلم إنسان، ثم يشعر كل واحد أن حصته صغيرة. لكن الله يقول: ﴿**لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ**﴾.

الإثم لا يضيع في الزحام.
والله لا يعجزه أن يميز سهمك في المعركة.

يعرف هل كتبت، أم نشرت، أم سخرت، أم صدّقت، أم فرحت، أم تمنيت أن يكون الخبر صحيحًا.

قد تكون مشاركتك صغيرة في نظر الناس، لكنها كاملة في صحيفة عملك.

ثم تقول الآية: ﴿**وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾.

ففي كل شائعة هناك من يحمل كبرها. هناك من يصنع أصل الكذبة، أو يدير انتشارها، أو ينفخ فيها، أو يستثمرها، أو يعطيها لسانًا أقوى من حجمها. هذا له عذاب عظيم، لأنه لم يكتف بأن يخطئ؛ جعل نفسه قائدًا للظلام.

وهذا يعلّمنا أن الذنوب ليست سواءً في الأثر. من وقع في الكلمة غير من هندسها. ومن سمع غير من روّج. ومن سكت ضعفًا غير من حرّض قصدًا. ومن زلّ غير من جعل الزلل مشروعًا. لكن كلًّا يأخذ نصيبه.

من قاد الظلام إلى بيوت الناس، حمل من أوزارهم ما لا يراه وهو يمشي منتصرًا.

ثم يأتي العتاب القرآني الذي يربي المؤمنين على أول ردة فعل ينبغي أن تظهر عند سماع التهمة:

﴿**لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ**﴾

هنا يعلّمنا القرآن أن أول واجب عند سماع شائعة في عرض مؤمن أو مؤمنة ليس التحليل، ولا التوسع، ولا السؤال المتلذذ، ولا جمع التفاصيل، بل حسن الظن.

﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾

لم يقل: بإخوانهم فقط، بل قال: **بأنفسهم**. كأن المؤمنين جسد واحد؛ عرض أخيك ليس بعيدًا عن عرضك. حين تظن به خيرًا، فأنت تحفظ شيئًا من نفسك. وحين تسمح للريبة أن تفتك به، فقد فتحت بابًا سيصل إليك يومًا ما.

عرض المؤمن ليس خارجك؛ إنه جزء من الجدار الذي يحميك أنت أيضًا.

هذه الآية تعلّمنا أن المجتمع المؤمن لا يقوم على البرودة الأخلاقية. ليس المطلوب أن تقول: لا شأن لي. بل أن تشعر أن الطعن في أخيك طعن في نسيجك أنت. أن تقول من الداخل قبل اللسان: هذا لا يليق. هذا لا يثبت. هذا إفك مبين.

ما أجمل هذا التعبير: **﴿هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾**.

إنه موقف واضح منذ البداية. ليس حيادًا مائعًا. ليس انتظارًا متلذذًا للمزيد. ليس عبارة: ربما. ليس ترديدًا: لا نعلم. بل إنكار صريح حين تظهر أمارات البطلان، وحين لا تقوم بينة، وحين يكون الأصل سلامة المؤمن.

أحيانًا يكون الحياد أمام الشائعة شكلًا من أشكال خدمتها.

ثم تسأل السورة سؤال العدل: ﴿لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾

هنا تعود البينة. لا يكفي أن تنتشر القصة. لا يكفي أن يصدقها عدد كبير. لا يكفي أن تبدو مثيرة. لا يكفي أن يقول الناس: لا دخان بلا نار. فكم من دخان

صنعه الكاذبون دون نار. وكم من نار أحرقت بريئًا لأن الناس أحبوا رؤية الدخان.

﴿فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾

عند الله، لا عند انطباعات الناس.
عند الله، لا عند ضجيج المجتمع.
عند الله، لا عند شهرة القصة.
عند الله، لا عند قدرة القاذف على الإقناع.

الحقيقة لا تصير حقيقة لأن الناس تداولوها؛ الحقيقة تحتاج نور البينة.

ما أكثر الأكاذيب التي اكتسبت قوتها من كثرة تكرارها. يسمعها الإنسان مرة فينكرها، ثم يسمعها ثانية فيتردد، ثم ثالثة فيقول: لعل فيها شيئًا، ثم رابعة فيحدث بها غيره. وكأن التكرار صار دليلًا. لكن القرآن يردنا إلى الأصل: أين الشهداء؟ أين البرهان؟ أين البينة؟

إن انتشار الكلام لا يرفعه من الكذب إلى الصدق.
والباطل إذا كثر ناقلوه لم يصبح حقًا.
والظلم إذا ازدحم حوله الناس لم يفقد اسمه.

الكذبة حين يرددها ألف لسان لا تصبح حقيقة؛ تصبح كذبة لها ألف شاهد زور.

ثم تكشف السورة مقدار الخطر: **﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾**

﴿أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾.

كأن الكلام كان بحرًا اندفعوا فيه. لم يقفوا عند الشاطئ. لم يتحفظوا. لم يسألوا. لم يخرجوا. بل أفاضوا. دخلوا في الموج، وتركوا الكلمة تحملهم، حتى صاروا جزءًا من التيار.

وهذا يحدث في كل زمان. يبدأ الموضوع بفضول، ثم يصير حديث المجلس، ثم يتحول إلى مادة للترفيه، ثم يغرق الناس في تفاصيل لا تعنيهم. يفيضون فيه، كأنهم يملكون حق الخوض في حياة إنسان.

من خاض في عرض غيره، فقد دخل بحرًا لا يعرف أي موجة ستغرقه.

ولولا فضل الله ورحمته، لمسهم العذاب العظيم. هذه الجملة تذكرنا أن النجاة من آثار الكلام ليست بسبب خفة الذنب، بل بسبب فضل الله. فكثير من الناس نجاهم الله من عاقبة كلمات لو عوجلوا بها لهلكوا. وكم من مجالس سترها الله. وكم من ألسنة أمهلها. وكم من قلوب خاضت في الباطل ثم فتح الله لها باب التوبة قبل أن يغلق الباب.

لكن الإمهال ليس إذنًا.
والستر ليس موافقة.
والنجاة من العقوبة العاجلة لا تعني النجاة من الحساب.

إذا لم يعاقبك الله بعد الكلمة، فلا تظن أن الكلمة صغيرة؛ ربما كان الله يمهلك لتتوب.

ثم تأتي الآية التي ينبغي أن تُكتب على باب كل مجلس، وعلى واجهة كل شاشة، وعلى قلب كل إنسان قبل أن يضغط إرسالًا: ﴿**إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ**﴾

يا لها من آية.

﴿**تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ**﴾، لا بآذانكم. كأن اللسان كان مستعدًا قبل أن يكتمل السماع. كأنهم لم يسمعوا ليتحققوا، بل سمعوا لينقلوا. اللسان تلقّى مباشرة، بلا مرور على عقل، ولا ورع، ولا خوف، ولا تثبت.

أخطر لسان هو الذي يسبق قلبه إلى الكلام.

ثم: ﴿**وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ**﴾.

الأفواه هنا حاضرة بقوة. كأن القرآن يريد أن يجسد الكلمة، أن يخرجها من منطقة التجريد. هذا فم يتكلم. هذه شفتان تتحركان. هذا صوت يخرج. هذا فعل، لا مجرد فكرة عابرة.

ما ليس لكم به علم.

ليست المشكلة أنهم قالوا ما يعلمون أنه كذب فقط، بل قالوا ما لا يعلمون. وهذا كافٍ في الجرم. فليس مطلوبًا منك أن تثبت أن الخبر كذب حتى تصمت؛ يكفي أنك لا تعلم أنه حق.

ما لم تعلمه لا تملكه، وما لا تملكه لا تنفقه في أعراض الناس.

ثم تأتي الطامة: ﴿**وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا**﴾.

هكذا يرى الإنسان ذنوب اللسان. سهلة. عابرة. مجلس وانتهى. رسالة وذهبت. تعليق واندفن في الزحام. لكن الله يقول: ﴿**وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ**﴾.

عند الله عظيم.

حتى لو ضحك الناس.

حتى لو مر المجلس.

حتى لو نسي القائل.

حتى لو لم يعرف الضحية.

حتى لو حذف الرسالة.

حتى لو قال بعدها: لم أقصد.

قد تنتهي الكلمة في الهواء، لكنها لا تنتهي في الميزان.

وهذه الآية تكشف الفجوة المرعبة بين تقدير الإنسان وتقدير الله. نحن نحسب أشياء هينة، وهي عظيمة. نحسب النظرة هينة، والكلمة هينة، والهمزة هينة، واللمزة هينة، وسوء الظن هينًا، وإعادة النشر هينة، والتلميح هينًا. لكن الميزان الإلهي لا يخضع لتقديرات الغافلين.

ومن علامة حياة القلب أن يخاف مما يستصغره الناس. أن يقول: ربما كان هذا عظيمًا عند الله وأنا لا أشعر. ربما كلمة واحدة تفتح عليّ بابًا من الندم. ربما ضحكة في مجلس كانت عند الله خيانة لمظلوم. ربما صمتي حين وجب الدفاع كان أثقل مما أظن.

القلب المضيء لا يسأل: هل هذه الكلمة ستنتشر؟ بل يسأل: كيف ستقف أمام الله؟

ثم تعلّمنا السورة الجواب الذي كان ينبغي أن يقال: ﴿**وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ**﴾

ما أجمل هذا الأدب.

﴿**مَّا يَكُونُ لَنَا**﴾.

أي لا يليق بنا. ليس من مقامنا. ليس من إيماننا. ليس من طهارة ألسنتنا. ليس من حقنا. هناك كلمات لا ينبغي للمؤمن أن يقترب منها أصلًا، لا لأنها غير مثيرة، بل لأنها لا تشبهه.

من كمال الإيمان أن تعرف الكلمات التي لا تليق بفمك.

ثم: ﴿**سُبْحَانَكَ**﴾.

كأن المؤمن إذا سمع البهتان رجع إلى تنزيه الله. لماذا؟ لأن البهتان ليس اعتداءً على الإنسان وحده، بل سوء أدب مع ميزان الله، ومع ستر الله، ومع حكم الله. وكأن القلب يقول: سبحانك يا رب أن يضيع عندك حق بريء، أو أن يخفى عليك كذب كاذب، أو أن ترضى لعبادك هذا الظلم.

ثم الحكم الصريح: ﴿**هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ**﴾.

بهتان؛ لأنه يبهت المظلوم. يصعقه. يجعله واقفًا أمام تهمة لا يعرف من أين جاءت، ولا كيف يردها، ولا لماذا صدقها الناس.

البهتان أن تصنع لإنسان وجهًا لم يلبسه، ثم تطالبه أن يثبت أنه ليس وجهه.

ثم يأتي الوعظ الإلهي الحاسم: ﴿**يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾

ليس المقصود أن لا تعودوا إلى نفس القصة فقط، بل إلى مثلها. إلى المنهج نفسه. إلى الخفة نفسها. إلى استقبال الشائعات بالطريقة نفسها. إلى منح الألسنة حرية العبث في الأعراض.

﴿**أَبَدًا**﴾.

كلمة تقطع الطريق. لا تجعلوا حادثة الإفك ذكرى تبكون عندها ثم تعيدون أخلاقها في ضحايا آخرين. لا تلعنوا العصبة الأولى وأنتم تكررون فعلهم مع أسماء جديدة. لا تقرؤوا الآية على أنها تاريخ، بل مرآة.

من لم يتغير بعد سماع آيات الإفك، فقد يكون قابلًا أن يكون جزءًا من إفك جديد.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾

عليم بما يقال، وما يخفى وراء ما يقال.
عليم بمن بدأ، ومن نقل، ومن سكت، ومن فرح، ومن تألم.
عليم بالنيات التي تلبس ثوب الغيرة، وهي في الحقيقة حسد أو نفاق أو شهوة فضيحة.
حكيم في تشريعه، في تربيته، في كشفه، في تأخيره الفرج حتى تكتمل الدروس.

إن الله لم ينزل هذه الآيات فقط ليبرئ المظلومة، بل ليبني أمة تعرف كيف تتعامل مع الكلمة. أمة لا تجعل أعراض الناس طعامًا للفراغ. أمة لا تخلط بين الاهتمام والفضول. أمة لا تفرح بانتشار القبح. أمة تعرف أن النور يحتاج إلى لسان متوضئ من الظن.

ليس المجتمع المضيء هو الذي لا يسمع الشائعة، بل الذي يعرف كيف يقتلها عند أول سمع.

ثم تأتي الآية التي تكشف حبًا خطيرًا في بعض النفوس: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾

لاحظ: لم يقل الذين يشيعون فقط، بل ﴿**يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ**﴾.

قد يكون الإنسان صامتًا في الظاهر، لكنه يحب انتشار القصة في الداخل. يحب أن يثبت أن الناس ليسوا أطهارًا. يحب أن تسقط الرموز. يحب أن يتلوث المجتمع حتى يشعر أن ذنبه أقل وحشة. يحب الفضيحة لأنها تمنحه تسلية، أو انتقامًا، أو شعورًا بالتفوق.

قد لا تنطق بالشائعة، لكن قلبك قد يصفق لها.

وهذا مستوى دقيق من المحاسبة. الإسلام لا يطهر اللسان وحده، بل يطهر الذوق الداخلي. ماذا تحب أن ينتشر؟ هل تفرح حين يذكر الناس الخير، أم تنتظر أخبار السقوط؟ هل تتمنى الستر، أم تتلذذ بانكشاف العورات؟ هل يحزنك أن يقع مؤمن في فتنة، أم يمنحك ذلك مادة للكلام؟

إن حب إشاعة الفاحشة مرض في القلب. لأن القلب السليم يحب أن يكثر الطهر، وأن يستتر المذنب، وأن يتوب العاصي، وأن تسلم المجتمعات من التطبيع مع القبح. أما القلب المريض فيعيش على الانكشاف. يريد أن يرى الناس عراة معنويًا حتى لا يشعر هو بضرورة اللباس.

من أحب انتشار الفضيحة، فقد انطفأ في قلبه شيء من الرحمة.

ثم تختم الآية: **﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾**.

الله يعلم حقيقة الخبر، وأنتم لا تعلمون.
يعلم عاقبة نشره، وأنتم لا تعلمون.
يعلم ما يتركه في القلوب، وأنتم لا تعلمون.
يعلم من يتألم بسببه، ومن ينتكس، ومن ييأس، ومن يتمادى، وأنتم لا تعلمون.
يعلم مقدار الضرر الذي تصنعه كلمة، وأنتم تحسبونها هينة.

ما نجهله من آثار الكلمة أعظم مما نراه منها.

ثم يعود الامتنان مرة أخرى: **﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾**

كأن السورة بعد كل هذا الخوف تفتح نافذة رجاء. لولا فضل الله ورحمته لهلكنا بألسنتنا. لولا رأفته بنا لما علّمنا كيف نتوب من الخوض. لولا رحمته لما جعل من حادثة موجعة نورًا خالدًا يربي الأمة.

فسبحان من يحول الجرح إلى مدرسة.
وسبحان من يحول البهتان إلى آيات.
وسبحان من يخرج من ظلمة الشائعة نورًا يهدي به أجيالًا لا تنتهي.

قد يسمح الله للباطل أن يعلو لحظة، لا لينتصر، بل ليكشف من يحمله ومن يقاومه.

وفي نهاية هذا الفصل، لا نستطيع أن نغادر آيات الإفك كما دخلنا. لا بد أن نخرج ونحن نخاف على ألسنتنا، وعلى آذاننا، وعلى قلوبنا. نخاف من سرعة التصديق. نخاف من لذة التفاصيل. نخاف من أن نكون جزءًا من عصبة ونحن لا نشعر. نخاف من أن نحسبه هينًا وهو عند الله عظيم.

فلنسأل أنفسنا:

كم مرة تلقينا الخبر بألسنتنا قبل عقولنا؟
كم مرة نقلنا ما لا نعلم؟
كم مرة قلنا: لا شأن لي، ثم شاركنا بصمتنا؟
كم مرة فرحنا بسقوط إنسان لأن ذلك وافق شيئًا مريضًا فينا؟
كم مرة احتجنا أن نقول: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، فسكتنا أو خضنا؟

إن سورة النور لا تريد منا فقط أن لا نكذب.
تريد أن لا نكون بيئة صالحة للكذب.
لا نكون آذانًا مفتوحة للإفك.
ولا ألسنة جاهزة للنقل.

ولا قلوبًا تحب انتشار الفاحشة.
ولا مجالس تُستباح فيها الأعراض باسم الفضول.

من أراد أن يحمل نور سورة النور، فليجعل سمعه حارسًا لا بوابةً للشائعة.

إن حادثة الإفك تضع أمامنا درسًا خالدًا: أن المجتمع لا ينهار بالفاحشة وحدها، بل ينهار كذلك حين يحب الحديث عنها. وحين يصبح الناس أسرع إلى الظن من الرحمة، وأسرع إلى النقل من التثبت، وأسرع إلى الفضيحة من الستر.

وهكذا تمضي السورة في بناء الإنسان المضيء:
بعد أن طهرت الجسد، طهرت العلاقة.
وبعد أن طهرت اللسان من القذف، طهرته من الخوض.
وبعد أن أقامت للعرض حرمة، كشفت أن الشائعة ليست صوتًا عابرًا، بل ظلام يتحرك بأقدام البشر.

فلا تكن قدمًا لذلك الظلام.
ولا لسانًا له.
ولا أذنًا له.
ولا قلبًا يفرح به.

الشائعة لا تموت وحدها؛ يقتلها مؤمنٌ خاف الله عند أول كلمة.

الفصل السابع

خطوات الشيطان حين تمشي بهدوء

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

بعد أن كشفت آيات الإفك كيف تتحول الكلمة إلى نار، وكيف يصبح المجتمع كله ممتحنًا عند أول شائعة، تأتي هذه الآية كأنها تضع يدها على الجذر الأعمق: **خطوات الشيطان**.

لم يقل الله: لا تتبعوا الشيطان فقط، بل قال: **﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾**.

والخطوة شيء صغير. حركة محدودة. مسافة قصيرة. لا تشبه الهاوية في أولها. وربما لهذا كانت أخطر. فالشيطان لا يأخذ الإنسان غالبًا من الطهر إلى الفاحشة في قفزة واحدة، ولا من البراءة إلى البهتان في لحظة واحدة، ولا من الحياء إلى الجرأة دفعة واحدة. إنه يمشي بهدوء، ويدعو الإنسان أن يمشي معه بهدوء.

الشيطان لا يبدأ غالبًا بالمعصية الكبرى، بل بخطوة تبدو قابلة للتبرير.

يبدأ الأمر بنظرة لا يرى صاحبها فيها بأسًا.
ثم نظرة ثانية فيها شيء من التلذذ.
ثم حديث لا حاجة له.

ثم تعلق خفيف.

ثم باب يفتح.

ثم خلوة قلبية قبل أن تكون خلوة جسدية.

ثم يصبح ما كان مستنكرًا مألوفًا، وما كان مخيفًا ممكنًا، وما كان بعيدًا قريبًا.

وكذلك الشائعة.

تبدأ بسؤال.

ثم استغراب.

ثم تلميح.

ثم نقل.

ثم تحليل.

ثم حكم.

ثم يجد الإنسان نفسه قد شارك في ظلمٍ لم يكن يظن أنه سيشارك فيه.

أخطر الطرق تلك التي لا يظهر آخرها من أول خطوة.

إن الشيطان خبير بالنفس. يعرف أن الإنسان قد يرفض الحرام إذا جاءه مكشوفًا، فيغطيه له بثوب الحاجة، أو الفضول، أو الحرية، أو المزاح، أو التعاطف، أو النصيحة، أو البحث عن الحقيقة. يلبس كل طريق الاسم الذي يجعل النفس تطمئن إليه.

ليس كل باب مكتوب عليه "معصية".

بعض الأبواب مكتوب عليه: تسلية.

وبعضها: فضول.

وبعضها: مجرد حديث.

وبعضها: لا تكن متشددًا.

وبعضها: أنت قوي ولن تتأثر.

وبعضها: افهم قبل أن تحكم.

وبعضها: انظر فقط.

من حيل الشيطان أنه لا يطلب منك النهاية، بل يقنعك ببداية صغيرة.

وهذا ما يجعل الآية في موضعها من سورة النور شديدة الدقة. فالسورة تتحدث عن الطهر، واللسان، والسمعة، والعلاقات، والبيوت. وهذه كلها لا تفسد فجأة. الفساد فيها يبدأ بخطوات. العفة لا تنهار دفعة واحدة، بل تُستنزف. الحياء لا يموت بضربة واحدة، بل يُخدّر. الورع لا يرحل فجأة، بل يتراجع إلى الخلف خطوة بعد خطوة.

ولهذا كان المؤمن محتاجًا أن لا يحاسب نفسه عند آخر الطريق فقط، بل عند أوله. ليس السؤال: هل وقعت في الحرام؟ بل: هل بدأت أسير في اتجاهه؟ ليس السؤال: هل قلت البهتان؟ بل: هل فتحت أذني له؟ ليس السؤال: هل خنت؟ بل: هل أضعف داخلي معنى الوفاء؟

النجاة ليست أن تستيقظ عند الهاوية، بل أن تنتبه عند أول ميلٍ في الطريق.

ثم تكشف الآية حقيقة هذا الطريق: ﴿**وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**﴾

فالخطوات الصغيرة ليست بريئة. لها قائد. ولها وجهة. ولها نهاية يريدها الشيطان وإن لم تكن أنت تريدها في البداية. أنت قد تقول: إنها مجرد خطوة،

لكن الشيطان يعرف أنها خطوة في طريق. أنت ترى اللحظة، وهو يرى المسار. أنت ترى اللذة القصيرة، وهو يريد الخراب الطويل.

لا تحاكم الخطوة بحجمها، بل باتجاهها.

قد تكون الخطوة صغيرة، لكنها متجهة إلى الظلام. وقد يكون التنازل بسيطًا، لكنه يفتح بابًا لا يغلق بسهولة. وقد تكون الكلمة عابرة، لكنها تدرب اللسان على قلة الخوف. وقد تكون النظرة خاطفة، لكنها تعلم العين أن تكسر عهدها مع الحياء. وقد يكون الاستماع للشائعة فضولًا، لكنه يجعل القلب مستعدًا للخوض.

إن المؤمن لا يستهين بالصغائر لأنها صغيرة في حجمها، بل يخاف منها لأنها أبواب. فكم من نار بدأت بشرارة. وكم من فاحشة بدأت بمجاملة. وكم من قطيعة بدأت بسوء ظن. وكم من انطفاء بدأ بترك ورد صغير من ذكر أو صلاة أو قرآن.

الصغير الذي يتكرر لا يبقى صغيرًا؛ إنه يصنع في الداخل طريقًا ممهدًا للكبير.

والشيطان حين يأمر بالفحشاء والمنكر لا يأتي بصورة الآمر دائمًا. لا يقول للإنسان: افعل الفاحشة صراحة. بل يقول له: اقترب فقط. جرّب فقط. اسمع فقط. أرسل فقط. لا تكن قاسيًا على نفسك. كل الناس يفعلون. لا تضخم الأمر. الله غفور رحيم.

نعم، الله غفور رحيم.
لكن الشيطان لا يذكرك برحمة الله ليقودك إلى التوبة، بل ليمنحك جرأة على

المعصية.

يفصل الرحمة عن الخوف.

والمغفرة عن الندم.

والرجاء عن الصدق.

حتى يجعل من أسماء الله سلمًا إلى ما يبعدك عن الله.

إذا ذكّرك الشيطان برحمة الله قبل الذنب، فاذكره أنت بعدل الله؛ وإذا ذكّرك باليأس بعد الذنب، فاذكره أنت بمغفرة الله.

هذه من أدق المعارك. قبل المعصية يفتح لك باب الرجاء الفاسد، وبعد المعصية يفتح لك باب اليأس القاتل. قبلها يقول: الله يغفر. وبعدها يقول: لا فائدة منك. والمؤمن البصير لا يسمح له أن يسرق المعنيين. يخاف قبل الذنب، ويرجو بعد التوبة. لا يستعمل الرحمة جسرًا للسقوط، ولا يسمح لليأس أن يمنعه من العودة.

ثم تأتي الجملة التي تكسر كبرياء الإنسان كله: ﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا**﴾

يا الله.

بعد كل الحديث عن الطهر، والحدود، والعفة، واللسان، وحسن الظن، تأتي هذه الحقيقة لتمنع المؤمن من الغرور. إن طهارتك ليست إنجازك الخالص. ليست قوة ذاتية تملكها وحدك. ليست لأنك أذكى من الساقطين، ولا لأنك أشرف بطبعك، ولا لأنك لا يمكن أن تضعف.

لولا فضل الله ورحمته، ما زكى منك شيء.

الطهر ليس بطولة شخصية؛ الطهر فضلٌ من الله يستحق الشكر والخوف معًا.

هذه الآية تهدم في القلب وهم الاستعلاء. فلا ينظر الطاهر إلى المبتلى باحتقار، بل بخوف. يقول: عافاني الله، ولو وكلني إلى نفسي لضعت. ولا ينظر المستقيم إلى العاصي كأنه من طينة أخرى، بل يقول: اللهم ثبتني، ورده إليك ردًا جميلًا. ولا يغتر من سلم اليوم، فالغد لا ينجو فيه إلا من حفظه الله.

إن الإنسان ضعيف.

ضعيف أمام الصورة.

ضعيف أمام الكلمة.

ضعيف أمام الوحدة.

ضعيف أمام الثناء.

ضعيف أمام الشهوة.

ضعيف أمام الغضب.

ضعيف أمام الجماعة حين تخوض.

ضعيف أمام نفسه حين تطول عليها الغفلة.

ومن لم يعرف ضعفه، كان ضعفه أقوى عليه.

أول أبواب التزكية أن تعرف أنك لا تزكو بنفسك.

ما أرقّ هذا المعنى وما أهيبه. فالقرآن لا يربينا على الثقة بالنفس المطلقة، بل على الثقة بالله، مع اتهام النفس. النفس إذا تُركت طغت أو ضعفت أو تاهت.

قد تبدو صالحة في بيئة صالحة، فإذا تغيرت البيئة ظهر ما كان مستورًا. وقد تبدو قوية في العلن، فإذا خلا الإنسان بنفسه عرف مقدار حاجته إلى الله.

ولهذا كان من دعاء المؤمن الدائم: يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك. لأنه يعرف أن القلب ليس حجرًا في مكانه، بل موجة بين أصابع الرحمن. ويعرف أن النور ليس مصباحًا يعمل من ذاته، بل مددٌ يتجدد من الله.

لا تقل: أنا لا أسقط، بل قل: اللهم لا تكلني إلى نفسي.

ثم تقول الآية: ﴿**وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ**﴾.

التزكية من الله. هو الذي يغسل القلب من تعلقاته. هو الذي يرد العين عن فتنتها. هو الذي يجعل اللسان يهاب الكلمة. هو الذي يضع في القلب نفورًا من القبح. هو الذي يحبب إليك الإيمان ويزينه في قلبك. هو الذي يجعلك تترك شيئًا لا لأنك لا تريده، بل لأنك تريد رضاه أكثر.

التزكية ليست مظهرًا.
ليست لغة دينية.
ليست شكلًا خارجيًا.
ليست ادعاء النقاء.
إنها عمل خفي طويل، يبدأ حين يدخل نور الله إلى منطقة لا يراها الناس فيك.

زكاة القلب أن يكره الظلام ولو كان قادرًا عليه.

ليس المضيء هو من لم تعرض له الفتنة، بل من عرضت له فعرف إلى أين يهرب. وليس الطاهر هو من لم يشعر بشهوة، بل من جعل الشهوة تسمع أمر الله. وليس الزكي هو من لا يخطئ أبدًا، بل من لا يأنس بخطئه، ولا يبرره، ولا يبني له بيتًا في قلبه.

والله يزكي من يشاء، لكنه جعل للتزكية أبوابًا: صدق الطلب، ومجاهدة النفس، وصحبة الخير، وغض البصر، وحفظ اللسان، والفرار من المواطن المريبة، وكثرة الدعاء، وتعظيم الصلاة، والخوف من أول خطوة.

من طلب التزكية وهو مقيم عند أبواب الفتنة، فقد طلب الماء وهو يمشي إلى النار.

ثم تختم الآية باسمين: ﴿**وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾.

سميع لما تقول.
سميع لما تهمس.
سميع لما تنقله.
سميع لما تبرر به لنفسك.
سميع لضحكتك في مجلس الخوض.
سميع لاستغفارك بعد الذنب.
سميع لدعائك حين تخاف على نفسك.

عليم بما في قلبك.
عليم أكنت تتبع الخطوة غافلًا أم محبًا.
عليم بحجم مقاومتك.

عليم بضعفك الذي تخفيه.

عليم بنية توبتك.

عليم بالفتنة التي كدت تقع فيها ثم نجّاك منها.

الله يسمع الكلمة التي نخاف أن يسمعها الناس، ويعلم النية التي لا نستطيع شرحها لأحد.

وهذا الختام يجعل المؤمن يعيش بين مراقبتين: مراقبة السمع ومراقبة العلم. فلا يظن أن الخفاء يحميه. ولا يظن أن الناس إذا لم يسمعوا فقد انتهى الأمر. ولا يظن أن حسن صورته يكفي إذا كان قلبه يحب خطوات لا ترضي الله.

لكن هذا الختام أيضًا يفتح باب الرجاء. فالله يسمع دعاءك حين تقول: يا رب، ضعفت. ويعلم صدقك حين تغلق بابًا كان قلبك يريده. ويعلم ألمك حين تترك شيئًا لأجله. ويعلم أنك ربما لم تكن كاملًا، لكنك كنت تجاهد.

ما تركتَ خطوةً إلى الحرام إلا علم الله ثقلها على قلبك.

إن من أعظم ما يواسينا في طريق التزكية أن الله لا يرى الفعل فقط، بل يرى المعركة. يرى ما قاومته ولم يره الناس. يرى الرسالة التي لم ترسلها. يرى النظرة التي صرفتها. يرى الكلمة التي ابتلعتها. يرى المجلس الذي غادرته. يرى العلاقة التي أغلقتها وأنت تتألم. يرى رغبتك حين وضعتها تحت قدمك وقلت: يا رب.

والناس قد لا يصفقون لهذه الانتصارات الصامتة؛ لأنها لا تظهر لهم. لكن الله يعلم.

في طريق النور، أعظم الانتصارات لا يراها أحد.

ولهذا ينبغي أن يكون للمؤمن فقه في الخطوات. أن يعرف أن الطريق إلى الله خطوات، والطريق إلى الشيطان خطوات. فلا يستحقر خطوة خير، ولا يستحقر خطوة شر.

ركعة في ليل طويل قد تكون خطوة إلى نور عظيم.
إغلاق باب محادثة قد يكون خطوة إلى نجاة.
رد شائعة قد يكون خطوة إلى طهارة مجتمع.
غض بصر في لحظة ضعف قد يكون خطوة إلى تزكية قلب.
اعتذار عن كلمة قد يكون خطوة إلى مغفرة.
ترك مجلس خوض قد يكون خطوة إلى رضا الله.

وفي المقابل، ضحكة صغيرة على عرض إنسان قد تكون خطوة إلى قسوة.
نظرة مسترسلة قد تكون خطوة إلى تعلق.
رسالة متساهلة قد تكون خطوة إلى فتنة.
تبرير خفيف قد يكون خطوة إلى سقوط كبير.
تأجيل توبة قد يكون خطوة إلى ألف تأجيل.

حياتك في حقيقتها ليست قفزة واحدة، بل مجموع الخطوات التي وافقت عليها.

وهنا يصبح السؤال الذي تتركه الآية في القلب:

إلى أين تمشي؟
ليست القضية أين وصلت الآن فقط، بل في أي اتجاه تتحرك؟

هل خطواتك اليومية تقربك من مشكاة النور، أم من ظلام لا يظهر لك آخره؟

هل ما تسمعه، وتراه، وتكتبه، وتخفيه، وتصحبه، وتكرره، يصنع فيك تزكية أم يسرقها منك؟

إن الشيطان لا يملّ من الخطوات الصغيرة؛ لأنه يعرف أن الإنسان يمل من الحراسة. وربما كانت معركة المؤمن الكبرى أن يبقى منتبهًا عندما تبدو الأمور بسيطة. أن لا يحتقر أول الطريق. أن يخاف من أول تنازل. أن يقول لنفسه: هذه ليست خطوة واحدة، هذه وجهة.

من عرف قيمة قلبه، لم يسلّمه لأول خطوة عابرة.

وسورة النور، وهي تحذرنا من خطوات الشيطان، لا تفعل ذلك لتجعلنا نعيش في رعب، بل في يقظة. فرق بين الخوف الذي يشل القلب، والخوف الذي يحرسه. المؤمن لا يمشي مذعورًا من الحياة، لكنه يمشي مستعينًا بالله، يعرف أن الطريق فيه أبواب مضيئة وأبواب مظلمة، وأن كل باب يبدأ بخطوة.

إنه لا يكره الدنيا، لكنه لا يثق بزخرفها.
ولا يحتقر نفسه، لكنه لا يأمن عليها.
ولا ييأس من التزكية، لكنه يعرف أنها فضل.
ولا يزعم العصمة، لكنه يلجأ إلى من يعصمه.

اليقظة ليست سوء ظن بالحياة، بل حسن معرفة بالنفس.

وهكذا تأتي هذه الآية بعد آيات الإفك كأنها تقول لنا: ما حدث لم يكن بعيدًا عنكم. لا تقولوا: كيف فعلوا؟ بل اسألوا: ما الخطوات التي قد تجعلنا نفعل

مثلهم؟ لا تلعنوا الشائعة فقط، بل فتشوا عن الطريق الذي أوصل إليها. لا تكتفوا بإدانة الظلام، بل أغلقوا الممرات الصغيرة التي يدخل منها.

فالظلام لا يدخل دائمًا من باب واسع.
أحيانًا يدخل من شق صغير في اللسان.
أو نافذة صغيرة في العين.
أو ثقب صغير في القلب.
أو عادة صغيرة في الخلوة.
أو فضول صغير في مجلس.

لا يحتاج الشيطان إلى فتح كل الأبواب؛ يكفيه باب صغير لا تحرسه.

وفي ختام هذا الفصل، نقف أمام الآية وقفة من يعرف أن نجاته ليست بذكائه ولا بقوته، بل بفضل الله ورحمته:

يا رب، لا نتبع خطوات الشيطان ونحن نظن أننا نمشي وحدنا.
يا رب، اكشف لنا الطريق من أوله، لا بعد أن نتعب في آخره.
يا رب، زكِّ نفوسنا، فإنها لا تزكو إلا بك.
يا رب، اجعلنا نخاف من الخطوة التي تبعدنا عنك، ونحب الخطوة التي تقربنا إليك.
يا رب، لا تجعلنا من الذين يحسبون الصغير هينًا وهو عندك عظيم.

الطريق إلى النور يبدأ حين يسأل القلب قبل كل خطوة: هل هذه تقربني من الله أم تسلمني للظلام؟

وهكذا نرى أن سورة النور لا تكتفي بمعالجة نتائج الظلام، بل تذهب إلى بداياته. لا تنتظر الشائعة حتى تكبر، بل تحذر من خطوتها الأولى. لا تنتظر الفاحشة حتى تقع، بل تكشف الطريق إليها. لا تنتظر القلب حتى يتلوث، بل تذكره أن التزكية فضل لا يستغنى عنه.

إنها سورة الحراسة حقًا.

تحرس الفعل.

وتحرس الكلمة.

وتحرس السمع.

وتحرس الظن.

وتحرس القلب من الغرور بطهره.

وتحرس المؤمن من أن ينام على حافة الطريق، ثم يستيقظ وقد قطع مع الشيطان مسافة طويلة.

من أراد النور، فليحرس خطواته؛ فالقلب يصل إلى مصيره خطوةً خطوة.

الفصل التاسع

حين يحرس الله براءة الغافلين

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾

بعد أن دعت السورة إلى العفو والصفح، لا تتركنا نظن أن العفو يعني أن حقوق الأبرياء تذوب في الهواء. فالقرآن واسع الرحمة، لكنه عظيم العدل. يفتح باب المغفرة، لكنه لا يترك الظالمين يمرحون في أعراض الناس كأن للكون ذاكرة ضعيفة.

هنا تعود السورة إلى رمي المحصنات، ولكن بنبرة أشد رهبة. كأن الآيات تقول: قد يعفو العبد، وقد يصفح الكريم، وقد يفتح الله باب التوبة لمن أصلح، لكن إياك أن تظن أن أعراض الغافلات المؤمنات شيء هين.

العفو خُلُقٌ عظيم، لكنه لا يعني أن الظلم كان صغيرًا.

تقول الآية: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾**.

مرة أخرى يأتي فعل الرمي. والكلمة لا تزال حجرًا، والسهم لا يزال منطلقًا، والجرح لا يزال في موضعه. لكن الآية هنا تضيف أوصافًا تهز القلب: **﴿الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾**.

الغافلات هنا ليست غفلة نقص، بل غفلة طهر. غافلات عن الفاحشة، لا تدور في خواطرهن، ولا يعرفن دهاليزها، ولا يعشن في مناخها. قلوب بريئة، ونفوس مطمئنة، وبيوت لا تتوقع أن يطرق بابها هذا النوع من الظلم.

ثم يأتي من يرمي.

أي قسوة هذه؟
أن ترمي نفسًا لم تكن تحسب حساب الرمي.
أن تفزع طمأنينة لم تستعد للدفاع عن نفسها.
أن تصنع للبراءة معركة لم تخطر لها على بال.

أقسى الظلم أن توقظ البراءة على صوت الاتهام.

إن الطاهر لا يحسن دائمًا الدفاع عن نفسه أمام الخبثاء؛ لأنه لم يتدرب على لغتهم. والقلوب النقية قد تتعثر حين تفاجَأ بالقسوة، لا لأنها ضعيفة، بل لأنها لم تتخيل أن هناك من يجرؤ على اختراع الظلام بهذا القدر.

ولهذا يتولى الله الدفاع.

حين يعجز البريء أن يشرح براءته، يبقى الله شاهدًا.
حين تتلعثم النفس الصافية أمام وقاحة الكذب، يبقى الله ناصرًا.
حين ينام الناس على رواية ظالمة، لا تنام عين الحق.

قد لا تجد البراءة لسانًا قويًا في الأرض، لكنها تجد ربًا عليمًا في السماء.

ثم تأتي العقوبة مهولة: ﴿**لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**﴾

اللعن طرد وإبعاد من الرحمة. وليس هذا وصفًا خفيفًا. إنه إعلان أن رمي الطاهرات الغافلات المؤمنات ليس مجرد سوء خلق، بل جريمة روحية واجتماعية تهدد صلة الإنسان بنور الله. فمن جعل لسانه سلاحًا على البراءة، عرّض نفسه لأن يُطرد من رحمةٍ هو أحوج ما يكون إليها.

في الدنيا لعنة.
وفي الآخرة لعنة.
ثم: ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾.

وكأن الآية تريد أن تعيد للسان هيبته التي أهدرها الناس. فكم من إنسان يخاف أن يمد يده إلى مال غيره، لكنه لا يخاف أن يمد لسانه إلى عرضه. يخاف السرقة، ولا يخاف القذف. يخاف أن يوقّع ورقة زور، ولا يخاف أن ينطق شهادة ظالمة في مجلس.

بعض الناس يتورعون عن الحرام بأيديهم، ثم يغرقون فيه بألسنتهم.

ثم يأتي المشهد الذي يخلع القلب من غفلته: ﴿**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾

يا له من انقلاب مهيب.
اللسان الذي كان شاهد زور في الدنيا، يصبح شاهد حق في الآخرة.
اليد التي كتبت، أو أشارت، أو أرسلت، أو نشرت، تشهد.
الرجل التي مشت إلى مجلس الخوض، أو وقفت في طريق الظلم، تشهد.

الإنسان الذي كان يظن جسده ملكًا صامتًا له، يكتشف أن أعضاءه كانت تحفظ، وتنتظر، وستتكلم يوم يأذن الله.

في الآخرة، لن يكون جسدك تابعًا لك في الكذب؛ سيكون شاهدًا عليك بالحق.

ما أشد هذا المشهد على من استعمل جوارحه في ظلم الناس. فالفم الذي كان يختار الكلمات سيخرج عن سلطان صاحبه. واليد التي كان يظنها أداة محايدة ستقول ما فعلت. والقدم التي حملته إلى مجلس الغيبة أو إلى طريق الفاحشة لن تتظاهر بالنسيان.

في الدنيا قد يتآمر الإنسان مع جسده على المعصية.
عين تنظر.
لسان يقول.
يد تكتب.
قدم تمشي.
قلب يرضى.

لكن في الآخرة ينفك هذا التحالف. يعود كل عضو إلى عبوديته الأولى لله، ويشهد على صاحبه.

لا تثق بصمت جوارحك الآن؛ إنها تؤجل شهادتها إلى يومٍ لا تستطيع فيه إسكاتها.

وهذه الآية، في زمننا، تفتح أبوابًا كثيرة للتأمل. اليد لا تكتب بالقلم وحده. اليد تكتب بالأزرار، وتلمس الشاشات، وتعيد النشر، وتلتقط الصور، وتحذف السياق، وتشارك في الظلم بضغطة صغيرة. والأرجل لا تمشي إلى المجالس

وحدها، بل قد تمشي بالإنسان إلى أماكن الفتنة، وإلى لقاءات مريبة، وإلى أبواب لا يحب أن يراه الله عندها.

واللسان لم يعد الصوت فقط. صار تعليقًا، ورسالة، ومنشورًا، وتلميحًا، ورمزًا، وسخرية مصورة، ومقطعًا متداولًا.

كل وسيلة تعبّر بها عن الظلم ستعرف طريقها إلى الشهادة عليك.

ثم تقول الآية: ﴿**يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ**﴾

الدين هنا الجزاء. يوفيهم الله. لا يظلمهم، ولا ينسى، ولا يترك شيئًا بلا وزن. كل كلمة تجد موضعها. كل نية تجد حقيقتها. كل ضحية تجد حقها. كل ظالم يرى ما كان يحسبه بعيدًا حاضرًا.

في الدنيا قد لا تكتمل العدالة.
قد يموت المظلوم قبل أن يسمع الناس براءته.
قد يبقى الكاذب مقبولًا في المجالس.
قد تنتشر التهمة أكثر مما تنتشر الحقيقة.
قد يتعب البريء في الدفاع عن نفسه حتى يملّ الناس سماعه.

لكن يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق.

إذا تأخرت العدالة في الأرض، فهي لا تغيب عن السماء.

ثم تختم الآية بما يشبه نهاية كل أوهام الكاذبين: ﴿**وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ**﴾

هناك سيعلمون.

لكن العلم هناك لا ينفع من أضاع فرصة العلم هنا.

سيعلم من رمى أن الله حق.

وسيَعلم من كذب أن الله حق.

وسيَعلم من خاض أن الله حق.

وسيَعلم من استهان أن ما كان عند الله عظيمًا.

وسيَعلم من ظن أن الله غافل عن كلمته أن الله هو الحق المبين.

أخطر معرفة هي التي تأتي بعد فوات التوبة.

إن اسم الله **الحق المبين** هنا يملأ القلب رهبة. فالحق ليس فكرة غامضة، ولا قيمة عائمة، ولا معنى يضيع بين الروايات. الله هو الحق المبين. عنده تنكشف الأشياء. لا تنفع الزينة اللفظية. لا تنفع الأقنعة. لا تنفع مهارة الدفاع. لا ينفع أن تكون فصيحًا إذا كانت الحقيقة ضدك.

كم من كلام بدا قويًا في الدنيا، لكنه عند الحق المبين هشّ. وكم من مظلوم بدا عاجزًا في الدنيا، لكنه عند الحق المبين منصور. وكم من متهم سكت طويلًا، لا لأنه لا يملك ألمًا، بل لأنه ينتظر عدل الله.

حين يكون الله هو الحق المبين، فلا تخف على حقيقةٍ سلّمتها له.

ثم تأتي الآيات بعدها كأنها تغسل الجو كله من غبار الإفك: ﴿**الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾

هذه الآية تأتي كنسيم بعد عاصفة.
بعد الكلام عن الرمي، واللعنة، والشهادة، والعذاب، يأتي ميزان الطيب والخبيث. كأن السورة تقول: لا تخافوا من ضجيج الباطل؛ فالأشياء في ميزان الله تعود إلى حقائقها.

الخبيثات للخبيثين.
والخبيثون للخبيثات.
والطيبات للطيبين.
والطيبون للطيبات.

الأرواح لها أنسابٌ لا تراها العيون، لكنها تظهر في الاختيار والكلمة والمقام.

ليست الطيبة هنا سطحًا ناعمًا، ولا صورة اجتماعية، ولا سمعة مصنوعة. الطيبة جوهر. طهارة في الأصل. استقامة في الاتجاه. نفور من القبح. حب للنور. وقد يقع الطيب في خطأ، لكنه لا يألف الخبث. وقد يتعثر، لكنه لا يتخذه وطنًا. وقد يُساء إليه، لكنه لا يصير خبيثًا بإساءة الخبيثين.

والخبيث ليس من أخطأ فقط. كل بني آدم خطاء. الخبث أعمق من الخطأ؛ أن يفسد الذوق حتى يحب القبح، وأن يظلم ثم يستمتع، وأن يكذب ثم يزهو، وأن يرى البراءة فريسة، وأن يجد لذته في تلويث الطاهرين.

ليس الخبث زلةً عابرة، بل ميلٌ داخلي إلى تلويث النور.

وهذه الآية تحمل عزاءً كبيرًا للمؤمنين. فإن الطيبين قد يتألمون من الكلام الخبيث، لكن الكلام الخبيث لا يغيّر حقيقتهم عند الله. قد يلبسهم الناس تهمة،

لكن الله يخلعها عنهم. قد يطول زمن الظن، لكن الحقيقة في ميزان الحق المبين لا تتلوث بضجيج الألسنة.

﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾

يا لها من كلمة تفيض طمأنينة.

مبرؤون، لا لأنهم نجحوا في إقناع الناس جميعًا، بل لأن الله برأهم.
مبرؤون، ولو بقي في الأرض من يهمس.
مبرؤون، ولو تأخر الاعتذار.
مبرؤون، ولو لم تصل الحقيقة إلى كل أذن سمعت الباطل.

براءة الله أوسع من تصديق الناس، وأبقى من تكذيبهم.

ما أصعب أن يعيش الإنسان تحت كلام لا يشبهه. أن يراه الناس من خلال رواية ليست له. أن يحاول أن يشرح طهره لمن استمتعوا باتهامه. لكن الآية تقول له: لا تجعل سلامك الداخلي رهينًا بكل لسان. إن كان الله يعلم براءتك، فقد عرفت أهم حقيقة في الوجود.

ليس هذا دعوة إلى ترك دفع الظلم حيث أمكن، ولا إلى السكوت عن الباطل دائمًا، لكنه تحرير للقلب من عبودية الناس. فالمؤمن يسعى إلى الحق، لكنه لا يموت إذا لم ينصفه كل أحد. يكفيه أن الله هو الحق المبين.

ليس لازمًا أن يعرف الناس كل الحقيقة حتى تكون أنت عند الله بريئًا.

ثم تأتي الخاتمة الرحيمة: **﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾**

مغفرة، لأن الطيبين ليسوا ملائكة. هم طيبون، لكنهم يحتاجون إلى مغفرة. وهذا من لطف القرآن؛ لا يرفعهم إلى مقام العصمة، بل يكرمهم مع بقاء عبوديتهم.

ورزق كريم، رزق في الدنيا أو الآخرة، رزق في القلب أو المصير، رزق من السمعة الطيبة أو السكينة، رزق من الجنة، وهو أكرم الرزق.

كأن الله يعوض من جُرح بالكلمة بما هو أكرم من كلمة الناس. يعطيه مغفرة ورزقًا كريمًا. والرزق الكريم ليس مالًا فقط. قد يكون طمأنينة بعد اضطراب. وقد يكون رفعة بعد اتهام. وقد يكون نورًا في القلب لا يصل إليه القاذفون. وقد يكون منزلة عند الله لا يراها الذين خاضوا.

قد يأخذ الناس منك شيئًا من راحتك، لكنهم لا يملكون أن يمنعوا رزق الله الكريم عنك.

وفي هذه الآيات نرى سورة النور وهي تعيد بناء معنى العدالة من جديد. لقد علمتنا أن نحرس ألسنتنا. ثم علمتنا أن نعفو. ثم جاءت لتقول إن العفو لا يعني ضياع الحق؛ فهناك يوم تشهد فيه الأعضاء، وهناك إله اسمه الحق المبين، وهناك طيب لا يفسده كلام الخبيثين.

ما أعظم هذا التوازن.

لا قسوة بلا رحمة.

ولا رحمة بلا عدل.

ولا عفو بلا حقيقة.

ولا حقيقة بلا يوم يرجع فيه كل شيء إلى الله.

سورة النور لا تريد قلبًا منتقمًا، ولا قلبًا ساذجًا؛ تريد قلبًا رحيمًا يعرف أن الله عادل.

وهنا يستطيع المظلوم أن يتنفس. لا يلزم أن يحمل وحده عبء إثبات كل شيء. لا يلزم أن يطارد كل لسان. لا يلزم أن يشرح نفسه لكل مجلس. يفعل ما يستطيع من دفع الباطل، ثم يسلّم الباقي للحق المبين.

بعض المعارك لا تنتهي في الدنيا كما نشتهي.
وبعض الاعتذارات لا تأتي.
وبعض الذين ظلموا لا يعترفون.
وبعض الآذان التي سمعت الباطل لا تسمع الحق.
لكن الله يعلم.

وهذه الجملة وحدها تكفي أحيانًا ليبقى القلب حيًا: الله يعلم.

حين لا تستطيع أن تصل إلى كل الناس بحقيقتك، يكفي أن حقيقتك وصلت إلى الله منذ البداية.

أما القاذف، فهذه الآيات ينبغي أن ترجّه رجًا. لا تقل كلمة ثم تنم. لا تتصور أن الألسنة تنتهي حين يسكت المجلس. لا تنس أن لك يومًا تقف فيه، لا يدافع عنك لسانك، بل يشهد عليك. لا تجعل جسدك شاهدًا مؤجلًا ضدك. لا تستعمل يدك في نشر ما ستنكره روحك يوم القيامة.

وإن كنت قد ظلمت، فالنجاة أن تتوب قبل أن تشهد عليك الجوارح.
أن تعود قبل أن يوفى الدين الحق.

أن تستغفر وتصلح وترد الحقوق ما استطعت.
أن تجعل لسانك في خدمة البراءة بعد أن جعلته في خدمة الاتهام.

من تاب قبل شهادة الجوارح، شهدت له دموعه بدل أن تشهد عليه أعضاؤه.

وفي ختام هذا الفصل، نقف أمام قسمة الطيب والخبيث لا لنزكي أنفسنا، بل لنسأل الله أن يجعلنا من أهل الطيب. فالإنسان لا ينبغي أن يقول عن نفسه: أنا من الطيبين، ثم ينام مطمئنًا. بل يقول: يا رب، طهّر قلبي من الخبث. طهّر لساني من القسوة. طهّر سمعي من لذة الفضيحة. طهّر يدي من نشر الظلم. طهّر قدمي من المشي إلى ما لا يرضيك.

فالطيب ليس لقبًا نعلقه على أنفسنا.
إنه طريق من المجاهدة.
كل يوم نختار فيه كلمة أطيب، وظنًا أطيب، وسترًا أطيب، وصحبة أطيب، وموقفًا أطيب.

الطيبون لا يُعرفون بأنهم لا يخطئون، بل بأنهم لا يرضون للخبث أن يسكن قلوبهم.

وهكذا تختم آيات الإفك بصفاء عجيب. بدأت بظلام الشائعة، ثم مرت بأدب التثبت، وخطر الخوض، وتحذير خطوات الشيطان، وفضل العفو، ثم انتهت إلى أن الطيبين مبرؤون، لهم مغفرة ورزق كريم.

كأن السورة تقول: قد يشتد الظلام، لكن النور يعرف أهله.
قد ترتفع الأصوات، لكن الحق لا يفقد صوته.

قد تُجرح البراءة، لكن الله يحرسها.
قد يتأخر الإنصاف، لكنه لا يموت.
قد يخوض الناس، لكن الجوارح ستشهد.
قد تختلط الروايات، لكن الله هو الحق المبين.

لا تخف على النور من كثرة الأفواه؛ خف عليه فقط إن غاب الله عن قلبك.

فلنخرج من هذا الفصل ونحن أكثر حياءً من جوارحنا، وأكثر يقينًا بعدل ربنا، وأكثر رحمة بالغافلات المؤمنات، وأكثر خوفًا من رمي الطيبين بما لا يليق، وأكثر تعلقًا باسم الله: **الحق المبين**.

فما دام الله هو الحق المبين، فليس في الكون بهتان خالد.
وما دام الله هو الحق المبين، فكل ظلمة إلى انكشاف.
وما دام الله هو الحق المبين، فليطمئن كل بريء، وليرتجف كل كاذب.

في حضرة الحق المبين، تسقط كل الأقنعة ويبقى النور كما هو: نورًا.

الفصل العاشر

حين يقف النور عند عتبة الباب

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾

بعد أن طهّرت سورة النور اللسان من القذف، والسمع من الشائعة، والقلب من حب إشاعة الفاحشة، تنتقل بنا إلى الباب.

إلى العتبة.

إلى تلك اللحظة الصغيرة التي يقف فيها الإنسان خارج بيت غيره، فيقرر هل يدخل ككريم، أم يقتحم كغافل.

وكأن السورة تقول: إن النور لا يسكن القلب فقط، ولا يظهر في المحاريب وحدها، بل يظهر في طريقة طرقك للباب، وفي أدب انتظارك، وفي قبولك أن يقال لك: ارجع.

من لم يتأدب عند أبواب الناس، لم يكتمل نوره في داخله.

تبدأ الآية بالنداء المحبب المهيب: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾**

وكأن أدب الدخول ليس مسألة اجتماعية هامشية، بل شأن من شؤون الإيمان. أن تكون مؤمنًا يعني أن تعرف أن للبيوت أرواحًا، وأن خلف الأبواب أسرارًا، وأن الناس ليسوا متاحين لك في كل لحظة، وأن القرب لا يلغي الاستئذان، وأن الألفة لا تبرر الاقتحام.

البيت في سورة النور ليس جدرانًا فقط.

إنه ستر.

إنه سكينة.

إنه مساحة ينزل فيها الإنسان عن أقنعته.

إنه موضع ضعفه وراحته وخصوصيته.

إنه المكان الذي لا يليق أن تدخله حتى يفتح لك أهله الباب ظاهرًا وباطنًا.

البيوت ليست أماكن نسكنها فقط؛ إنها حدود أرواحنا حين تريد أن تستريح من العالم.

ثم يأتي النهي: ﴿**لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ**﴾

ما أعمق هذا التعبير: **غير بيوتكم**.

كأن القرآن يذكرك أنك حين تقف عند بيت غيرك، فأنت خارج حقك الأصلي. أنت لست في ملكك. لست في مساحتك. لست صاحب القرار. مهما كانت قرابتك، ومهما كانت صداقتك، ومهما ظننت أنك مرحب بك، يبقى البيت بيت غيرك حتى يأذن لك أهله.

الأدب يبدأ حين تعرف أن قربك من الناس لا يمنحك حق اقتحام مساحتهم.

كم من علاقات انكسرت لا بسبب عداوة، بل بسبب قلة أدب المسافات.
إنسان يكثر الدخول، أو يكثر الاتصال، أو يفرض حضوره، أو يغضب إن لم يُفتح له، أو يتعامل مع بيوت الآخرين كأنها امتداد لراحته هو.

لكن القرآن يعلّمنا أن المحبة لا تعني الإلغاء.
وأن القرب لا يعني الذوبان.
وأن الأخوة لا تعني أن يصبح الإنسان بلا باب.
وأن من حق الناس أن يملكوا مساحتهم، ووقتهم، وسرهم، وهدوءهم.

أحيانًا لا تؤذي الناس بما تأخذ منهم، بل بما لا تتركه لهم من مساحة.

ثم تقول الآية: ﴿**حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا**﴾

ما أجمل لفظ **تستأنسوا**. لم يقل فقط: حتى تستأذنوا، بل جاء بهذا اللفظ الرقيق الذي يحمل معنى الإيناس، واللطف، ورفع الوحشة. كأن المطلوب ليس مجرد إجراء رسمي: طرقت الباب، قلت: أأدخل؟ بل المطلوب أن يكون دخولك نفسه مؤنسًا لا مفزعًا، لطيفًا لا ثقيلًا، مرحبًا به لا مقتحمًا.

الاستئناس يعني أن تطلب من أهل البيت أن يأذنوا لك من غير أن تفاجئهم.
أن تمنحهم فرصة الاستعداد.
أن لا تهجم على سترهم.
أن لا تجعل حضورك صدمة.
أن لا تدخل على حال لم يختاروا أن تراه.

ليس الأدب أن تدخل بعد الإذن فقط، بل أن تجعل طلب الإذن نفسه لطيفًا على القلب.

ثم السلام: ﴿**وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا**﴾

فالداخل إلى البيت لا يدخل بجسده أولًا، بل يدخل بالسلام. السلام جواز عبور المؤمن إلى قلوب الناس. كأنك تقول: لا أخافكم مني. جئتكم بأمان، لا بفضول. جئتكم بتحية، لا باقتحام. جئتكم بنور، لا بقلق.

ما أجمل أن يكون أول ما يصل إلى البيت منك سلامك، لا صوتك العالي، ولا عجلة يدك، ولا فضول عينك.

السلام قبل الدخول إعلانٌ أن حضورك لن يكون أذى.

ثم تقول الآية: ﴿**ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾

خير لكم.

قد يظن الإنسان أن الاستئذان خير لأهل البيت فقط، لأنه يحفظ خصوصيتهم. لكن الآية تقول: خير لكم أنتم أيضًا. فالذي يحفظ حدود غيره يحفظ كرامته هو. والذي لا يرى من الناس إلا ما اختاروا أن يروه، يبقى قلبه أنقى. والذي لا يقتحم خصوصياتهم ينجو من رؤية ما يحرجه ويحرجهم. والذي يتأدب بالباب يتربى داخله على معنى عظيم: أن الإنسان ليس مالكًا للعالم.

حين تحترم أبواب الناس، فأنت تحرس باب قلبك من الفضول والابتذال.

ثم تمضي الآيات إلى موقف يحتاج إلى تهذيب أعمق: ﴿**فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ**﴾

حتى لو لم تجد أحدًا.
حتى لو كان الباب مفتوحًا.
حتى لو كنت تعرف المكان.
حتى لو كنت قريبًا.
حتى لو ظننت أن الأمر لا يستحق التشدد.

لا تدخل.

لأن غياب صاحب البيت لا يعني سقوط حرمته. والباب المفتوح لا يعني الإذن. والقدرة على الدخول لا تعني الحق في الدخول. وكم من الناس يخلطون بين ما يستطيعون فعله وما يجوز لهم فعله.

ليس كل باب مفتوح دعوةً للدخول؛ بعض الأبواب المفتوحة امتحانٌ لأدبك.

هذا المعنى لا يقف عند البيوت الحجرية. إنه يمتد إلى بيوت أخرى في حياتنا: هواتف الناس، رسائلهم، أسرارهم، ملفاتهم، أوقاتهم، أوجاعهم، ماضيهم، صورهم، مساحتهم الخاصة. كم من إنسان يدخل حياة غيره بلا إذن، يسأل عما لا يعنيه، يفتش في خصوصياته، يقرأ ما لم يؤذن له، يطلب تفاصيل لا حق له فيها، ثم يسمي ذلك قربًا أو اهتمامًا.

لكن سورة النور تقول: لا تدخلوا.

لا تدخل بيتًا من حجر بلا إذن.

ولا تدخل بيتًا من سر بلا إذن.

ولا تدخل بيتًا من وجع بلا إذن.

ولا تدخل بيتًا من خصوصية بلا إذن.

للناس بيوتٌ في صدورهم أيضًا؛ لا تقتحمها بأسئلتك.

ثم تأتي التربية الأرفع: ﴿**وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا**﴾

هذه الآية وحدها تربي أمة كاملة على كرامة الرفض.

إن قيل لكم ارجعوا، فارجعوا.

لا تغضب.

لا تتأذَّ.

لا تفسر الرفض إهانة.

لا تجعل من عدم استقبال الناس لك قضية كرامة.

لا تقل: كيف يردونني؟

لا تفتح باب العتاب الثقيل.

لا تُشعرهم أنهم ارتكبوا جرمًا لأنهم لم يكونوا مستعدين لك.

ارجعوا.

من أدب النور أن تقبل رجوعك من أبواب الناس بلا مرارة.

ما أصعب هذه على النفس. فالنفس تحب أن تُفتح لها الأبواب دائمًا. تحب أن تكون مرغوبة في كل وقت. تحب أن يشعر الآخرون بالحرج منها. فإذا قيل لها: ليس الآن، تألمت. وإذا رُدّت، صنعت من الرد قصة.

لكن القرآن يحررنا من هذه الحساسية المريضة. يعلّمنا أن حق الناس في وقتهم وبيتهم لا يعني نقصانًا في مكانتنا. وقد يكون رجوعك أزكى لك من دخولك. نعم، أزكى لك.

﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾

أي أطهر لنفسك، وأرفع لأدبك، وأنقى لعلاقتك، وأبعد عن الإحراج والحرج. فالرجوع ليس هزيمة. الرجوع حين يُطلب منك أدب. والامتثال هنا تزكية؛ لأنك تغلب رغبة نفسك في الدخول، وتختار احترام ستر غيرك.

أحيانًا تكون أعلى درجات القرب أن تعرف متى ترجع.

كم من العلاقات تحتاج هذه الآية.
كم من صديق يحتاج أن يفهم أن صديقه قد يحتاج إلى صمت.
وكم من قريب يحتاج أن يفهم أن القرابة لا تلغي الخصوصية.
وكم من زائر يحتاج أن يفهم أن اعتذار أهل البيت ليس طردًا.
وكم من محب يحتاج أن يفهم أن الحب لا يعني التوفر الدائم.

إن قول "ارجعوا" ليس عيبًا.
والاستجابة له ليست كسرًا.

بل العيب أن نربي الناس على أن يعتذروا وهم خائفون، وأن يفتحوا وهم متعبون، وأن يستقبلوا وهم كارهون، حتى لا تجرح حساسيتنا.

العلاقات الناضجة لا تخاف من كلمة: ليس الآن.

ثم تختم الآية: ﴿**وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**﴾

الله يعلم كيف تقف عند الباب.
يعلم هل طرقت بلطف أو بعنف.
يعلم هل انتظرت بأدب أو بضيق.
يعلم هل رجعت راضيًا أو حملت في قلبك عتبًا خفيًا.
يعلم هل احترمت خصوصية غيرك أو تمنيت أن تنكشف لك.
يعلم ما لا يراه أهل البيت من نيتك عند الباب.

وهنا ندرك أن الاستئذان ليس حركة اجتماعية فقط، بل عبادة. عبادة في طرق الباب، وعبادة في الانتظار، وعبادة في الرجوع، وعبادة في سلامة الصدر إذا لم يؤذن لك.

قد يكون وقوفك عند بابٍ مغلق عبادةً لا تقل عن دخولك إلى مسجد مفتوح.

ثم تستثني الآية: ﴿**لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ**﴾

فالقرآن لا يضيّق بلا حاجة. البيوت غير المسكونة، والأماكن العامة، والمواضع التي للإنسان فيها متاع وحاجة، ليست كحرمة البيوت المسكونة.

وهذا من توازن التشريع؛ يضع الحرمة حيث توجد الخصوصية، ويرفع الحرج حيث توجد الحاجة والإذن العام.

إن سورة النور ليست سورة تعقيد، بل سورة نظام.
لا تريد أن تجعل الحياة ثقيلة، لكنها تريد أن تجعلها مهذبة.
لا تمنع الحركة، لكنها تمنع الاقتحام.
لا تقتل التواصل، لكنها تنظفه من الفوضى.

الأدب القرآني لا يخنق الحياة؛ إنه يمنحها مساحةً آمنة تتحرك فيها بلا أذى.

ثم يأتي الختام الجامع: **﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾**

وهنا ينتقل المعنى من ظاهر الدخول إلى باطن النية. قد يستأذن الإنسان بلسانه، لكن في قلبه فضول. قد يطرق الباب بأدب، لكنه يتمنى أن يرى ما لا يحق له. قد يرجع بجسده، لكنه يخفي في داخله غضبًا أو سوء ظن. قد يدخل مكانًا غير مسكون، لكنه يستعمل الإذن العام فيما لا يرضي الله.

الله يعلم ما تبدون وما تكتمون.

يعلم ظاهر الخطوة وباطنها.
ظاهر السلام وباطن الفضول.
ظاهر الرجوع وباطن الاعتراض.
ظاهر الأدب وباطن الريبة.

لا يكتمل أدب الباب حتى يتأدب القلب الذي يقف خلفه.

وهذا هو العمق الحقيقي في سورة النور. إنها لا تصنع مجتمعًا مهذبًا من الخارج فقط، بل تطارد النية في الداخل. لا يكفي أن لا تدخل؛ هل سلم قلبك من الرغبة في الاقتحام؟ لا يكفي أن تقول السلام؛ هل جئت فعلًا بسلام؟ لا يكفي أن ترجع؛ هل رجعت بزكاة أم بمرارة؟

إن الآية تريد أن تجعل المؤمن خفيفًا على بيوت الناس. لا يثقل عليهم بحضوره، ولا يحرجهم بطلبه، ولا يؤذيهم بفضوله، ولا يغضب إذا حفظوا مساحتهم. المؤمن بركة إذا دخل، وطيب إذا انتظر، وكريم إذا رجع.

أجمل الناس من كان حضوره رحمة، وغيابه بلا عتب، ورجوعه بلا كسر خاطر.

ما أحوجنا إلى هذا الأدب في زمن صار فيه الدخول إلى حياة الناس أسهل من طرق الباب. لم تعد الأبواب خشبية فقط. صار للناس أبواب رقمية، ونوافذ شخصية، ومساحات من الهدوء ينبغي أن تُحترم. الاستئذان اليوم قد يكون قبل اتصال، قبل زيارة، قبل تصوير، قبل نشر صورة، قبل مشاركة سر، قبل سؤال مؤلم، قبل الدخول في نقاش خاص.

كم نحتاج أن نترجم الآية في زماننا:

لا تدخل محادثة لا تخصك.
لا تفتح هاتفًا ليس لك.
لا تنشر صورة دون إذن.
لا تسأل عن خاصٍ لم يفتح لك صاحبه بابه.

لا تفرض زيارة.
لا تغضب من تأخر رد.
لا تقتحم عزلة إنسان يحتاج أن يستريح.

كل زمن له أبوابه، والمؤمن يعرف كيف يستأذن عند كل باب.

إن بعض الناس يظنون أن الاستئذان نقص في المحبة. والحقيقة أنه من دلائلها. لأنك حين تحب أحدًا، لا تقتحم ستره. حين تحترمه، تمنحه حق أن يقول: الآن لا أستطيع. حين تعرف قيمته، لا تجعله يعيش تحت ضغط حضورك.

الحب الذي لا يحترم المسافة يتحول إلى ثقل.
والقرب الذي لا يعرف الاستئذان يتحول إلى سيطرة.
والعفوية التي لا تراعي الستر تتحول إلى أذى.
والاهتمام الذي لا يستأذن يتحول إلى فضول.

ليس كل اقتراب حميمية؛ بعض الاقتراب انتهاكٌ ناعم.

ومن هنا نفهم لماذا جاءت آيات البيوت بعد آيات الإفك. فالسورة التي حذرت من اقتحام أعراض الناس بالكلام، تحذر الآن من اقتحام بيوتهم بالأقدام. كلاهما انتهاك للستر. هناك ستر السمعة، وهنا ستر المسكن. هناك باب اللسان، وهنا باب البيت. هناك قذف بالكلمة، وهنا اقتحام بالحضور.

وكأن السورة تقول: النور كله أدب مع ستر الآخرين.

ستر عرضهم.

ستر بيتهم.

ستر جسدهم.

ستر أسرارهم.

ستر ضعفهم.

ستر لحظاتهم التي لا يحبون أن تُرى.

من لا يحترم ستر الناس، لم يفهم سورة النور.

وهنا يمكن للإنسان أن يسأل نفسه:

هل أنا خفيف على بيوت الناس؟

هل أقبل اعتذارهم دون أن أجرحهم؟

هل أدخل حياتهم بإذن أم بضغط؟

هل أحترم أوقاتهم؟

هل أترك لهم حق الصمت؟

هل أفرق بين القرب والاقتحام؟

هل أسلّم قبل أن أطلب؟

هل أرجع إذا قيل لي ارجعوا، أم أبقى واقفًا بثقل العتب؟

إن القرآن لا يريد فقط إنسانًا يصلي، بل إنسانًا إذا وقف عند الباب عرف كيف يقف. لا يريد قلبًا يبكي في المحراب ثم يثقل على الناس في بيوتهم. لا يريد لسانًا يذكر الله ثم يعتب لأن الناس حفظوا خصوصيتهم.

التدين الذي لا يتحول إلى أدب يومي يبقى نورًا محبوسًا في الشعائر.

وفي نهاية هذا الفصل، تبدو عتبة الباب كأنها موضع امتحان. ليست شيئًا صغيرًا كما نظن. عند الباب تظهر أخلاق كثيرة: الصبر، والتواضع، واحترام الحدود، وقبول الرفض، وسلامة الصدر، وخفة الروح، وحسن الظن.

قد يفتح لك الباب، فادخل بسلام.
وقد لا يفتح، فارجع بسلام.
وفي الحالين، لا تفقد نورك.

لأن النور ليس أن تحصل على ما تريد، بل أن تبقى مؤدبًا حين لا تحصل عليه.
ولأن التزكية ليست في أن تُستقبل دائمًا، بل في أن ترجع إذا قيل لك ارجع.
ولأن القلب الذي يحترم أبواب الناس، أقرب إلى أن يفتح الله له أبوابًا لا تخطر له على بال.

من رجع عن باب عبدٍ امتثالًا لله، فتح الله له بابًا إلى تزكية قلبه.

هكذا تنتقل سورة النور من فضاء الشائعة الواسع إلى عتبة البيت الصغيرة، لتقول لنا إن الطهر لا يتجزأ. الذي يحفظ لسانه يحفظ قدمه. والذي يحفظ عرض الناس يحفظ بيوتهم. والذي يخاف الله في الكلام، يخافه في الدخول. والذي يريد النور، يتعلم أن يستأذن.

فالبيت حرمة.
والباب ميثاق.
والاستئذان عبادة.

والسلام مفتاح.

والرجوع تزكية.

والله يعلم ما نُبدي وما نكتم.

عند كل بابٍ مغلق فرصةٌ خفية: إما أن تكبر نفسك بالعتب، أو يزكو قلبك بالطاعة.

الفصل الحادي عشر

حين تكون العين بابًا إلى القلب

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ...﴾

بعد أن وقفت سورة النور عند أبواب البيوت، تعود الآن إلى بابٍ آخر، أدقّ وأخطر، بابٍ لا خشب له ولا قفل، لكنه كثيرًا ما يكون أول مداخل الظلمة إلى الإنسان: **العين**.

العين ليست عضوًا بريئًا دائمًا.

إنها نافذة.

والنوافذ إن لم تُحرس، دخل منها ما لا نملك بعد ذلك أن نخرجه بسهولة.

ما يدخل من العين لا يبقى في العين؛ إنه يجد طريقه إلى القلب.

تأتي الآية بصيغة الأمر: **﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾**.

وكأن الله يعلّم نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخاطب المؤمنين في أخصّ عاداتهم اليومية. لا يقول لهم فقط: صلوا، وآمنوا، وأنفقوا، بل يقول لهم: انتبهوا إلى أبصاركم. فالدين لا يترك العين خارج التكليف. لا يترك النظر سائبةً بحجة أنه حركة سريعة. لا يقول: ما دامت اليد لم تمتد، فلا شأن لنا بالعين.

بل يبدأ من العين؛ لأن كثيرًا من الطرق تبدأ منها.

نظرة، ثم خاطر.
خاطر، ثم ميل.
ميل، ثم تكرار.
تكرار، ثم تعلق.
تعلق، ثم ضعف.
ضعف، ثم باب لا يدري الإنسان كيف فُتح.

النظرة التي لا يحرسها الإيمان قد تكون أول رسالة يكتبها القلب إلى الفتنة.

ولم يقل الله: يغمضوا أبصارهم، بل قال: ﴿**يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ**﴾.

والغض ليس إلغاءً للبصر، ولا حربًا على الجمال، ولا دعوة إلى أن يمشي الإنسان في الحياة كأنه لا يرى. إنه تهذيب للرؤية. أن ترى دون أن تلتهم. أن تمر عيناك على العالم دون أن تجعل كل شيء مباحًا لرغبتك. أن تعرف أن الجمال ليس دعوةً مفتوحةً للاستهلاك الداخلي.

الغض أدب، لا عمى.
قوة، لا ضعف.
حرية، لا كبت.

غض البصر ليس إطفاءً للعين، بل إنقاذٌ لها من عبودية الصورة.

إن الإنسان في هذا العالم يتعرض لفيضٍ هائل من الصور. الصورة تلاحقه في الطريق، وفي الشاشة، وفي الإعلان، وفي الذاكرة، وفي الخيال. وكأن

العصر كله يقوم على تدريب العين أن لا تشبع. كل صورة تقول لها: انظري أكثر. كل مشهد يريد أن يحتجزها لحظة أطول. كل فتنة تطلب من العين أن تكون خائنة للقلب.

وسورة النور تأتي وسط هذا الضجيج لتقول: غضّ.

لا لأن الجمال قبيح، بل لأن قلبك ثمين.
لا لأن الرغبة لعنة، بل لأنها إن لم تُهذّب صارت قيدًا.
لا لأن الحياة كلها خطر، بل لأنك لا تملك أن تدخل كل صورة إلى داخلك ثم تبقى كما كنت.

العين تجمع ما يظنه الإنسان عابرًا، ثم يصنع منه القلب عالمًا يسكنه في الخفاء.

ما أكثر الذين ظنوا أن النظرة تنتهي بانتهاء المشهد، ثم اكتشفوا أنها بقيت في الداخل. تتحول إلى مقارنة، إلى خيال، إلى اضطراب، إلى عدم رضا، إلى تعلق بما لا يملكون، إلى فتور عما أحل الله، إلى جوعٍ لا يزيده النظر إلا جوعًا.

فالنظر المفتوح لا يروي دائمًا، بل قد يعمق العطش.
والعين إذا تعودت أن تأخذ من كل شيء، صعب عليها أن تفرح بما رزقها الله.
ومن لم يربِّ بصره على الاكتفاء، أرهق قلبه بالمستحيل.

بعض العيون لا تبحث عن الجمال، بل عن سببٍ جديد لعدم الرضا.

ثم يقترن غض البصر بحفظ الفرج:

﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾

وهذا الاقتران يكشف الطريق. فحفظ الفرج لا يبدأ عند لحظة الفعل، بل يبدأ قبل ذلك بكثير. يبدأ من العين. يبدأ من الخاطر. يبدأ من الباب الأول. فالقرآن لا ينتظر الإنسان عند آخر الهاوية ليقول له: قف، بل يناديه عند أول الطريق.

ما أرحم الشريعة حين لا تكتفي بتحريم النهاية، بل تحذر من البداية.
إنها لا تقول لك فقط: لا تسقط.
بل تقول لك: لا تمشِ في الطريق الذي يعرف الشيطان كيف ينتهي بك.

من أراد حفظ آخر الطريق، فليحرس أوله.

كم من إنسان يريد العفاف، لكنه لا يحفظ أسبابه. يريد قلبًا مطمئنًا، وعينه في فوضى. يريد طهارة، وخلوته مزدحمة بالصور. يريد وفاءً، ونظره يوزع نفسه في كل مكان. يريد سكينة، لكنه يفتح على قلبه نوافذ الريح ثم يشكو اضطراب المصباح.

القرآن لا يظلم الإنسان حين يأمره بالغض؛ إنه يعرف تركيبته. يعرف أن القلب يتأثر. يعرف أن الصورة تترك أثرًا. يعرف أن النفس إذا أُشبعت بالحرام لم تعد تجد الحلال كما ينبغي. يعرف أن الفتنة إذا دخلت من العين خرجت من السلوك يومًا ما، أو بقيت مرضًا في الداخل.

العفة ليست قرارًا في لحظة الاشتعال فقط؛ إنها تربية طويلة قبل الاشتعال.

ثم يقول تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ**﴾

مرة أخرى تظهر كلمة التزكية في السورة. غض البصر ليس مجرد منع، بل تزكية. إنه تنظيف داخلي. كأن كل نظرة محرمة غبار، وكل غض بصر غسل. كل مرة تصرف عينك لله، تزداد في داخلك مساحة النور. ربما لا يشعر الناس بهذا الانتصار، وربما لا يمدحك أحد، وربما لا يعلم أحد أنك كنت قادرًا على النظر فتركت، لكن الله يعلم.

والتزكية هنا لا تعني أن القلب سيصير ملاكًا بلا رغبة، بل أن الرغبة ستصير أكثر أدبًا، وأن العين ستتعلم الخشوع، وأن النفس ستعرف أن ليست كل دعوة تستحق الإجابة.

في كل غضّ بصرٍ صامت، يولد في القلب نورٌ لا تراه العيون.

ما أجمل أن يكون للإنسان أعمال خفية لا يعرفها إلا الله. أن يرى فتنة، فيخفض بصره لا خوفًا من الناس، بل حياءً من ربه. أن يكون وحده، والشاشة بين يديه، والباب مغلق، ثم يتذكر أن الله خبير بما يصنع. أن ينتصر في مكان لا جمهور فيه. هذه هي التزكية الصادقة؛ تزكية لا تعتمد على رقابة المجتمع، بل على حياة المراقبة في الداخل.

ثم تختم الآية: ﴿**إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**﴾

خبير.

ليس فقط عليمًا بما يفعلون ظاهرًا، بل خبيرًا بدقائق الصناعة النفسية كلها.

يعلم النظرة الأولى والثانية. يعلم الفرق بين من وقعت عينه فصرفها، ومن استدعاها وقلبها في داخله. يعلم من غض بصره حياءً، ومن أطلقه ثم تظاهر بالنقاء. يعلم ما تخفيه العين حين لا يفهم الناس لغتها.

قد لا يراك أحد وأنت تنظر، لكن الله خبيرٌ بما تصنعه النظرة فيك.

لفظ **يصنعون** يفتح معنى عجيبًا. كأن النظر صناعة. الإنسان يصنع داخله بما يراه. يصنع خياله، ويصنع رغبته، ويصنع ذوقه، ويصنع مقاييسه، ويصنع اضطرابه أو سكينته. ليست العين متلقية فقط؛ إنها تشارك في بناء النفس.

فانظر ماذا تصنع بعينك.
هل تصنع طمأنينة أم قلقًا؟
حياءً أم جرأة؟
رضا أم مقارنة؟
عفة أم جوعًا؟
نورًا أم دخانًا؟

أنت لا تنظر فقط؛ أنت تبني في قلبك شيئًا بكل ما تسمح لعينيك أن تستضيفاه.

ثم يأتي الخطاب للمؤمنات:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾

وهذا من عدل القرآن وواقعيته. فالأمر بالغض ليس موجهًا للرجال وحدهم. المرأة أيضًا لها عين، وقلب، ورغبة، وامتحان، ومسؤولية. الطهر ليس

واجب طرف دون طرف. والمجتمع المضيء لا يبنى بأن يطالب نصفه بالعفة ويعفي النصف الآخر من الحراسة.

كل قلب له أبوابه.
وكل عين لها امتحانها.
وكل إنسان، رجلًا كان أو امرأة، يحتاج أن يتعلم كيف يرى بنور الله.

سورة النور لا تصنع طهرًا أعور؛ إنها تخاطب العينين في المجتمع كله.

ثم يقول تعالى:

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾

هنا تنتقل السورة من غض البصر إلى أدب الظهور. من حراسة العين إلى حراسة الزينة. وليس في ذلك امتهان للجمال، بل حماية له من الابتذال. فالزينة في ذاتها ليست شرًا. المرأة ليست مطالبة أن تكره جمالها، ولا أن تحتقر أنوثتها، ولا أن تتعامل مع الجسد كعدو. لكن الجمال في القرآن له سياق يكرمه، وحدود تحفظه، وحياء يمنعه من أن يصبح عرضة لكل عين.

الحياء لا يلغي الجمال؛ إنه يمنحه مكانًا يليق بكرامته.

إن المشكلة ليست في أن يكون للمرأة زينة، بل في أن يتحول الجمال إلى إعلان دائم، وإلى لغة تستدعي العيون، وإلى حضورٍ لا يترك للروح فرصة أن تُرى. حين يصبح الجسد هو الرسالة الأعلى، تضيع أشياء كثيرة: العقل، والسكينة، والوقار، والعمق، والحق في أن تُعامل المرأة كإنسان كامل لا كصورة عابرة.

والإسلام حين يأمر بالستر، لا يقول للمرأة: اختفي لأنك فتنة وحسب. بل يقول لها: أنت أكرم من أن تكوني مستباحة للنظر. جمالك ليس مائدة عامة. زينتك ليست حقًا لكل عين. جسدك ليس مساحةً مفتوحة لتقييم العابرين.

الستر ليس حجبًا لقيمة المرأة، بل حجبٌ لما لا يحق لكل أحد أن يراه منها.

ثم تقول الآية: ﴿**وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ**﴾

والتعبير بالضرب هنا فيه معنى الإسدال والإحكام. ليس الأمر زينة رمزية، ولا مظهرًا خفيفًا بلا أثر، بل ستر يحقق معناه. إن الحياء في القرآن ليس شعارًا، بل هيئة لها صدقها. كما أن الإيمان ليس كلمةً فقط، فالستر ليس قطعة قماش منفصلة عن روحها.

قد تلبس المرأة ما يسمى سترًا، لكن الروح قد تكون باحثة عن كشفٍ من نوع آخر.
وقد تتستر في الظاهر، لكنها تطلب من الأنظار أن تلتفت.
وقد يجتمع الحجاب على الرأس ولا يجتمع الحياء في الحركة والكلمة والحضور.

وكذلك الرجل قد يزعم العفة، وعينه هائمة.
فالقرآن يطلب المعنى قبل الصورة، لكنه لا يلغي الصورة.

الحياء ليس قماشًا وحده، ولا شعورًا وحده؛ إنه صدق الداخل حين يظهر على الخارج.

وهذا باب يحتاج إلى رفق عظيم. فكثير من الخطاب حول الحشمة صار قاسيًا أو سطحيًا؛ إما أن يختزل المرأة في لباسها كأن لا دين لها إلا ثوبها، وإما أن يلغي أثر اللباس كأن الجسد لا علاقة له بالمعنى. أما سورة النور فتأتي بالميزان: القلب، والعين، والجسد، والمجتمع، كلها مترابطة.

الحشمة ليست كل الدين، لكنها جزء مضيء منه.
وليست غاية المرأة، لكنها من جملة ما يحرس كرامتها.
وليست رخصة للرجال أن يطلقوا أبصارهم، لأنهم مأمورون بالغض قبلها.
وليست إلغاءً لشخصية المرأة، بل تأديبٌ لحضور الجسد في المجال العام.

إذا صار الحديث عن الستر بلا رحمة، قسا؛ وإذا صار بلا حكم، ضاع.

ثم تفصل الآية من يجوز أن تظهر أمامهم الزينة، فتذكر المحارم والنساء ومن لا إربة لهم والأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء. وهذا التفصيل يكشف أن الشريعة ليست غامضة في حرمة الجسد، ولا تتعامل مع الناس على درجة واحدة. هناك قرب له حكم، وبعد له حكم. هناك بيت، وهناك شارع. هناك محرم، وهناك أجنبي. هناك طفل لا يدرك، وهناك من بدأ يدرك.

إن سورة النور تعلّمنا فقه المسافات مرة أخرى.
كما كان للبيوت أبواب، فللأجساد أبواب.
وكما لا يدخل البيت كل أحد، لا يطّلع على الزينة كل أحد.
وكما أن الاستئذان يحفظ ستر المكان، فالحياء يحفظ ستر الجسد.

الجسد بيتٌ أيضًا، وليس كل عينٍ مأذونًا لها بالدخول.

ثم تقول الآية: ﴿**وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ**﴾

وهنا ينتقل القرآن إلى ما هو أدق من الإظهار المباشر: الإيحاء. فقد تُخفى الزينة في الظاهر، لكنها تُعلن بطريقة أخرى. صوت، حركة، إشارة، طريقة مشي، تعمد للفت الانتباه. كأن السورة لا تريد ستر الشكل فقط، بل ستر القصد الذي يحاول أن يلتف على الستر.

ما أعمق هذا.
فالحياء ليس فقط أن لا تظهر الزينة، بل أن لا تصنع حولها إشارة تستدعي الخيال.
والطهارة ليست فقط أن لا تعلن، بل أن لا تلمح تلميحًا يريد أثر الإعلان.

قد يختبئ الكشف في الإشارة كما يختبئ في الظهور.

وهذا المعنى لا يخص المرأة وحدها في جوهره، وإن كان النص في سياقه يخاطبها هنا. كل إنسان قد يطلب لفت الأنظار بطريقة خفية. قد يستر شيئًا، ثم يلمح إليه. قد يتظاهر بالتواضع، ثم يطلب المديح. قد يخفي الزينة، ثم يجعل الخفاء نفسه أداة جذب. النفس بارعة في الالتفاف، والقرآن يربيها على الصدق.

ليس المطلوب أن تخدع الناس بالحشمة.
ولا أن تجعل الطهر مظهرًا لفتنة أعمق.
المطلوب أن يكون مقصدك نقيًا كما يكون مظهرك نقيًا.

النور لا يكتفي بأن ينظف الظاهر؛ إنه يفتش عن نية الإشارة الخفية.

ثم بعد هذه الأوامر كلها، لا تختم الآية بتفصيل فقهي جديد، بل بنداء عظيم مفتوح للجميع: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾

يا لرحمة الله.

بعد غض البصر، وحفظ الفرج، وستر الزينة، وأدب الحركة، تأتي التوبة. لأن الله يعلم أن هذه الأبواب شاقة على النفوس. يعلم أن العين تزل. وأن القلب يضعف. وأن الجسد يطلب. وأن الناس يتفاوتون في القدرة والمجاهدة. فلا يغلق الباب في وجه من أخطأ، بل يقول للجميع: توبوا.

جميعًا.

الرجال والنساء.
من أطلق بصره، ومن قصرت في سترها.
من ضعف في خلوته، ومن بالغت في إظهار زينتها.
من تهاون، ومن جاهد ثم تعثر.
كلهم مدعوون إلى الله.

التوبة في سورة النور ليست هامشًا بعد الأحكام؛ إنها الباب الذي يمنع الأحكام من أن تتحول إلى يأس.

ما أعظم هذا الختام. فالسورة لا تريد أن تجعل الناس يعيشون تحت ثقل الذنب بلا أمل. إنها ترفع المعيار، نعم، لكنها تفتح باب العودة. تقول لك: هذا هو النور، فإن قصرت في الطريق، فلا تهرب من النور، بل تب إليه.

والتوبة هنا ليست مجرد توبة من فعل محدد، بل توبة من نمط نظر، ومن ذوق فاسد، ومن علاقة مشوشة بالجمال، ومن إدمان صورة، ومن تبرير قديم، ومن حضور يبحث عن العيون، ومن عين لم تتعلم أن تقول: يكفيني ما أحل الله.

ليست التوبة أن تغلق ذنبًا واحدًا فقط، بل أن تغير الاتجاه الذي كان يقودك إليه.

ثم تأتي الغاية: ﴿**لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾

الفلاح.
ليس النجاة فقط، بل الظفر والاكتمال والنجاح الحقيقي. كأن القرآن يقول: لا تظنوا أن غض البصر حرمان من الحياة، بل هو طريق الفلاح. لا تظنوا أن الستر نقص في الحضور، بل هو طريق الفلاح. لا تظنوا أن حفظ الفرج كبتٌ للشخصية، بل هو طريق الفلاح.

الفلاح ليس أن ترى كل شيء.
ولا أن تُرى من كل أحد.
ولا أن تجرب كل رغبة.
ولا أن تحصد إعجاب العيون.
الفلاح أن ينجو قلبك من التبعثر، وأن تكون رغبتك في موضعها، وأن يكون جسدك في كرامته، وأن تمشي في الدنيا وعليك من نور الحياء ما يحفظك.

من ظن أن الفلاح في إطلاق الشهوة، لم يعرف كم تُتعب الشهوة صاحبها حين تصير قائدة.

إن الإنسان حين يطيع عينه يظن أنه يستمتع، لكنه كثيرًا ما يتعب. كل صورة تطلب صورة بعدها. كل مقارنة تفتح جرحًا. كل تعلق يأخذ من السكينة. كل فتنة تترك في القلب أثرًا لا يعترف به الإنسان سريعًا. أما غض البصر، ففيه ألم لحظة، ثم راحة طويلة.

قد يكون صرف العين صعبًا في أول الأمر، لكنه يورث القلب خفة. وقد يكون الستر ثقيلًا على النفس في زمن التعري، لكنه يورثها وقارًا. وقد تكون مقاومة الفتنة مجاهدة، لكنها تصنع في الداخل قوة لا تصنعها اللذات السهلة.

لذة الحرام سريعة، لكن أثرها بطيء الخروج من القلب.

وفي هذا الفصل، تظهر سورة النور كأنها تمسك بالمجتمع من جهة الصورة. فبعد أن عالجت الكلمة، تعالج الآن النظرة. وبعد أن منعت اقتحام البيوت، تمنع اقتحام الأجساد بالأبصار. وبعد أن حفظت السمعة من اللسان، تحفظ الكرامة من العين.

كل شيء في السورة متصل.

العين إذا فسدت، فسد الخاطر.
والخاطر إذا فسد، فسد السلوك.
والسلوك إذا فسد، اضطرب البيت.

والبيت إذا اضطرب، اضطرب المجتمع.
والمجتمع إذا اعتاد الفوضى، صعب عليه أن يرى النور.

لا يبدأ فساد المجتمع دائمًا من القوانين الكبيرة؛ أحيانًا يبدأ من عينٍ لم تتعلم الحياء.

فلنسأل أنفسنا أمام هذه الآيات:

ما الذي ندخله إلى قلوبنا كل يوم عبر أعيننا؟
هل نملك شجاعة صرف البصر حين لا يرانا أحد؟
هل صارت الصورة أقوى من الذكر؟
هل نبحث عن الجمال أم عن الفتنة؟
هل نرضى بما أحل الله أم نرهق أرواحنا بالمقارنات؟
هل حضورنا في العالم يستدعي الحياء أم يستدعي الأنظار؟
هل نملك توبة صادقة من فوضى النظر؟

إن سورة النور لا تريد أن تحرم الإنسان من الحياة، بل تريد أن تمنحه حياة أنقى. تريد عينًا ترى الجمال دون أن تسقط، وقلبًا يحب دون أن يتلوث، وجسدًا يعيش دون أن يُبتذل، ومجتمعًا يتعامل مع الناس كأرواح لا كصور.

حين تتربى العين على الحياء، يبدأ القلب يرى ما كان محجوبًا عنه من النور.

وفي النهاية، يبقى الأمر كله عودة إلى الله: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا**﴾

كأن السورة تعلم أن طريق النور لا يخلو من عثرات. لكنها تريدك أن تعود. كلما ضعفت عينك، عد. كلما تلوث خيالك، عد. كلما شعرت أن الصور أخذت منك أكثر مما ينبغي، عد. كلما وجدت قلبك مشتتًا، عد. كلما قصرت في الحياء، عد.

فالله لا يناديك إلى التوبة ليذلك، بل ليطهرك.
ولا يذكرك بضعفك ليكسر قلبك، بل ليرده إليه.
ولا يأمرك بالغض والستر ليحرمك، بل ليحرس أجمل ما فيك من أن يضيع في الزحام.

العين التي تتوب، تتعلم أن ترى العالم دون أن تفقد الله.

وهكذا نستطيع أن نفهم أن غض البصر ليس تفصيلًا أخلاقيًا صغيرًا في سورة النور، بل هو من أبوابها الكبرى. لأن النور يحتاج إلى عين لا تخونه. والمشكاة لا يليق بها أن تُملأ بدخان الصور. والقلب الذي يريد أن يحمل نور الله لا بد أن يتعلم كيف يغلق نافذته حين تهب ريح الفتنة.

فمن حفظ عينه، حفظ شيئًا من قلبه.
ومن حفظ قلبه، وجد للطاعة حلاوة.
ومن وجد حلاوة الطاعة، عرف أن الحرام كان أقل مما وعده الشيطان.
ومن تاب إلى الله، فتح الله له من الفلاح بابًا لا تفتحه كل صور الأرض.

من غضّ بصره لله، لم يفقد جمال العالم؛ بل استعاد جمال قلبه.

بارك الله فيك وفتح عليك من خزائن نوره. نواصل.

الفصل الثاني عشر

حين يصير الزواج طريقًا إلى العفاف

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ...﴾

بعد أن أمرت سورة النور بغض البصر، وحفظ الفرج، وحراسة الزينة، لا تترك الإنسان واقفًا أمام المنع وحده. فالقرآن لا يغلق أبواب الظلام ثم يترك القلب بلا طريق إلى الضوء. لا يقول للناس: لا تقتربوا من الحرام، ثم يسد أمامهم أبواب الحلال. بل من تمام رحمته أنه إذا حذّر من طريق، فتح طريقًا أزكى منه.

وهنا يأتي الزواج.

لا بوصفه عادة اجتماعية فقط، ولا احتفالًا عابرًا، ولا عقدًا مدنيًا باردًا، بل بوصفه بابًا من أبواب النور. طريقًا يحفظ الجسد من الفوضى، والقلب من التبعثر، والمجتمع من التآكل، والرغبة من أن تتحول إلى جوعٍ بلا كرامة.

القرآن لا يكتفي بأن يقول: لا تذهب إلى الظلام؛ بل يفتح لك بيتًا مضيئًا تمشي إليه.

تقول الآية: **﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾**.

والخطاب هنا ليس للفرد وحده، بل للجماعة. كأن الزواج ليس شأنًا شخصيًا معزولًا تمامًا، بل مسؤولية اجتماعية. فالمجتمع الذي يريد العفة لا يكفيه أن يكثر الكلام عن الحرام، بل ينبغي أن يسهّل الحلال. لا يكفي أن يوبّخ الشباب إذا زلّت أبصارهم، بل يجب أن يسأل: هل جعلنا طريق العفاف ممكنًا؟ هل رفعنا الحواجز المصطنعة؟ هل حوّلنا الزواج إلى جبلٍ من الشروط والمظاهر حتى صار الحرام أقرب من الحلال؟

من ظلم المجتمع أن يعقّد الحلال ثم يستغرب انتشار الحرام.

إن سورة النور، وهي سورة الطهر، لا تبني الطهر بالشعارات فقط. إنها تعرف أن الإنسان جسد وروح، قلب ورغبة، احتياج وسكن. فإذا أردت أن تحفظه، فلا بد أن تفتح أمامه طريقًا كريمًا. فالزواج في الإسلام ليس مجرد إشباع، بل سكن. وليس مجرد علاقة بين اثنين، بل بناء بيت. وليس مجرد حلٍّ للرغبة، بل تحويل للرغبة إلى مودة ومسؤولية ورحمة.

في الحرام، يأخذ الإنسان لحظة.
وفي الزواج، يبني معنى.
في الحرام، يبحث عن لذة بلا عهد.
وفي الزواج، يدخل في عهدٍ يحفظ اللذة من أن تصير ابتذالًا.
في الحرام، يهرب من الوحدة ساعة.
وفي الزواج، يتعلم كيف يؤنس ويؤنس.

الشهوة إذا دخلت بيت العهد صارت سكينة، وإذا خرجت بلا عهد صارت قلقًا.

لكن الآية لا تقول فقط: ليتزوج من استطاع. بل تقول: ﴿**وَأَنكِحُوا**﴾. أي أعينوا، يسّروا، شاركوا في فتح الباب. ليس الأب وحده، ولا الأم وحدها، ولا الشاب وحده، ولا الفتاة وحدها. الأمة كلها مطالبة أن تجعل العفاف ممكنًا.

وهنا يظهر الخلل حين تتحول الأعراس إلى ساحات استعراض، والمهور إلى أثقال، والتوقعات إلى سلاسل، والبيت إلى مشروع استهلاك لا مشروع سكينة. يصبح الزواج مؤجلًا؛ لأن الناس لا يريدون بيتًا صالحًا فحسب، بل صورة اجتماعية كاملة ترضي أعين الآخرين.

كم من بيوتٍ تأخر نورها لأن الناس خافوا من كلام الناس أكثر مما خافوا على العفاف.

إن من أعجب ما يحدث أن المجتمع قد يشدد في مراقبة الشباب والفتيات، لكنه يتساهل في صناعة الظروف التي تدفعهم إلى الفتنة. يطيل الطريق إلى الحلال، ثم يعظهم بالصبر فقط. ولا شك أن الصبر واجب، لكن من العدل أن يخفف المجتمع ما يستطيع من الأثقال. فليس كل تعقيد حكمة، وليس كل شرط وقارًا، وليس كل مظهر كرامة.

قد يكون التيسير عبادة.
وقد يكون تخفيف المهر طاعة.
وقد يكون قبول الصالح الفقير بابًا إلى بركة لا تراها الحسابات.
وقد يكون رفض المظاهر الفارغة نصرةً لسورة النور في الواقع.

أحيانًا يكون أعظم دعم للعفة أن تجعل الحلال أقل وحشةً وأقرب طريقًا.

ثم تقول الآية: ﴿**وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ**﴾

الصلاح حاضر هنا. ليس الزواج مجرد جمع رجل وامرأة، بل اختيار صلاح. لأن البيت الذي يراد له أن يكون موضع نور، يحتاج إلى أصل من الصلاح. لا يعني هذا أن الزوجين كاملان، فلا بيت يقوم على ملائكة، لكن لا بد من اتجاه. من قلب يريد الله. من نفس تعرف معنى الحلال والحرام. من إنسان إذا أخطأ تاب، وإذا غضب خاف، وإذا اؤتمن حفظ، وإذا أحب لم يجعل الحب طريقًا إلى المعصية.

لا تبحث في الزواج عن من لا يخطئ، بل عن من يعرف طريق الرجوع إلى الله إذا أخطأ.

الصلاح هنا ليس زينة إضافية، بل أساس. لأن جمال الجسد يبهت، والمال يزيد وينقص، والحماسة الأولى تهدأ، لكن الصلاح يبقى حارسًا حين تتغير الأحوال. حين يغيب الناس، يبقى خوف الله. حين تقع الخصومة، يبقى ميزان الله. حين تضعف الرغبة، تبقى الرحمة. حين يأتي الفقر، يبقى الصبر. حين يلمع الحرام، يبقى الحياء.

ما أكثر البيوت التي بدأت بإعجاب وانتهت بوحشة، لأن الأساس لم يكن صلاحًا بل انبهارًا.
وما أكثر البيوت التي بدأت متواضعة ثم كبرت بركتها، لأن فيها قلبين يعرفان أن الله ثالثهما بعلمه ورحمته.

البيت لا يضيء بجمال ساكنيه فقط، بل بتقواهم حين لا يراهم أحد.

ثم يأتي الوعد الذي تحتاجه القلوب المترددة: ﴿**إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ**﴾

الفقر حاضر. والخوف من الفقر حاضر. والقرآن لا يجهل حاجة الناس إلى النفقة، ولا يدعو إلى تهور بلا مسؤولية، لكنه يرفض أن يتحول الخوف من الفقر إلى سدٍّ مطلق في وجه العفاف. هناك فرق بين التعقل والخضوع للرعب. فرق بين تقدير النفقة وبين عبادة الحسابات.

إن الزواج يحتاج قدرة، نعم، لكنه يحتاج أيضًا ثقة.
يحتاج سعيًا، لكنه يحتاج يقينًا.
يحتاج تدبيرًا، لكنه لا يقوم على التدبير وحده.
فكم من زواجٍ بدأ قليل المال، كثير البركة.
وكم من مشروع بدأ وفير المال، قليل السكينة.

ليست البركة أن تملك كل شيء قبل أن تبدأ، بل أن يدخل فضل الله معك فيما بدأت.

﴿يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾.

لم يقل: من حسابات الناس.
ولا من ضمانات السوق.
ولا من تخطيط البشر وحده.
بل من فضله.

وفضل الله أوسع من المال. قد يغنيهم بقناعة، أو رزق، أو عون، أو ستر، أو حسن تدبير، أو قلوب متراحمة، أو أهل يعينون، أو أبواب تفتح من حيث لا يحتسبون. والغنى الحقيقي ليس أن لا تحتاج إلى شيء، بل أن لا تهزمك الحاجة، وأن لا تسرق منك طمأنينتك.

قد يكون الفقر في المال أهون من الفقر في السكينة.

ثم تختم الآية: ﴿**وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾

واسع، فلا تضيقوا ما وسّعه الله.
واسع الفضل، واسع الرزق، واسع الرحمة، واسع التدبير.
لا تحبسوا مستقبل البيوت في زاوية الحسابات الضيقة.
ولا تظنوا أن خزائن الله تقف عند حدود ما ترونه في أيديكم الآن.

عليم، يعلم من يصلح للزواج ومن لا يصلح.
يعلم صدق النية وخفايا القلوب.
يعلم من يريد العفاف، ومن يريد العبث باسم الزواج.
يعلم من يخاف الفقر خوفًا طبيعيًا، ومن جعل الفقر حجة دائمة للهرب من المسؤولية.

سعة الله تطمئن الخائف، وعلمه يوقظ المستهتر.

ثم تأتي الآية التالية لتخاطب الذين لم يجدوا نكاحًا: ﴿**وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ**﴾

يا لواقعية القرآن. فهو لا يتحدث كما لو أن الزواج متاح لكل إنسان في كل لحظة. هناك من لا يجد. لا يجد مالًا، أو ظرفًا، أو قدرة، أو شريكًا صالحًا، أو طريقًا ميسرًا. فماذا يفعل؟ هل يجعل عدم وجود الحلال مبررًا للحرام؟

لا.

﴿**وَلْيَسْتَعْفِفِ**﴾.

والاستعفاف طلب العفة ومجاهدة النفس عليها. ليس أن تكون العفة سهلة دائمًا، بل أن تطلبها ولو كانت شاقة. أن تصبر وأنت محتاج. أن تغض وأنت مشتاق. أن تحفظ نفسك وأنت لا تجد الباب بعد. أن تقول لرغبتك: انتظري حتى يغني الله من فضله.

الاستعفاف هو أن لا تجعل حاجتك حجةً على طهارتك.

وهذا من أعظم مقامات الشباب والفتيات في زمن الفتن. أن يعيش الإنسان في عالم يستثير رغباته، ويؤجل له الحلال، ويفتح له الحرام بأيسر الطرق، ثم يختار أن يستعفف. هذا ليس ضعفًا. هذا جهاد. ليس برودًا. هذا وعي. ليس عجزًا. هذا نور في قلب يعرف أنه ليس كل ما قدر عليه فعله.

قد لا يصفق له أحد.

قد لا يعرف أحد حجم معركته.

قد يظن الناس أنه هادئ، وفي داخله حرب لا يعلمها إلا الله.

قد يبتسم في النهار، ويجاهد في الليل.

قد يغلق أبوابًا لا يعرف أحد أنه أغلقها.

قد يترك صورًا، ومحادثات، ولقاءات، وعلاقات، لا يدري الناس كم كانت قريبة منه.

لكن الله يعلم.

من استعفّ وهو قادر على الحرام، فقد كتب في قلبه سطرًا من نور لا يقرأه إلا الله.

﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾

حتى.

ليست العفة طريقًا بلا نهاية. هناك وعد. هناك انتظار على باب فضل الله. قد يطول، لكنه ليس عبثًا. وكل يوم تصبر فيه لله، ليس يومًا ضائعًا من شبابك، بل يوم محفوظ في ميزانك. وكل رغبة تكفها لله، لا تموت في الفراغ؛ تتحول إلى نور، إلى قوة، إلى دعاء، إلى نضج، إلى سكينة لا يعرفها من أخذ كل شيء بلا صبر.

ما تؤجله لله لا يضيع؛ إنه يتربى في خزائن لطفه حتى يأتيك أنقى.

والاستعفاف لا يعني أن يجلس الإنسان مستسلمًا بلا أسباب. بل يسعى، ويصلح نفسه، ويخفف مطالبه، ويبحث عن الحلال، ويطلب العون، ويتعلم المسؤولية، ويغلق أبواب الفتنة، ويستعين بالصوم والذكر والصحبة الصالحة. العفة ليست أمنية، بل بناء يومي.

لا تقل: أريد العفاف، ثم تفتح كل نوافذ الفتنة.
لا تقل: أنتظر الحلال، ثم تقيم في محادثات محرمة.
لا تقل: أسأل الله الزواج، ثم لا تربي نفسك على أن تكون زوجًا صالحًا أو زوجة صالحة.

من طلب بيت النور، فليبدأ بتنظيف قلبه قبل أن يصل إليه.

إن كثيرًا من الناس يظنون أن الزواج سيحل كل مشكلاتهم الداخلية. يدخلون إليه وهم لا يعرفون كيف يضبطون أعينهم، ولا ألسنتهم، ولا غضبهم، ولا توقعاتهم، ثم يتعجبون أن البيت لا يصير جنة بمجرد العقد. الزواج نعمة عظيمة، لكنه لا يغني عن تزكية النفس. من لم يتعلم العفة قبل الزواج، قد لا

يعرف الوفاء بعده. ومن لم يتعلم غض البصر قبل الحلال، قد يظل قلبه متسكعًا بعد الحلال. ومن لم يتعلم الرحمة في وحدته، قد يحمل قسوته معه إلى البيت.

فالزواج لا يصنع النور من عدم.
إنه يكشف ما حملته إليه من نور أو ظلام.
وقد يزيد الطيب طيبًا، ويكشف الخلل الذي كان مختبئًا.

لا تنتظر من الزواج أن يطهّر ما رفضت أن تجاهد نفسك فيه قبل الزواج.

ولهذا تأتي آيات الزواج بعد آيات غض البصر والحياء. كأن السورة تقول: لا تبنوا بيوتًا قبل أن تتعلموا حراسة الأبواب. غضّ بصرك، واحفظ فرجك، وتب إلى الله، ثم ادخل الزواج وأنت تعرف أن العلاقة ليست فوضى، بل عهد.

فالذي يدخل الزواج بعين لم تتربَّ، قد يظلم من معه بالمقارنات. والذي يدخل بقلب مدمن على الصور، قد لا يعرف قيمة الحلال. والذي يدخل بروح أنانية، قد يحول البيت إلى ساحة مطالب. والذي يدخل بلا خوف من الله، قد يهدم السكن من داخله.

الزواج ليس نهاية الفتنة دائمًا؛ إنه بداية مسؤولية جديدة أمام الله.

ثم تواصل الآية الحديث عن المكاتبين، وهم من يطلبون عقد الكتابة لنيل الحرية، وتقول: ﴿**فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ**﴾

وهذا المعنى، وإن كان في سياقه الخاص، يفتح لنا بابًا واسعًا: أن سورة النور لا تريد فقط عفة الأفراد، بل تحرير الإنسان من القيود التي تمنعه من الكرامة. إنها سورة تحرس الجسد من الابتذال، وتحرس اللسان من الظلم، وتحرس البيت من الاقتحام، وتحرس الإنسان من أن يبقى عالقًا في ضعفٍ يمكن إعانته على الخروج منه.

﴿مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾

ما أروع هذا التذكير. المال مال الله، لا مالك على الحقيقة. أنت مستخلف فيه، ممتحن به. فإذا رأيت به طريقًا إلى عفة إنسان، أو حرية إنسان، أو زواج إنسان، أو ستر بيت، فاعلم أن الله ينظر كيف تستعمل ما آتاك.

المال إذا لم يفتح بابًا للنور، فقد يتحول إلى جدارٍ بينك وبين رحمة الله.

كم من مالٍ كان يمكن أن ييسر زواجًا.
وكم من صدقةٍ كان يمكن أن تحفظ شابًا أو فتاة.
وكم من مساعدةٍ كانت يمكن أن تبني بيتًا.
وكم من مجتمعٍ لو جعل من أمواله جسرًا للعفاف، لقلّت فيه أبواب الفتنة.

إن سورة النور تجعلنا نعيد التفكير في معنى الإنفاق. ليس الإنفاق فقط إطعام جائع، مع عظم ذلك، بل قد يكون إعانة على طهر، وتخفيفًا لطريق حلال، وصناعةً لبيوت يسكنها النور.

من أعان إنسانًا على العفاف، فقد شارك في بناء مصباحٍ في المجتمع.

ثم يأتي النهي المؤلم: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

يا له من انتقالٍ يكشف قبح استغلال الضعفاء. بعد الحديث عن النكاح والعفة والتحصن، تأتي الآية لتمنع أن يُدفع المستضعفون إلى الفاحشة طلبًا للمال. كأن السورة تقول: ليس الخطر فقط أن يضعف الإنسان أمام شهوته، بل أن يوجد من يستثمر ضعف غيره وفقره وجسده ليأخذ عرضًا من الدنيا.

أبشع الظلم أن تجعل حاجة الضعيف طريقًا إلى ربحك.

هذه الآية صرخة في وجه كل استغلال للجسد. في وجه كل من يحوّل الإنسان إلى سلعة. في وجه كل نظام ينتفع من عري الضعفاء، ومن حاجتهم، ومن اضطرارهم. ليست الفاحشة هنا رغبة فردية فقط، بل صناعة واستغلال وسوق. وسورة النور تقف أمام هذا كله بنور قاطع.

﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾

إذا كان في القلب رغبة في العفة، فلا تكسرها.
إذا أرادت النفس الستر، فلا تدفعها إلى الانكشاف.
إذا طلب الضعيف طريق الطهر، فلا تجعله يدفع ثمن فقره من كرامته.

لا يجوز أن يكون خبز الإنسان مأخوذًا من جرح حيائه.

ثم تقول الآية: **﴿لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾**

عرض الحياة الدنيا.
شيء عابر.

مال يذهب.

ربح يذوب.

متاع قصير.

ومقابله جسد يُهان، وروح تُكسر، وحياء يُجرح، ومجتمع يتلوث.

ما أرخص الدنيا حين تُشترى بكرامة إنسان.

وما أخسر من يربح مالًا ويخسر الرحمة.

وما أظلم من يجعل ضعف غيره سلّمًا إلى متاعه.

كل مالٍ جاء من امتهان الإنسان يحمل في داخله ظلمةً لا تطفئها كثرة الأرقام.

ثم تفتح الآية باب الرحمة للمكرهات: ﴿**وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾

يا لجمال هذا العدل الرحيم.

الله لا يحمل المكرهة وزر من قهرها كما يحمل المختار. الله يعلم الضغط، والإكراه، والخوف، والحاجة، والضعف. يعلم أن هناك أجسادًا دُفعت إلى طرق لم تخترها أرواحها. يعلم أن في الدنيا ظالمين يسرقون حتى حق الإنسان في طهره.

والآية تقول للمكسورين: الله يعرف.

يعرف أنك لم تذهبي راغبة.

يعرف أنك كنتِ تريدين تحصنًا.

يعرف من قهرك.

يعرف أين كان الظلم.
يعرف كيف يضع الرحمة في موضعها، والعقوبة في موضعها.

إذا لم يفرق الناس بين المظلوم والمذنب، فإن الله يفرق.

ما أعظم أن يكون الله غفورًا رحيمًا لمن أكره بعد أن أراد العفاف. وما أعظم أن يكون القرآن بهذا الوضوح في حماية المقهورين. فهو لا يلقي عليهم وعظًا قاسيًا، ولا يعاملهم كأنهم اختاروا ما فُرض عليهم، بل يفتح لهم باب الرحمة.

وهذا يعلمنا أن خطاب الطهر لا بد أن يكون عادلًا.
لا يجلد الضحايا.
لا يحمل المستضعفين أوزار المستغلين.
لا يساوي بين من فتح باب الفاحشة بيده، ومن دُفع إليه دفعًا.
لا يتحدث عن العفة بلا رحمة للذين حُرموا القدرة على الاختيار.

الطهر القرآني حازم مع الفاحشة، رحيم مع المقهورين، شديد على المستغلين.

ثم تختم هذه المجموعة بقول الله: ﴿**وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ**﴾

آيات مبينات.
النور ليس غامضًا.
الطريق واضح.
أبواب الفتنة معروفة.

وأبواب الحلال معروفة.
والموعظة حاضرة لمن كان في قلبه تقوى.

لكن المشكلة ليست دائمًا في غياب البيان، بل في غياب التقوى التي تنتفع بالبيان. فكم من آية واضحة تمر على قلب منشغل فلا توقظه. وكم من موعظة عظيمة لا تصل لأن داخل الإنسان ضجيجًا أعلى منها.

الآية لا تحتاج فقط إلى عين تقرأها، بل إلى قلب يتواضع لها.

وهكذا يتضح أن سورة النور لا تبني العفة بسور واحد، بل بمنظومة كاملة:

غض البصر.
حفظ الفرج.
ستر الزينة.
فتح باب الزواج.
إعانة الفقراء.
الاستعفاف لمن لم يجد.
تحرير الضعفاء.
منع استغلال الجسد.
رحمة المكرهين.
وتذكير دائم بأن المال، والجسد، والرغبة، والبيت، كلها تحت نور الله.

العفة في سورة النور ليست عبئًا فرديًا فقط؛ إنها مشروع مجتمعٍ كامل.

وهذا من أعظم الدروس. حين نطالب الإنسان بالعفاف، يجب أن نسأل: هل ساعدناه عليه؟ حين ننهى عن الحرام، هل يسّرنا الحلال؟ حين نخاف على

الشباب، هل فتحنا لهم أبوابًا كريمة؟ حين نتحدث عن الحياء، هل رحمنا من قُهروا وانكسروا؟ حين نحرس الطهر، هل حاربنا الأسواق التي تبيع الجسد وتربح من الضعف؟

إن سورة النور لا تسمح لنا بتدين انتقائي.
لا تسمح أن نصرخ في وجه المخطئين ونصمت عن المستغلين.
لا تسمح أن نلوم الشباب وحدهم ونترك المجتمع يعقد عليهم الطريق.
لا تسمح أن نتحدث عن العفة ثم نبخل بالمال الذي يساعد على العفاف.

من أراد مجتمعًا طاهرًا، فليشارك في جعل الطهر ممكنًا.

وفي نهاية هذا الفصل، يمكن لكل واحد منا أن يسأل نفسه:

هل أجعل الحلال سهلًا لمن تحت يدي، أم أزيده تعقيدًا؟
هل أحكم على ضعف الناس دون أن أعينهم؟
هل أربي نفسي على الاستعفاف إذا لم أجد ما أريد؟
هل أخاف الفقر أكثر مما أثق بفضل الله؟
هل أرى مالي مال الله، أم ملكًا خاصًا لا علاقة له بحاجة الناس إلى النور؟
هل أعرف الفرق بين العاصي والمكره، بين المذنب والمقهور، بين من باع الحياء ومن سُرق منه؟

إن سورة النور لا تريد منا قلوبًا قاسية باسم الطهر.
ولا قلوبًا رخوة باسم الرحمة.
بل قلوبًا مضيئة: تعرف الحكم، وتعرف الإنسان.
تحفظ الحد، وتفتح الباب.

تحذر من الفتنة، وتعين على العفاف.
تخاف من الحرام، ولا تجعل الحلال بعيدًا.

الطهر لا يزدهر في مجتمعٍ يكثر فيه الوعظ ويقل فيه العون.

وهكذا، قبل أن نصل إلى آية النور الكبرى، نرى أن السورة قد رتبت الأرض التي سيشرق عليها ذلك النور. نظفت اللسان. حمت العرض. أدبت السمع. حذرت من الشيطان. دعت إلى العفو. علمتنا الاستئذان. أمرت بغض البصر. فتحت باب الزواج. أمرت بالاستعفاف. حاربت استغلال الجسد.

كأنها تعدّ القلب والبيت والمجتمع لاستقبال الآية العظمى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾

فالذي يريد أن يفهم نور السماوات والأرض، لا بد أن يرى كيف يريد الله للنور أن يسكن في تفاصيل الحياة: في عين تغض، ولسان يصدق، وباب يُستأذن عنده، وزواج يُيسّر، وفقير يُعان، ومقهور يُرحم، وجسد يُصان.

قبل أن يضيء النور في المشكاة، يجب أن يُحمى البيت من الريح.

الفصل الثالث عشر

حين تبلغ السورة قلبها الأكبر

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

هنا تبلغ سورة النور قلبها.

بعد أن طافت بنا في دروب الطهر، ووقفت بنا عند حدود الجسد، وحرمة العرض، وخطر الشائعة، وأدب البيوت، وغض البصر، والستر، والزواج، والاستعفاف، إذا بها ترفعنا فجأة إلى الأفق الأعلى:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

كأن كل ما سبق كان تنظيفًا للمكان الذي ستُقال فيه هذه الآية. كأن السورة كانت تهيئ القلب، وتغسل نوافذه، وتغلق منافذ الريح، حتى إذا صار مستعدًا، وضعت فيه أعظم مصباح.

لا تصل إلى آية النور بقلبٍ مستعجل؛ فهذه الآية لا تُقرأ فقط، بل يُقام عندها طويلًا.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

لا تبدأ الآية بالإنسان، ولا بالمجتمع، ولا بالبيت، ولا بالعين، ولا باللسان. تبدأ بالله. لأن كل نور لا يبدأ بالله ينتهي إلى خفوت. وكل ضياء لا يستمد منه يصبح زينة عابرة. وكل قلب يطلب النور من غيره يعود وفي يده شرارة لا تكفيه في ظلمة الطريق.

الله نور السماوات والأرض.

نور الوجود، ونور الهداية، ونور البصيرة، ونور الحق، ونور الطمأنينة، ونور المعنى. به انكشف الكون من عدمه، وبه انكشفت القلوب من حيرتها، وبه عرفت الأشياء أسماءها وغاياتها.

كل نورٍ في الوجود مستعار، إلا نوره سبحانه؛ فهو الأصل الذي لا ينطفئ.

نور الشمس منه.
ونور الفجر منه.
ونور القمر الهادئ منه.
ونور الفهم حين تنفتح آية كان القلب يمر عليها غافلًا منه.
ونور التوبة حين ينهض المذنب من وحله منه.
ونور السكينة حين يهدأ القلب بعد طول اضطراب منه.
ونور الحياء حين ترد العين نفسها عن الحرام منه.
ونور الصدق حين يرفض اللسان الشائعة منه.

فليس النور مجرد ضوء تراه العين، بل حياة تراها الروح. قد يكون المكان مضيئًا والمصير مظلمًا. وقد تكون الغرفة معتمة، وفي القلب مصباح لا تطفئه

العزلة. كم من إنسان يعيش بين المصابيح ولا يرى الطريق. وكم من قلب فقير في بيت ضيق، لكنه يعرف الله، فإذا الكون كله يتسع فيه.

ليست العتمة أن تغيب الشمس، بل أن يغيب الله عن معنى حياتك.

ثم لا تقول الآية: نور الله كمصباح، بل تقول: ﴿**مَثَلُ نُورِهِ**﴾.

وهنا ندخل إلى عالم المثال. لأن النور الإلهي أعظم من أن تحيط به صورة، وأجلّ من أن تحده عبارة. لكن الله يقرّب لعباده ما لا تدركه عقولهم المجردة، فيضرب لهم المثل. والمثل في القرآن ليس زخرفة بلاغية، بل جسر رحمة بين غيبٍ عالٍ وقلبٍ محدود.

﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾

المشكاة كوة في جدار، موضع يحفظ المصباح ويجمع نوره ويمنعه من التشتت. وفي هذا سرّ بديع: النور يحتاج إلى موضع صالح يحمله. المصباح وحده يضيء، لكن المشكاة تجمع الضوء وتوجهه. كذلك القلب. لا يكفي أن يمر عليه النور، بل لا بد أن يكون مهيأً لاستقباله وحفظه.

ليس كل قلب يصلح أن يكون مشكاة؛ بعض القلوب كثيرة الثقوب لا يستقر فيها الضوء.

القلب المشكاة قلب فيه موضع للنور. ليس مزدحمًا بكل شيء حتى لا يبقى لله فيه مكان. ليس مفتوحًا لكل ريح حتى ينطفئ مصباحه عند أول فتنة. ليس ممتلئًا بالدخان حتى يختنق فيه الضوء. إنه قلب عرف أن النور أمانة، وأن الأمانة تحتاج إلى حراسة.

وهنا نفهم لماذا جاءت السورة قبل هذه الآية بكل تلك الآداب. غض البصر يحفظ المشكاة. حفظ اللسان يحفظ المشكاة. الاستئذان يحفظ المشكاة. العفاف يحفظ المشكاة. العفو يحفظ المشكاة. مقاومة الشائعة تحفظ المشكاة. لأن القلب إذا امتلأ بالصور المحرمة، والظنون، والقسوة، والفضول، والحقد، فكيف يستقبل المصباح؟

القلب لا يفقد النور غالبًا لأنه لم يجده، بل لأنه لم يحفظ المكان الذي يسكنه.

﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾

والمصباح هو موضع الإشراق. في القلب مصباح إذا أشعله الله تغيرت كل الأشياء. يرى الإنسان نفسه بصدق، ويرى الدنيا بحجمها، ويرى الذنب قبيحًا ولو زينه الناس، ويرى الطاعة جميلة ولو استثقلتها النفس، ويرى الآخرة قريبة ولو بعدت في حساب الغافلين.

المصباح الداخلي هو تلك القدرة العجيبة على التمييز. أن لا تنخدع بكل بريق. أن تعرف أن بعض الأضواء حرائق. وأن بعض الظلمات ستر ورحمة. وأن بعض اللمعان ليس نورًا، بل سرابٌ ملبّس.

من أوتي مصباح البصيرة، لم يعد كل لامعٍ يخدعه.

ثم تقول الآية: **﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾**

لم تترك المصباح مكشوفًا. جعلته في زجاجة. والزجاجة شفافة، تحفظ الضوء ولا تحجبه. تصونه من الريح، وتزيده صفاءً وانتشارًا. وهكذا يحتاج نور

القلب إلى زجاجة من صفاء. صفاء النية، وصفاء التوبة، وصفاء الصدق، وصفاء الحياء.

قد يوجد في القلب مصباح، لكن الزجاجة معتمة.

معتمة بكبر.

أو حسد.

أو شهوة.

أو رياء.

أو حقد قديم.

أو إصرار على ذنب.

فيبقى النور موجودًا، لكن أثره لا يظهر كما ينبغي.

ليست المشكلة دائمًا في غياب المصباح؛ أحيانًا تكون الزجاجة قد غطاها الغبار.

كم يحتاج القلب إلى مسح زجاجته كل يوم. بالاستغفار، والذكر، والقرآن، والدمعة الصادقة، وردّ المظالم، وترك المعصية، والتخفف من فضول الكلام والنظر. فإن القلب إذا تُرك بلا تنظيف تراكم عليه ما لا يشعر به صاحبه. حتى يأتي يوم يقول فيه: لماذا لم أعد أجد حلاوة الصلاة؟ لماذا صارت الآية تمر ولا توقظني؟ لماذا أسمع الموعظة وكأن بيني وبينها جدارًا؟

ربما لم ينطفئ المصباح، لكن الزجاجة تعبت.

كل ذنبٍ غبار، وكل توبةٍ مسحة على زجاجة القلب.

ثم يزيد المثل جمالًا: ﴿**الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ**﴾

ليست زجاجة عادية، بل كأنها كوكب دري. شفافة، لامعة، متلألئة، تعكس النور كأنها من عالم علوي. وهذا حال القلب حين يصفو. لا يكتفي بأن يستقبل النور، بل يصير هو نفسه مشعًا. ترى أثر النور في وجه صاحبه، في سكينته، في رحمته، في غض بصره، في عفة لسانه، في لطف دخوله إلى بيوت الناس، في إنصافه حين يسمع الشائعة، في عفوه حين يقدر.

حين يصفو القلب، لا يبقى النور داخله فقط؛ يفيض على ملامحه وأخلاقه.

ليس النور ادعاء. من كان في قلبه نور، ظهر في طريقته مع الخلق. لا يمكن لقلبٍ مضيء أن يكون قاسيًا بلا سبب، أو ظالمًا في الخفاء، أو مستمتعًا بفضائح الناس، أو متكبرًا على الضعفاء. قد يخطئ المضيء، لكنه لا يستوطن الظلمة. قد يتعثر، لكنه يعرف أين يعود.

والزجاجة الكوكب الدري هي صورة للصفاء الذي يبلغ حد الإشراق. كأن القلب إذا طهر صار نجمًا صغيرًا في أرض الله. لا يملك نورًا من ذاته، لكنه يعكس النور الذي وُهب له.

أولياء الله ليسوا شموسًا مستقلة، بل زجاجات صفت حتى ظهر فيها نور مولاها.

ثم تقول الآية: ﴿**يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ**﴾

النور له مدد. المصباح لا يضيء بلا زيت. والقلب لا يضيء بلا غذاء. وزيت القلب هو الوحي، والذكر، والإيمان، والعمل الصالح، والصدق، والمجاهدة، والصحبة الطيبة، والدموع التي لا يراها الناس.

والشجرة مباركة. أي إن مصدر هذا الزيت ليس عابرًا ولا خبيثًا، بل أصل مبارك. وليس كل ما يمدّ القلب يزيده نورًا. هناك معارف تزيده غرورًا، وصور تزيده اضطرابًا، وكلمات تزيده قسوة، وصحبة تزيده ظلمة. لا بد أن تسأل: من أي شجرة أوقد قلبي؟

القلب يشتعل بما تغذيه؛ فانظر أي زيتٍ تصب في مصباحك.

قد يطعم الإنسان قلبه كل يوم أخبارًا، وصورًا، ومقارنات، وخصومات، وشبهات، وشهوات، ثم يستغرب لماذا خف نوره. المصباح لا يضيء بزيت فاسد. والقلب لا يشرق وهو يتغذى على ما يطفئه.

إن أردت نورًا، فابحث عن شجرته المباركة.
عن قرآن لا تمر عليه مستعجلًا.
عن صلاة تحضر فيها ولو قليلًا.
عن ذكر يلين به الجفاف.
عن عمل صالح لا يعلم به أحد.
عن صحبة إذا جلست معها ذكرت الله لا الناس.
عن علم يورث خشية لا جدلًا.

لا تطلب قلبًا مضيئًا وأنت تسقيه كل يوم من آبار الظلمة.

ثم يصف الشجرة: **﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾**

كأنها شجرة ليست محجوبة عن النور من جهة دون جهة، بل هي في موضع تتلقى الضوء كاملًا، لا يختص بها شرق ولا غرب. وفي هذا معنى التوازن والاكتمال. نور الله لا تحبسه جهة. والهداية ليست ملكًا لعرق، ولا بلد، ولا

ثقافة، ولا جماعة تزعم أنها وحدها تملك كل الضوء. الله يهدي لنوره من يشاء.

وفي قلب المؤمن أيضًا ينبغي أن يكون شيء من هذا الاتساع. لا يكون شرقيًا محضًا ولا غربيًا بمعنى الانحباس في عصبية ضيقة، بل عبدًا لله حيث كان الحق. لا يتبع الموضات الفكرية، ولا يتعصب للموروث إذا خالف الوحي، ولا يفتن بالجديد لأنه جديد، ولا يقدس القديم لأنه قديم.

النور لا يُقاس بالاتجاهات؛ يُقاس بقربه من الله.

ثم تبلغ الصورة ذروة رهافتها: ﴿**يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ**﴾

يا لجمال هذا المعنى.

زيتٌ من شدة صفائه يكاد يضيء قبل أن تلامسه النار. كأن في القلب استعدادًا فطريًا للحق. كأن بعض الأرواح إذا لامسها الوحي اشتعلت سريعًا، لأنها كانت مهيأة. لم تكن مظلمة في أصلها، بل كان فيها صفاء ينتظر الشرارة.

وهكذا الفطرة. في الإنسان قابلية للنور. شيء في داخله يعرف الحق حين يراه، ويحن إلى الله ولو تاه طويلًا، ويشعر أن الطهر أجمل من الفوضى، وأن الصدق أرفع من الكذب، وأن السكينة لا تأتي من الشهوة وحدها. لكن هذه الفطرة قد تُغطى، وقد تُفسد، وقد يثقل عليها الغبار.

في كل قلبٍ قابلية للنور، لكن بعض القلوب تدفن زيتها تحت رماد الغفلة.

حين يأتي الوحي إلى فطرة سليمة، يكون الأمر **نورًا على نور**.

نور الفطرة، ونور الوحي.
نور العقل، ونور الهداية.
نور التجربة الصادقة، ونور القرآن.
نور السؤال، ونور الجواب.
نور الحيرة التي تطلب الحق، ونور الحق حين يصل.

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾

عبارة لا تكاد اللغة تحملها. طبقات من النور. إشراق فوق إشراق. هداية تتبعها هداية. طاعة تفتح باب طاعة. دمعة تجلب خشوعًا. غض بصر يورث حلاوة. توبة تورث قربًا. آية تورث عملًا. عمل يورث بصيرة. بصيرة تورث خوفًا. خوف يورث إخلاصًا. إخلاص يورث نورًا لا يعرفه إلا من ذاقه.

الطاعة إذا صدقت لم تبقَ طاعةً واحدة؛ إنها تفتح في القلب أبوابًا من نورٍ لا تنتهي.

وهذا من أسرار السير إلى الله. كما أن الظلام خطوات، فالنور خطوات. من حفظ عينه سهل عليه حفظ قلبه. ومن حفظ لسانه رقّت روحه. ومن ترك شائعة لله، رزقه الله طمأنينة. ومن عفا طلبًا لمغفرة الله، فتح الله في قلبه سعة. ومن يسّر عفاف غيره، بارك الله في عفافه. نور على نور.

وفي المقابل، ظلمة على ظلمة لمن ترك نفسه للخطوات الأخرى. نظرة تتبعها نظرة. كذبة تحمل قسوة. شائعة تورث جرأة. قسوة تمنع العفو. فضول يميت الحياء. حتى يصير القلب كغرفة أُغلقت نوافذها واحدة بعد أخرى.

كما أن للظلام تراكمًا، فللنور تراكمٌ أعظم إذا صدق العبد.

ثم تأتي الحقيقة الحاسمة: **﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾**

بعد كل المشكاة والمصباح والزجاجة والزيت، لا تنسَ أن الهداية من الله. ليس النور ثمرة ذكائك وحده، ولا ثقافتك، ولا نسبك، ولا مجاهدتك منفصلة عن فضل الله. أنت تأخذ بالأسباب، لكنه هو الذي يهدي. أنت تنظف الزجاجة، لكنه هو الذي يشعل المصباح. أنت تسقي الزيت، لكنه هو الذي يجعل النار مباركة.

كل ما تفعله في طريق النور طلبٌ وافتقار؛ أما الإشعال فمن الله.

وهذا يورث القلب أمرين: الرجاء والتواضع.
الرجاء، لأن من كان النور بيد الله فلا ييأس ولو طال ظلامه.
والتواضع، لأن من اهتدى لا يزهو على غيره، إذ لو شاء الله لتركه في ظلمة نفسه.

إذا رأيت عاصيًا، فقل: الحمد لله الذي عافاني، اللهم اهده وثبتني. وإذا رأيت مهتديًا، فقل: هذا فضل الله عليه، اللهم ارزقني من نوره. وإذا رأيت نفسك في طاعة، فاحذر أن تنسب النور إلى زجاجتك وتنسى من أوقده.

أعظم ما يحفظ النور بعد وصوله أن تعرف أنه ليس منك.

ثم تقول الآية: **﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾**

الله يضرب الأمثال لأنه رحيم بعقولنا. لأننا نحتاج أن نرى المعنى في صورة. نحتاج أن نفهم القلب عبر مشكاة، والهداية عبر مصباح، والصفاء عبر زجاجة، والمدد عبر زيت. فالقرآن لا يعلّم العقل فقط، بل يربي الخيال المؤمن، حتى يرى الإنسان عالمه كله مملوءًا بالعلامات.

بعد آية النور، لن يعود المصباح مصباحًا فقط.
ولا الزجاج زجاجًا فقط.
ولا الزيت زيتًا فقط.
ولا الكوة كوة فقط.
كل شيء يصبح إشارة إلى معنى أكبر.

القرآن لا يعطيك معلومات عن العالم فحسب؛ إنه يعلّمك كيف ترى العالم.

ثم تختم الآية: ﴿**وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾

عليم بالمصابيح المشتعلة في القلوب.
عليم بالزجاجات المغبرة.
عليم بمن أوشك زيته أن يضيء وينتظر لمسة هداية.
عليم بمن يظهر النور وفي داخله رياء.
عليم بمن يخفي النور تواضعًا.
عليم بمن يجاهد في الظلام ولا يراه أحد.
عليم بمن يريد النور صدقًا، ولو تعثر ألف مرة.

ما أرحم هذا الختام. فالله لا يجهل طريقك إلى النور. لا يجهل المحاولات الصغيرة. لا يجهل المرات التي أردت أن تتغير ثم غلبتك نفسك. لا يجهل

الدموع التي طلبت بها مصباحًا لقلبك. لا يجهل الغبار الذي أتعب زجاجتك. وهو وحده القادر أن يجعل فيك نورًا على نور.

إذا علم الله صدق طلبك للنور، فلا تيأس من عتمتك.

في هذه الآية، نكتشف أن سورة النور كلها كانت تدور حول هذا المركز. الأحكام ليست بعيدة عن المشكاة، والآداب ليست منفصلة عن المصباح. فالذي يترك القذف يحفظ النور. والذي يغض بصره يحفظ النور. والذي يستأذن يحفظ النور. والذي يعفو يحفظ النور. والذي يستعفف يحفظ النور. والذي يرفض خطوات الشيطان يحفظ النور.

فالنور ليس حالة صوفية منفصلة عن الحياة.
النور طريقة في الكلام.
وطريقة في النظر.
وطريقة في الدخول.
وطريقة في الحب.
وطريقة في الخصومة.
وطريقة في العفو.
وطريقة في استعمال المال.
وطريقة في حمل الجسد داخل العالم.

من لم يرَ أثر النور في أخلاقه، فليفتش عن صدق المصباح في قلبه.

وهذا يجعلنا نخاف من النور الزائف. هناك أضواء كثيرة في الدنيا: ضوء الشهرة، وضوء الذكاء، وضوء الثقافة، وضوء الجمال، وضوء المال،

وضوء المنصب، وضوء التصفيق. لكنها أضواء لا تكفي في ظلمة القبر، ولا تهدي القلب إذا ضل، ولا تمنح السكينة إذا تكسرت الأسباب.

نور الله وحده هو الذي يبقى حين تنطفئ الأضواء الأخرى.
حين يغادرك الناس.
حين يضعف الجسد.
حين يفشل التخطيط.
حين تنزل المصيبة.
حين يقف الإنسان وحده أمام عمله.
حين لا يبقى إلا الحق المبين.

كل نورٍ لا يصحبك إلى الآخرة، فهو ضوء عابر لا تغترّ به.

وفي نهاية هذا الفصل، لا يملك القلب إلا أن يدعو:

يا الله، يا نور السماوات والأرض، اجعل لنا من نورك نصيبًا.
نَوّر أبصارنا حتى لا تخون.
ونَوّر ألسنتنا حتى لا تظلم.
ونَوّر بيوتنا حتى لا تضيق.
ونَوّر قلوبنا حتى لا تتبع خطوات الشيطان.
ونَوّر علاقاتنا حتى لا يبتلعها الحرام.
ونَوّر عقولنا حتى لا تنخدع بالسراب.
ونَوّر مصائرنا يوم نلقاك.

من وجد الله نورًا له، لم يعد يخاف طول الطريق.

هكذا تقف آية النور في السورة كالقلب في الجسد. منها يتدفق المعنى إلى ما قبلها وما بعدها. فإذا قرأنا ما قبلها فهمنا كيف تتهيأ المشكاة. وإذا قرأنا ما بعدها فهمنا أين تسكن المصابيح: في بيوت أذن الله أن ترفع، وفي رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

فالآية لا تنتهي عند صورتها. إنها تفتح طريقًا جديدًا. بعد أن نرى النور، نسأل: أين يستقر هذا النور في الأرض؟ من يحمل هذا المصباح في زحام الحياة؟ أي بيوت تصلح أن تكون مأوى له؟ وأي رجال ونساء يعيشون في الدنيا دون أن تلهيهم عن مصدر الضوء؟

آية النور لا تختم الرحلة؛ إنها تشعل المصباح لنواصل السير.

آمين، وبارك الله فيك، وجعل هذا العمل بابًا من أبواب النور.

الفصل الرابع عشر

البيوت التي تأذن السماء برفعتها

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۝ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

بعد آية النور، لا تتركنا السورة في السماء وحدها.
لا تجعلنا نقف مأخوذين بصورة المشكاة والمصباح والزجاجة والكوكب الدري، ثم نبقى هناك في تأملٍ معلّق لا يعرف طريقه إلى الأرض.

بل تنزل بالنور إلى مكانه.

﴿فِي بُيُوتٍ﴾

كأن النور لا يريد أن يبقى معنى مجردًا. يريد بيتًا يسكنه. يريد جدرانًا تشهد عليه. يريد أوقاتًا يتردد فيها. يريد رجالًا ونساءً يحملونه في زحام السوق، وفي تعب النهار، وفي فتنة البيع والشراء، وفي خوف اليوم الآخر.

النور العظيم لا يكتفي أن يشرق في الفكرة؛ لا بد أن يجد بيتًا في الحياة.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾

ما أجمل هذا التعبير.

ليست البيوت هنا مرفوعة بحجارة عالية، ولا بزخرفة فاخرة، ولا بسعة المساحة، ولا بثمن الأثاث، بل بإذن الله. هناك بيوت تراها العين صغيرة، لكنها عند الله عالية. وهناك بيوت تلمع من الخارج، لكنها في ميزان النور منخفضة، لأن اسم الله غائب عنها، ولأن القلوب فيها مشغولة بكل شيء إلا به.

البيت لا يرتفع بسقفه.
يرتفع بذكره.
يرتفع بطهره.
يرتفع بصلاته.
يرتفع بما يُتلى فيه.
يرتفع حين يكون مكانًا يُحرس فيه الحياء، ويُحفظ فيه اللسان، وتُصان فيه العيون، ويُذكر فيه الله بالغدو والآصال.

ليست البيوت العالية ما ارتفعت جدرانها، بل ما ارتفعت معانيها إلى الله.

وهذه البيوت، في أصل السياق، بيوت الله ومساجده؛ مواضع العبادة التي أذن الله أن تُرفع حسًا ومعنى. لكنها تفتح لنا معنى أوسع في أثر النور: أن كل مكان يُذكر فيه الله يأخذ حظه من الرفعة. المسجد بيت مرفوع لأنه لله، والبيت المؤمن يستمد من المسجد نوره حين يجعل الذكر ساكنًا فيه.

فالمسجد يربّي البيت.
والبيت الذي لا يعرف طريق المسجد يضعف نوره.
والرجل الذي يخرج من بيته إلى بيت الله، ثم يعود، ينبغي أن يحمل شيئًا من ضوء المسجد إلى أهله.

والمرأة التي تذكر الله في بيتها، وتجعل من زواياه موضعًا للقرآن والحياء والسكينة، ترفع ذلك البيت من الداخل.

كل بيتٍ لا يصل بين أرضه وسماء الله يبقى ناقص الارتفاع، ولو كان في أعلى الأبراج.

﴿أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾

الإذن هنا مهيب. كأن الرفعة ليست قرار البشر. الناس قد يرفعون ما لا يرفعه الله، وقد يصفقون لما لا وزن له عنده، وقد يعظمون البيوت بأسماء أصحابها، ومواقعها، ومظاهرها. لكن الرفعة الحقيقية لا يمنحها السوق، ولا المجتمع، ولا الألقاب. يمنحها الله.

إذا أذن الله لبيت أن يرفع، صار عزيزًا ولو قلّ أهله.
وإذا لم يأذن الله، ظل منخفضًا ولو امتلأ بالضجيج والرفاهية.

الرفعة ليست أن يعرف الناس بيتك، بل أن يعرف الله فيه ذكره.

ثم تبين الآية سر الرفعة:

﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾

الاسم العظيم.

حين يُذكر اسم الله في البيت، يتغير هواء البيت. لا يعود المكان صامتًا من الداخل. يصبح له نبض. حين يقال: الله أكبر، حين تُتلى آية، حين يعلو الاستغفار، حين تنطفئ معصية حياءً من الله، حين تجلس أم تعلم ولدها

الفاتحة، حين يقوم رجل في الليل لا يسمعه إلا ربه، حين تُغلق شاشة لأن أهل البيت خافوا على نورهم، حين تُرد شائعة لأنهم لا يريدون أن تدخل الظلمة إلى مجلسهم.

كل ذلك ذكر.

والذكر ليس صوتًا فقط. إنه حضور. أن يكون الله حاضرًا في القرار، في الكلام، في الغضب، في الفرح، في الطعام، في العلاقة، في الخصومة، في التربية، في طريقة استقبال الأخبار، في طريقة إغلاق الأبواب وفتحها.

البيت الذاكر ليس الذي تكثر فيه الأصوات الدينية فقط، بل الذي يشعر أهله أن الله حاضر في تفاصيلهم.

كم من بيتٍ فيه مصاحف كثيرة، لكن الكلام فيه جارح.
وكم من بيتٍ تُعلّق فيه الآيات، لكن الغيبة تسكن مجالسه.
وكم من بيتٍ يسمع أهله القرآن، لكنهم لا يسمحون له أن يحكم بينهم.
وكم من بيتٍ قليل الزينة، لكنه إذا دخلته شعرت أن لله فيه مكانًا.

ليست العبرة بما يُعلّق على الجدران فقط، بل بما يستقر في الأرواح. ليس المهم أن يكون اسم الله مكتوبًا، بل أن يكون مذكورًا، مهابًا، محبوبًا، مطاعًا.

قد يُكتب اسم الله على الجدار ويبقى البيت غافلًا، وقد لا يراه أحد مكتوبًا لكنك تشعر به في السكينة.

﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾

الغدو والآصال: أطراف اليوم. أوله وآخره. كأن البيوت المرفوعة لا تذكر الله في لحظة عابرة ثم تنساه، بل تجعل اليوم كله محاطًا بالتسبيح. يبدأ النهار بذكر، وينتهي بذكر. وبين البداية والنهاية، يمشي المؤمن في العمل، والسوق، والمسؤوليات، لكنه يعود إلى الأصل.

التسبيح في الغدو يطهر بداية اليوم من الغفلة.
والتسبيح في الآصال يغسل ما علق بالروح من غبار النهار.
كأن القلب يحتاج في أول الطريق وآخره أن يقول: سبحان الله، حتى لا يبتلع العالم معناه.

من بدأ يومه بالله وختمه بالله، لم تبتلعه التفاصيل بين البداية والنهاية.

ما أكثر ما يأخذ النهار من الإنسان. يأخذ صوته، أعصابه، تركيزه، رغبته، صبره. يدخل السوق، يواجه الناس، يسمع الكلام، يرى الصور، يحسب المال، يخاف المستقبل، يطارد الرزق. فإذا لم يكن له بالغدو والآصال مورد من ذكر، جف قلبه وهو لا يشعر.

والتسبيح يعيد ترتيب الداخل. يقول للقلب: الله أكبر من السوق. أكبر من الخوف. أكبر من الربح. أكبر من الخسارة. أكبر من كلام الناس. أكبر من هذه العجلة التي تكاد تنسيك لماذا خُلقت.

الذكر ليس هروبًا من الحياة؛ إنه عودة إلى المعنى حتى لا تلتهمك الحياة.

ثم تظهر ملامح أهل هذه البيوت: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾

رجال.

ليسوا خارج الحياة. ليسوا منعزلين في الجبال. ليسوا غرباء عن حركة المال والعمل. لديهم تجارة وبيع. يدخلون السوق، يفاوضون، يعملون، يكسبون، يخسرون، يسعون في الأرض. لكن الفرق أن التجارة لا تلهيهم.

وهذا هو الامتحان الأشد: أن تكون في وسط الدنيا ولا تكون الدنيا في وسط قلبك.

الزهد العالي ليس أن تترك السوق دائمًا، بل أن تدخل السوق وقلبك لم يخرج من حضرة الله.

التجارة ليست مذمومة في ذاتها. والبيع ليس خطيئة. والسعي في الرزق ليس ضد النور. بل قد يكون عبادة إذا صدقت النية واستقام الطريق. لكن الخطر في الإلهاء. أن تتحول التجارة من وسيلة إلى سيد.

أن يصبح البيع هو الذي يحدد مواعيد القلب، واهتماماته، وخوفه، وفرحه، وحزنه. أن يذكر الإنسان الربح أكثر مما يذكر الله. أن يخاف على الصفقة أكثر مما يخاف على صلاته. أن يحسب المال بدقة، ولا يحاسب قلبه أبدًا.

ليست المشكلة أن تملك تجارة، بل أن تملكك تجارتك.

﴿لَّا تُلْهِيهِمْ﴾

الإلهاء أعمق من الانشغال. قد تنشغل بعملك وأنت تذكر الله في داخلك. وقد لا تعمل شيئًا، لكن قلبك لاهٍ. الإلهاء أن يأخذ الشيء من قلبك موضع ما هو أعظم منه. أن يكون حاضرًا فيك حتى حين تقف للصلاة. أن يدخل معك في سجودك. أن يسرق منك خشوعك، وحضورك، ورقتك.

كم من إنسان لا يزال في السوق وهو على السجادة.
وكم من جسدٍ يقف في الصلاة، لكن قلبه يراجع الحسابات.
وكم من لسان يقول: الله أكبر، وقلبه يقول: المال أكبر، والموعد أكبر، والخسارة أكبر.

الصلاة تكشف ترتيب الأشياء في قلبك: من الذي يكبر حقًا حين تقول الله أكبر؟

هؤلاء الرجال لا تلهيهم التجارة ولا البيع عن ثلاثة أركان مضيئة: ﴿**عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ**﴾

ذكر الله: حياة القلب.
إقام الصلاة: عمود الصلة.
إيتاء الزكاة: طهارة المال.

كأن الآية تجمع بين القلب والجسد والمال. فالذكر يحرس الداخل، والصلاة تقيم العبودية، والزكاة تمنع المال من أن يتحول إلى ظلمة. لا يكفي أن تذكر بلسانك ثم يفسد مالك. ولا أن تصلي ثم يمنعك الشح من حق الفقراء. ولا أن تزكي مالك وقلبك غافل عن الله.

النور يطلب الإنسان كله.

لا يكتمل نور المؤمن حتى يدخل في قلبه ووقته وماله.

﴿وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾

لم يقل أداء الصلاة فقط، بل إقامتها. والإقامة تعني أن تنهض الصلاة في الحياة، لا أن تُؤدى كعبء سريع. أن يكون لها وقتها، وهيبتها، وأثرها. أن تقيمك كما تقيمها. أن تصنع فيك استقامة بعد السلام كما صنعت فيك خشوعًا أثناء القيام.

الصلاة التي لا تترك أثرًا في اللسان، تحتاج إلى مراجعة.
والصلاة التي لا تمنع العين، تحتاج إلى حياة أعمق.
والصلاة التي لا تهذب الغضب، لم تقم في النفس كما ينبغي.
فليس المقصود أن نمر بالصلاة، بل أن تمر الصلاة فينا.

إقامة الصلاة أن تخرج من الصلاة بشيء من نورها على وجهك ولسانك وقرارك.

﴿وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾

الزكاة هنا ليست مالًا يخرج فقط، بل قلب يتحرر. فالمال إذا لم يُطهّر، صار ثقلًا. والزكاة تقول لصاحب المال: أنت لا تملك كل ما في يدك لنفسك. هناك حق لله، وحق للفقير، وحق للمجتمع، وحق للنور أن يتحرك في المال.

هؤلاء الرجال لا تلهيهم التجارة عن الزكاة. أي إن المال لا ينسيهم وظيفة المال. لا يبيعون ويشترون حتى ينسوا أن في أموالهم حقًا. لا يجمعون حتى يتصلب القلب. لا يجعلون الربح نهاية الطريق.

المال الذي لا يخرج منه حق الله يتحول من رزقٍ في اليد إلى غبارٍ على القلب.

ثم تكشف الآية سر هذا الثبات: ﴿**يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ**﴾

الخوف من اليوم الآخر هو الحارس الكبير في الداخل. ليس خوفًا مرضيًا يقتل الحياة، بل خوفًا يضبطها. هؤلاء يعملون في الدنيا، لكن الآخرة حاضرة في عمقهم. يبيعون ويشترون، لكنهم يتذكرون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار.

يا له من تصوير.

القلوب التي كانت ثابتة في الدنيا تتقلب من الهول.
والأبصار التي كانت مطمئنة تضطرب.
الإنسان الذي كان يخطط بثقة، ويحسب بدقة، ويفاوض بقوة، يقف في يوم لا يملك فيه قلبه ولا بصره من شدة الموقف.

من تذكّر يوم تقلّب القلوب، هان عليه أن يترك ما يقلب قلبه في الدنيا.

هذا الخوف هو الذي يمنع التجارة من أن تصبح لهوًا. وهو الذي يعيد المال إلى حجمه. وهو الذي يجعل الصلاة أثقل في الميزان من موعدٍ تجاري. وهو الذي يعلّم الإنسان أن الربح الحقيقي ليس ما دخل حسابه، بل ما بقي له عند الله.

حين يحضر اليوم الآخر في القلب، تتغير قرارات كثيرة.
لا يغش، لأنه يخاف ذلك اليوم.

لا يظلم، لأنه يخاف ذلك اليوم.
لا يبيع دينه بصفقة، لأنه يخاف ذلك اليوم.
لا يؤخر الصلاة لأجل الناس، لأنه يخاف الوقوف بين يدي رب الناس.

الآخرة ليست فكرة بعيدة؛ إنها ميزان حاضر لكل قرارٍ صادق.

ثم يأتي الجزاء: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾

يا لكرم الله.

لم يقل ليجزيهم ما عملوا فقط، بل **أحسن ما عملوا**. كأن فضل الله ينتقي من أعمال عباده أجملها، ويعاملهم بمقام الإحسان، ويستر التقصير، ويقبل الصادق من العمل، ويضاعف اليسير.

ما أكرم الرب.
العبد يعمل قليلًا مشوبًا بالنقص، والله يجزيه أحسن ما عمل.
العبد يذكر، ويغفل. يصلي، ويقصر. ينفق، ويخاف. يجاهد، ويتعب. ثم يأتي فضل الله فيرفع أحسن اللحظات، ويعطي عليها ما لا يخطر.

مع الله، لا يضيع أجمل ما حاولت أن تكونه.

قد ينسى الناس قيامك لصلاة الفجر، لكن الله لا ينسى.
قد لا يرى أحد أنك تركت صفقة مشبوهة لله، لكن الله لا ينسى.
قد لا يعلم أحد أنك أخرجت زكاة أو صدقة وأخفيتها، لكن الله لا ينسى.
قد لا يعرف أحد أنك أغلقت متجرك أو أوقفت عملك لتلحق الصلاة، لكن الله لا ينسى.

وما دام الله يجزي أحسن ما عملوا، فلا تستصغر عملًا صالحًا. لا تدري أي لحظة صدق ستكون من أحسن أعمالك.

ربما كانت لحظةٌ خفية من إخلاصك أرفع عند الله من سنواتٍ رآها الناس.

ثم يزيد الكرم:

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾

الجزاء عدل، والزيادة فضل. والله لا يعامل عباده بموازين الحساب الباردة وحدها. يعطيهم على أعمالهم، ثم يزيدهم من فضله. والفضل لا يُقاس. الفضل أوسع من العمل. الفضل أن يفتح الله عليك من النور ما لم تصنع أسبابه كلها. أن يعطيك سكينة أكبر من طاعتك، وسترًا أكبر من استحقاقك، ورزقًا أكبر من حسابك، ومغفرة أكبر من ظنك.

نحن نعمل على قدر ضعفنا، والله يزيد على قدر فضله.

وهذه الزيادة هي التي تجعل المؤمن لا يعتمد على عمله ولا يترك العمل. يعمل، لأنه مأمور. ويرجو الفضل، لأنه يعرف أن العمل وحده لا ينهض به. لا يقول: سأدخل الجنة بعملي، ولا يقول: لا حاجة للعمل ما دام الفضل واسعًا. بل يعمل بقلب فقير، وينتظر الزيادة من رب كريم.

ثم تختم الآية: **﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾**

بعد ذكر التجارة والبيع والزكاة، يأتي الرزق من الله بغير حساب. كأن السورة تقول للتاجر المؤمن: لا تخف أن يضيع رزقك حين تذكر الله. لا تخف أن تفوتك صفقة لأنك أقمت الصلاة. لا تخف أن ينقص مالك لأنك آتيت الزكاة.

الرزق بيد الله، لا بيد السوق وحده. والبركة رزق، والسكينة رزق، والقناعة رزق، والنجاة من الحرام رزق.

ليس الرزق ما يدخل يدك فقط؛ الرزق أن لا يخرج الله من قلبك وأنت تطلبه.

بغير حساب.

أي من سعة لا تحيط بها حساباتك. قد يأتيك الرزق من باب لم تطرقه. وقد يمنع عنك مالًا كان سيطفئ نورك. وقد يعطيك قليلًا فيه بركة، ويصرف عنك كثيرًا فيه فتنة. وقد يجعل خسارةً في الظاهر نجاةً في الباطن.

لذلك لا ينبغي للمؤمن أن يجعل السوق إلهًا صغيرًا يعبد قوانينه خوفًا وطمعًا. يأخذ بالأسباب، نعم، لكنه يعرف أن فوق الأسباب ربًا واسعًا عليمًا.

من عرف أن الله يرزق بغير حساب، لم يبع صلاته بحسابات الناس.

وهكذا يظهر لنا أن البيوت التي أذن الله أن ترفع ليست معزولة عن الدنيا، بل متصلة بها. فيها ذكر، وفي أهلها تجارة. فيها صلاة، وفي أصحابها بيع. فيها خوف من الآخرة، وفي أيديهم مال يتحرك. لكنها بيوت عرفت الترتيب الصحيح: الله أولًا، ثم تأتي الدنيا في مكانها.

وهذا من جمال الإسلام: لا يطلب منك أن تخرج من الحياة حتى تكون نورانيًا. بل يطلب منك أن تدخلها بقلبٍ لا ينسى مصدر النور. أن تكون أبًا، وزوجًا، وتاجرًا، وموظفًا، وصانعًا، وطالبًا، ومسؤولًا، لكن لا تلهيك هذه الأسماء عن اسمك الأول: عبد الله.

ليست المشكلة أن يكون لك دور في الدنيا؛ المشكلة أن تنسى دورك أمام الله.

في نهاية هذا الفصل، نقف أمام أنفسنا ونسأل:

ما الذي يلهيني؟
ما التجارة التي أخذت من قلبي أكثر مما ينبغي؟
ما البيع الذي جعلني أؤخر الصلاة، أو أؤخر الزكاة، أو أؤخر التوبة؟
هل بيتي مرفوع بذكر الله أم مثقل بضجيج الغفلة؟
هل يومي محاط بالغدو والآصال؟
هل أخاف يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار؟
هل أصدق أن الله يرزق بغير حساب، أم أتصرف كأن الرزق كله محبوس في يد البشر؟

إن سورة النور، بعد آية النور، لا تصف لنا ناسًا يعيشون خارج الزمن. بل تصف مؤمنين ينجحون في أصعب معادلة: أن تكون أيديهم في العمل، وقلوبهم عند الله. أن يدخلوا السوق ولا يسلموا قلوبهم للسوق. أن يملكوا المال ولا يملكهم المال. أن يعملوا للرزق ولا ينسوا الرازق.

المضيء حقًا ليس من لا تقترب منه الدنيا، بل من تقترب منه ولا تطفئه.

وهكذا نرى أن النور الذي كان في المشكاة صار الآن في بيوت. ثم صار في رجال. ثم صار في تجارة لا تلهي. وصلاة لا تُترك. وزكاة لا تُمنع. وخوف من يوم عظيم. وجزاء من الله، وزيادة من فضله، ورزق بغير حساب.

كأن آية النور تقول: هذا هو مصدر الضوء.
والآيات بعدها تقول: هؤلاء هم الذين حملوه في الأرض.

فاللهم اجعل بيوتنا من البيوت التي أذنت أن ترفع.
واجعل أسماءنا في أهل الذكر بالغدو والآصال.
ولا تجعل تجارةً ولا بيعًا ولا عملًا ولا خوفًا ولا رغبةً تلهينا عنك.
واجعلنا ممن يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار، حتى تثبت قلوبنا وأبصارنا يوم نلقاك.

البيت الذي يذكر الله لا يسكن الأرض وحدها؛ له نافذة مفتوحة على السماء.

الفصل الخامس عشر

حين يلمع السراب كأنه ماء

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾

بعد أن حدثتنا السورة عن بيوتٍ أذن الله أن تُرفع، وعن رجالٍ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، تنقلنا فجأة إلى الوجه الآخر: وجه الأعمال حين تفقد النور.

هناك بيوت مرفوعة، وهنا أعمال منهارة.

هناك مصابيح، وهنا سراب.

هناك قلوب تخاف يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار، وهنا نفوس تكتشف الحقيقة بعد أن ينتهي الطريق.

هناك نور على نور، وهنا ظلمات بعضها فوق بعض.

ليس كل عملٍ كثير مضيئًا؛ العمل يضيء بوجهته لا بضخامته.

تبدأ الآية بصورة موجعة: **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾**

السراب شيء يُرى ولا يُمسك. يلمع من بعيد كأنه ماء، ويعد العطشان بالنجاة، حتى إذا اقترب منه وجده لا شيء. ليس قليلًا فقط، بل لا شيء. كان الوهم كله قائمًا على مسافة. كلما اقتربت منه، انكشف. وكلما احتجت إليه، خذلك.

وهكذا العمل إذا انفصل عن الله. قد يلمع في أعين الناس. قد يملأ الدنيا ضجيجًا. قد تصفق له الجماهير. قد يخلّد في الوثائق، ويُذكر في المجالس، وتُرفع له الصور، وتكتب عنه الكلمات. لكنه إذا لم يكن لله، وإذا لم يستند إلى الإيمان، وإذا لم يتصل بالحق، فإنه عند لحظة العطش الأكبر ينكشف عن فراغ.

أخطر السراب أنه لا يخذلك إلا حين تكون في أشد الحاجة إلى الماء.

العطشان لا يركض نحو السراب ترفًا. يركض لأنه محتاج. لأنه يظن أن حياته هناك. وهذا ما يجعل الصورة مؤلمة. الإنسان قد يقضي عمره يركض خلف معنى يظنه خلاصه: جاه، منصب، شهرة، لذة، إنجاز، إعجاب، فكرة، مال، سلطة، تاريخ شخصي طويل. ثم إذا اقترب من نهاية الطريق، وجد أن ما كان يلمع لم يكن ماءً.

ليس كل ما يلمع يروي.
وليس كل ما يجذب ينقذ.
وليس كل ما يراه الناس عظيمًا يكون عند الله عظيمًا.

الدنيا بارعة في صناعة اللمعان، لكنها عاجزة عن صناعة النور.

السراب يحتاج إلى عين عطشى حتى تصدقه. ولو لم يكن في الإنسان عطش، لما ركض خلفه. وهنا يكمن سرّ كثير من الأوهام. النفس العطشى إلى

الاعتراف تصدق سراب الشهرة. والنفس العطشى إلى الأمان تصدق سراب المال. والنفس العطشى إلى الخلود تصدق سراب الأثر. والنفس العطشى إلى اللذة تصدق سراب الشهوة. والنفس العطشى إلى التفوق تصدق سراب الكبرياء.

كل عطشٍ لا يُسقى من الله، سيبحث عن سرابه الخاص.

من لم يروِ قلبه بالله، أرهقته الوعود الكاذبة للأشياء.

ثم تقول الآية:

﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾

الحساب هنا ظنّ، لا حقيقة. والظمأ يجعل الظن أقوى. الحاجة إذا اشتدت، قد تخدع البصر. يريد الإنسان أن يصدق؛ لأن التصديق يريحه لحظة. يريد أن يرى الماء؛ لأن الاعتراف بالفراغ مؤلم.

وهكذا كثير من الناس لا يخدعون فقط لأن السراب بارع، بل لأنهم يريدون أن يُخدعوا. يريدون أن يصدقوا أن الحياة بلا إيمان تكفي. أن العمل بلا وجهة يكفي. أن النجاح بلا عبودية يكفي. أن اللذة بلا طهر تكفي. أن الذكاء بلا هداية يكفي. أن الضوء الخارجي يعوض ظلمة الداخل.

الوهم لا يعيش بقوة خداعه فقط، بل برغبة القلب في تصديقه.

ثم تأتي لحظة الانكشاف: **﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾**

ما أقسى هذه الجملة.

جاءه.

أي وصل بعد ركض.

بعد تعب.

بعد عمر.

بعد أمل.

بعد تعلق.

بعد أن كان يؤجل أسئلته الكبرى وهو يقول: سأجد الماء هناك.

فلما جاءه، لم يجده شيئًا.

لا ماء.

لا راحة.

لا نجاة.

لا معنى.

لا جواب.

أكبر خسارة أن تصل إلى ما أفنيت عمرك من أجله، ثم تكتشف أنه لا يحمل روحك.

كم من إنسان يصل إلى ما كان يحلم به، ثم يبقى عطشان. يحصل على المال ولا يجد السكينة. ينال الشهرة ولا يجد الطمأنينة. يملك العلاقات ولا يجد الحب. يجرب اللذة ولا يجد الامتلاء. يحقق الإنجاز ولا يجد الجواب. لأن المشكلة لم تكن في قلة الوصول، بل في خطأ الوجهة.

إن السراب لا يتحول إلى ماء إذا اقتربت منه أكثر.
والباطل لا يصير حقًا إذا أعطيته عمرك.
والشيء الذي لا يملك النور في أصله، لا يمنحك النور في نهايته.

ليس كل وصول نجاة؛ بعض الوصول آخر مراحل الخيبة.

ثم تأتي المفاجأة الأعظم: ﴿**وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ**﴾

لم يجد الماء، لكنه وجد الله.

كان يركض نحو السراب، فإذا بالله عند نهاية الوهم.
كان يظن أن الطريق سينتهي بلذة أو نجاح أو خلاص، فإذا بالحساب.
كان يغيب عن الله في الطريق، فإذا الله حاضر عند النهاية.

هذه الجملة تهز القلب. فالله ليس غائبًا عن رحلة الإنسان حتى لو غاب الإنسان عنه. قد يعيش المرء عمرًا كاملًا متصرفًا كأن الله ليس في حسابه، ثم يكتشف عند آخر السراب أن الله كان نهاية كل طريق.

من لم يطلب الله في بداية الطريق، سيجده في نهاية الطريق حَكَمًا لا مفر منه.

﴿**فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ**﴾

وفَّاه.
أي لم يُنقص، ولم يظلم، ولم ينس.
كل شيء حاضر.
كل نية.

كل عمل.

كل إنجاز كان بلا إخلاص.

كل ظلم لُفّ بثوب مصلحة.

كل كلمة قيلت لغير الله.

كل سعي كان وجهه إلى الناس وحدهم.

كل عظمة مزيفة كان صاحبها يظن أنها ستنجيه.

والله سريع الحساب.

ليس لأنه يتعجل، بل لأنه لا يعجزه شيء. لا يحتاج إلى بحث طويل، ولا إلى استدعاء ذاكرة، ولا إلى شهود يذكرونه بما خفي. كل شيء عنده مكشوف.

الحساب عند الله ليس جمع أوراق متفرقة؛ إنه حضور الحقيقة دفعة واحدة.

هذه الصورة الأولى: سرابٌ في أرض واسعة.

ضوء خادع.

عطش.

ركض.

خيبة عند الوصول.

ثم حساب.

أما الصورة الثانية، فهي ليست لمعانًا خادعًا في الصحراء، بل غرقٌ في ظلمات البحر: ﴿**أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ**﴾

البحر اللجي عميق، متلاطم، مخيف. والظلمة فيه ليست كظلمة غرفة يمكن أن تفتح نافذتها. إنها ظلمة واسعة، مائعة، متحركة، لا تقف على هيئة واحدة.

ظلمة تحتك، وحولك، وفوقك. لا أرض ثابتة، ولا اتجاه واضح، ولا أفق قريب.

هناك ظلمات لا تقف أمامك كجدار، بل تحيط بك كبحر.

هذه صورة أخرى للضياع حين يغيب نور الله. ليس فقط أن يرى الإنسان سرابًا ويجري نحوه، بل أن يغرق في نظام كامل من الظلمات. ظلمة فكرة، فوقها ظلمة شهوة، فوقها ظلمة كبر، فوقها ظلمة صحبة، فوقها ظلمة بيئة، فوقها ظلمة غفلة طويلة.

ليست ظلمة واحدة.
بل طبقات.

﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾

موج من فوقه موج. ثم سحاب.
أي أن الظلمة ليست من جهة واحدة.
لو خرج من موج، جاءه موج.
ولو رفع بصره، وجد السحاب يحجب النور.
لا تحت قدميه قرار، ولا فوق رأسه صفاء.

من ابتعد عن نور الله، لم يجد ظلامًا واحدًا، بل وجد الظلام يتكاثر من كل جهة.

وهذا حال القلب حين تتراكم عليه الغفلات. في البداية ذنب واحد، ثم تبرير، ثم صحبة تعين، ثم عادة، ثم قسوة، ثم شك، ثم يأس، ثم استهزاء بمن يذكّره،

ثم غربة كاملة عن النور. حتى إذا أراد الرجوع لم يعرف من أين يبدأ. كأنه في بحر لجي، فوقه موج من تاريخه، وموج من شهوته، وموج من خوفه، وفوق ذلك سحاب من الشبهات.

لكن رحمة الله قادرة أن تخرجه.
غير أن الآية تتحدث عن من لم يجعل الله له نورًا.

إذا تراكمت الظلمات، لم يعد الذكاء وحده كافيًا؛ لا بد من نورٍ من الله.

ثم يقول تعالى: ﴿**ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ**﴾

ما أوجزها وما أعمقها.

ظلمة الكفر.
وظلمة المعصية.
وظلمة الكبر.
وظلمة الشهوة.
وظلمة الظلم.
وظلمة الغفلة.
وظلمة العناد.
وظلمة الاغترار بالعمل.
وظلمة رؤية النفس فوق الحق.

ظلمات بعضها فوق بعض.

والإنسان قد يعتاد الظلمة حتى لا يعود يشعر بها. كما يعتاد الساكن في غرفة مغلقة رائحة الهواء الفاسد. لا ينتبه إلا إذا خرج إلى النور. ومن لم يذق نور الهداية، قد يظن أن عتمته هي الوضع الطبيعي للحياة.

من طال مقامه في الظلام، قد يتهم النور بأنه يؤلم عينيه.

ثم تأتي الصورة القاسية: ﴿**إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا**﴾

يده، أقرب شيء إليه.
ومع ذلك لا يكاد يراها.

وهذه منتهى الضياع. أن لا يرى الإنسان أقرب الأشياء إليه. أن يجهل نفسه. أن لا يعرف حقيقة دوافعه. أن لا يرى عيوبه. أن لا يميز بين حاجته وشهوته، بين حريته وعبوديته، بين نجاحه وهلاكه، بين قوته وكبره، بين حبه وتملكه.

من فقد نور الله، قد يجهل نفسه وهو يظن أنه يعرف العالم.

كم من إنسان يحلل الناس ولا يعرف قلبه.
وينقد المجتمع ولا يرى ظلم نفسه.
ويتكلم عن الحرية وهو عبد لشهوته.
ويتحدث عن الوعي وهو غارق في أعمق أشكال الغفلة.
ويظن أنه يرى، لكنه لا يرى يده.

إن نور الله لا يكشف لك الطريق فقط، بل يكشفك لك. يجعلك ترى نفسك بلا تزوير. ترى ضعفك، واحتياجك، وزيف بعض ادعاءاتك، وجمال ما بقي فيك من فطرة، وخطورة ما تسلل إليك من هوى.

أعظم ما يمنحه النور للإنسان أن يعرّفه بنفسه قبل أن يعرّفه بالطريق.

ثم تختم الآية بالقانون الجامع: ﴿**وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾

هذه الجملة هي خلاصة الفصل كله.

لا الثقافة وحدها نور.
ولا المال نور.
ولا الشهرة نور.
ولا الذكاء نور.
ولا كثرة التجارب نور.
ولا قوة الشخصية نور.
ولا الفصاحة نور.
ولا إعجاب الناس نور.

إن لم يجعل الله لك نورًا، فما لك من نور.

النور ليس ما تصنعه لنفسك، بل ما يهبه الله لقلبٍ صدق في طلبه.

قد يصنع الإنسان أضواء كثيرة حوله، لكنه يبقى من الداخل مظلمًا. قد يجمع شهادات، ومهارات، وعلاقات، وصورًا، وأرصدة، لكنه إذا خلا بنفسه عرف أن شيئًا في أعماقه لا يزال يبحث عن مصباح. وهذا المصباح لا يبيعه أحد. ولا تفتحه الدنيا. ولا يصنعه التصفيق. إنه من الله.

ومع ذلك، فالله لا يظلم أحدًا. من طلب النور بصدق، فتح الله له أبوابه. من وقف عند عتمته وقال: يا رب، لا أرى، أره الله. من اعترف بضياعه، بدأ

طريق الهداية. أما من عشق ظلمته، وزينها، وكابر، واستغنى عن الله، فماذا يبقى له؟

أول الطريق إلى النور أن تعترف أنك لا تملكه من دون الله.

هنا يظهر الفرق بين أهل البيوت المرفوعة وأهل السراب والظلمات. أهل البيوت المرفوعة لم تلههم التجارة ولا البيع عن ذكر الله؛ لذلك كان لهم نور في الدنيا، وجزاء وزيادة في الآخرة. أما الذين عاشوا بلا نور، فإما أعمال كالسراب، وإما حال كالبحر اللجي.

الأول خُدع بلمعان الخارج.
والثاني غرق في ظلام الداخل.
وكلاهما لم يجد النور؛ لأن النور لا يكون إلا من الله.

قد تضيع لأنك ركضت خلف شيء يلمع، وقد تضيع لأنك غرقت في شيء يعتم؛ والنجاة في الحالين أن يمنحك الله نورًا.

وهذا الفصل يخاطبنا جميعًا، لا بوصفه وصفًا للبعيدين فقط. ففي كل قلب قابلية للسراب، وقابلية للظلمة. قد يخدع المؤمن سراب عمله إذا دخله الرياء. وقد تغمره ظلمات الهم إذا ضعف يقينه. وقد يركض خلف شيء يحسبه ماءً، ثم يكتشف أنه لم يزده إلا عطشًا.

لذلك يحتاج المؤمن أن يراجع أعماله: هل هي لله؟
وأن يراجع طموحاته: هل ترويه أم تلهيه؟
وأن يراجع أنواره: هل هي من الله أم من إعجاب الناس؟

وأن يراجع ظلماته: ما الموج الذي يغشاه؟ وما السحاب الذي يحجب عنه السماء؟

لا يخاف المؤمن من كشف سرابه؛ يخاف أن يعيش عمره وهو يصفق له.

ما أرحم الله حين يكشف لنا السراب قبل أن نصل إليه. قد يحرمك شيئًا كنت تظنه ماءً، لأن رحمته علمت أنه سراب. قد يكسر تعلقًا، أو يؤخر رغبة، أو يفضح وهجًا كاذبًا، حتى لا تعطيه عمرك. وقد يدخلك في محنة تكشف لك ظلماتك، لا ليهلكك، بل لتطلب نوره بصدق.

فليست كل خيبة شرًا.
بعض الخيبات إنقاذ من سراب.
وليست كل عتمة عقوبة.
بعض العتمات تجعلك تعرف قيمة المصباح.

أحيانًا يمنعك الله من الوصول إلى السراب، فتظن أنه حرمك الماء، وهو في الحقيقة أنقذك من الوهم.

وفي نهاية هذا الفصل، لا نملك إلا أن نعود إلى الدعاء:

يا رب، لا تجعل أعمالنا سرابًا.
لا تجعل سعينا لغير وجهك.
لا تجعل ما نراه ماءً يخدعنا عن موردك.
لا تجعلنا نصل آخر الطريق فنجد ما أفنينا العمر فيه لا شيء.
واجعل لنا نورًا نمشي به، ونورًا نعرف به أنفسنا، ونورًا نميز به بين الماء والسراب.

يا رب، إن لم تجعل لنا نورًا، فما لنا من نور.

من خاف على أعماله من السراب، كان أقرب إلى الإخلاص؛ ومن خاف على قلبه من الظلمات، كان أقرب إلى النور.

وهكذا، بعد آية النور وبيوت النور ورجال النور، تعرض السورة مصير ما لا نور فيه. لتعلّمنا أن القضية ليست مجرد أن نعمل، بل أن نعمل في الضوء. ليست أن نركض، بل أن نعرف إلى أين. ليست أن نلمع، بل أن نستنير. ليست أن نبني ظاهرًا عظيمًا، بل أن لا يكون باطنه سرابًا.

فكم من قليلٍ مع الله صار كثيرًا.
وكم من كثيرٍ بلا الله صار لا شيء.
وكم من قلبٍ مكسورٍ طلب النور فصار كالمشكاة.
وكم من قلبٍ متكبرٍ أحاطت به الظلمات حتى لم يعد يرى يده.

بين السراب والنور، كلمة واحدة تنقذ العمر كله: الله.

الفصل السادس عشر

حين يصبح الكون كلّه محرابًا

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾

بعد أن حدّثتنا السورة عن السراب والظلمات، وعن الإنسان حين يفقد النور فيغرق في الوهم أو العتمة، تفتح لنا نافذة واسعة على الكون كلّه.

كأنها تقول للقلب:
إن ضاق عليك ظلام الإنسان، فانظر إلى اتساع تسبيح الوجود.
وإن رأيت من البشر من يغفل ويكفر ويجحد، فانظر إلى السماوات والأرض والطير وهي تعرف طريقها إلى الله.

هنا لا يعود الكون صامتًا.
ولا تعود السماء مجرد سقف.
ولا الأرض مجرد موطئ.
ولا الطير مجرد أجنحة عابرة في الهواء.

كل شيء له صلاة.
كل شيء له تسبيح.
كل شيء، بطريقته التي علمه الله إياها، يعرف ربّه.

من سمع تسبيح الكون لم يعد يشعر أنه يعبد الله وحده في هذا الوجود.

تبدأ الآية بسؤال يوقظ الرؤية: ﴿**أَلَمْ تَرَ**﴾

ليس المقصود رؤية العين وحدها، بل رؤية القلب. فكم من عين ترى الطير ولا تسمع التسبيح. وترى المطر ولا ترى الرحمة. وترى السحاب ولا ترى التدبير. وترى الليل والنهار ولا تشعر أن الكون كله يتحرك بأمر الله.

القرآن لا يضيف أشياء جديدة إلى العالم فحسب، بل يعلّمك كيف ترى الأشياء القديمة بعين جديدة.

الطير الذي كنت تراه مشهدًا جميلًا، يصبح في سورة النور عابدًا. والسماء التي كنت تراها فضاءً، تصبح مملكة. والأرض التي كنت تمشي عليها غافلًا، تصبح ساحة تسبيح. والكون الذي ظننته صامتًا، تكتشف أنه ممتلئ بذكر لا ينقطع.

المشكلة ليست في أن الكون لا يتكلم، بل في أن قلوبنا لا تحسن الإصغاء.

﴿**أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾

كل من في السماوات والأرض داخل في هذا النشيد العظيم. لا شيء خارج سلطان التسبيح إلا من اختار من الإنسان أن يعطل قلبه عن ربه. الشمس في مسارها تسبح. والنجوم في أماكنها تسبح. والجبال في صمتها تسبح. والبحار في مدّها وجزرها تسبح. والزرع وهو يشق التراب تسبح خلاياه لخالقها.

والإنسان، هذا الكائن الصغير الذي أعطي اللسان والعقل والقلب، قد يغفل.

يا للعجب.

الطير يعرف صلاته، والإنسان ينسى صلاته.

السحاب يسير بأمر ربه، والإنسان يعصي وهو يعلم.

كل شيء يمضي في طاعته الكونية، والإنسان يتردد في طاعته الاختيارية.

من خجل المؤمن أن يرى الكون كله مسبّحًا، ثم يجد قلبه غافلًا.

ثم تخص الآية الطير بالذكر: ﴿**وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ**﴾

ما أرقّ هذه الصورة.

الطير باسطات أجنحتهن في الهواء، ثابتات في نظام لا تختل معه الريشة ولا الوجهة. كأن السماء محراب، وكأن الأجنحة صفوف صلاة، وكأن الهواء يحمل تسبيحًا لا نفقه لغته.

الطير صافات.

لا تحمل كتابًا، ولا تخطب، ولا تشرح، لكنها تعرف من خلقها، وتعرف كيف تسبح له بما ألهمها.

كل جناحٍ في السماء آية، وكل طائرٍ عابر يذكّرك أن العبادة ليست حكرًا على هيئة واحدة.

إن الله لم يجعل التسبيح صورة واحدة. للإنسان تسبيحه. وللطير تسبيحه. وللماء تسبيحه. وللجبل تسبيحه. وللشجرة تسبيحها. وكل مخلوق يعرف طريقه الذي أذن الله له به. وهذا يجعل القلب أكثر تواضعًا. فلا يحتقر شيئًا في الوجود. ولا يمر على مخلوق كأنه بلا سر.

ربما كان العصفور الصغير أكثر انتظامًا في عبوديته الكونية من قلبك في عبوديتك الاختيارية.
وربما كانت ورقة الشجر الساقطة لا تخرج عن أمر الله، بينما يخرج الإنسان بلسانه وعينه وقلبه كل يوم ثم يعتذر.

الكون كله مطيع بطريقته، فويلٌ لقلبٍ عرف الطريق ثم اختار الشرود.

ثم تأتي الجملة العجيبة:﴿**كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ**﴾

كلٌّ.

كل مخلوق قد علم صلاته وتسبيحه.
الله علّمه، وألهمه، وهداه إلى طريق عبوديته. لا اختلاط، ولا فوضى، ولا نسيان في نظام الكون. كل كائن يؤدي دوره. كل ذرة تسير بأمر. كل مخلوق له باب إلى الله، وإن جهلنا نحن هذا الباب.

وهذه الجملة تثير في القلب سؤالًا مؤلمًا:

إذا كان كل شيء قد علم صلاته وتسبيحه، فهل علمت أنت صلاتك وتسبيحك؟
هل عرفت وظيفتك في هذا الوجود؟
هل عرفت لماذا مُنحت عينًا، ولسانًا، وقلبًا، ووقتًا، ومالًا، وبيتًا؟
هل عرفت التسبيح الذي ينتظره الله من حياتك؟

ليست المأساة أن يجهل الإنسان أسرار الكون، بل أن يجهل صلاته هو.

قد يعرف الإنسان أسماء الكواكب، ولا يعرف طريق سجوده.
وقد يدرس قوانين الطيران، ولا يعرف كيف يرفع روحه إلى الله.
وقد يفهم حركة السحاب، ولا يفهم حركة قلبه حين يدعوه ربه.
وقد يقيس سرعة الضوء، ولا يسأل: أين موضع النور في صدري؟

إن المعرفة التي لا تقود إلى الله تبقى ناقصة.
والعلم الذي لا يورث خشية قد يتحول إلى طبقة أخرى من الغرور.
والتأمل في الكون إذا لم ينته إلى التسبيح، فقد وقف عند سطح الآية ولم يدخل إلى معناها.

كل علمٍ لا يجعلك أكثر تواضعًا أمام الله، يحتاج أن يُغسل بنور الخشية.

ثم تختم الآية:

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾

يعلم تسبيح كل مسبح.
يعلم صلاة كل مخلوق.
يعلم الطير في صفوفها.
يعلم الذرة في خضوعها.
ويعلم الإنسان في غفلته أو ذكره.

ما من حركة في الكون خارجة عن علمه.
وما من تسبيحة تضيع.
وما من سجدة صادقة تُنسى.
وما من قلب حاول أن يذكر ربه وسط زحام الدنيا إلا علمه الله.

إذا كان الله يعلم تسبيح الطير في الهواء، أفلا يعلم دمعتك الخفية في الليل؟

هذه الجملة تفتح باب رجاء عظيم. قد تظن أن عبادتك الصغيرة لا قيمة لها وسط هذا الكون الهائل، لكن الله يعلم. يعلم ركعتك. يعلم ذكرك. يعلم مقاومة عينك. يعلم صمتك عن الشائعة. يعلم صدقتك الخفية. يعلم رجوعك عن باب لم يؤذن لك فيه. يعلم عفوك حين قدرت. يعلم استعفافك حين اشتد عليك الاحتياج.

في كونٍ كله يسبح، لا تضيع تسبيحتك الصغيرة.

لا تستصغر ذكرك؛ فربما كانت كلمةٌ واحدة قلتها بصدق أحبّ إلى الله من ضجيج عمرٍ كامل.

ثم تأتي الآية التالية لتضع هذا كله تحت سلطان الملك: ﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ**﴾

من له التسبيح، له الملك.
ومن له الملك، إليه المصير.

لا شيء يخرج عن ملكه. لا السماء العالية، ولا الأرض الواسعة، ولا الطير بينهما، ولا الإنسان بضعفه وغروره. كل شيء لله، وكل شيء يعود إليه. من عرف هذه الحقيقة خفّت عليه أشياء كثيرة. لم يعد يتعامل مع الدنيا كأنها ملك نهائي لأحد. ولم يعد يخاف البشر كأنهم يملكون المصير. ولم يعد يغتر بما في يده، لأنه يعلم أنه مستعار. ولم يعد ييأس مما فاته، لأن الملك لله.

ما دام الملك لله، فلا تخف من فقر الطريق، ولا تغترّ بغنى العابرين.

﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾

هذه الجملة تعيد كل الطرق إلى نهايتها.
مهما اتسعت الأرض، فالمصير إلى الله.
مهما طالت التجارة، فالمصير إلى الله.
مهما علا البيت، فالمصير إلى الله.
مهما جرى الإنسان خلف السراب، فالمصير إلى الله.
ومهما غرق في الظلمات، فالمصير إلى الله.

هذه النهاية ليست تهديدًا فقط، بل طمأنينة أيضًا. من أحب الله، فرجوعه إليه أمل. ومن ظُلم، فرجوعه إلى الله عدل. ومن تعب، فرجوعه إلى الله راحة. ومن عبد الله في الخفاء، فرجوعه إلى الله موعد كشف وكرامة.

المصير إلى الله يخيف الغافلين، ويواسي المظلومين، ويطمئن العابدين.

ثم تمضي السورة إلى مشهد آخر من مشاهد الكون:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾

ما أعظم الانتقال.
من الطير في السماء، إلى السحاب.
من التسبيح الهادئ، إلى حركة المطر والبرد والبرق.

كأن السورة تفتح عيوننا على أن النور ليس في القلب وحده، بل في نظام الكون كله.

﴿يُزْجِي سَحَابًا﴾

يسوقه برفق.

قطعةً بعد قطعة.

لا يراه الإنسان إلا غيمًا يتحرك، لكن خلف الحركة تدبير.

ثم **﴿يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾**، يجمع المتفرق.

ثم **﴿يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾**، طبقات فوق طبقات.

ثم يخرج المطر من خلاله.

من يتأمل السحاب يتعلم أن الله يجمع المتفرق حتى يُنزل منه رحمة.

كم من أشياء في حياتنا تشبه السحاب المتفرق. أحداث لا نفهم اتصالها. تأخيرات. لقاءات. خسارات. بدايات صغيرة. أحزان عابرة. ثم يؤلف الله بينها في وقت لا نعلمه، فيجعل منها ركامًا تنزل منه رحمة لم نكن نتوقعها.

قد يسوق الله إلى حياتك أمورًا لا تفهمها أولًا.

ثم يؤلف بينها.

ثم يجعل منها سببًا لنضجك، أو توبتك، أو رزقك، أو خلاصك من طريقٍ كان سيؤذيك.

ليست كل الغيوم التي تتراكم فوقك نذير عاصفة؛ بعضها يحمل مطرًا تأخر حتى تنضج أرضك.

﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾

المطر يخرج من خلال السحاب.
الرحمة تخرج من موضع كان يحجب الشمس.
وهذا من أسرار الحياة: أن بعض ما يغطي النور في لحظة قد يكون حاملًا للماء. ليست كل غيمة عدوة. وليست كل ظلمة مؤقتة عقوبة. أحيانًا يحجب الله عنك شمسًا لتستقبل مطرًا.

كم من حزنٍ خرج من خلاله فهم.
وكم من منعٍ خرج من خلاله حفظ.
وكم من تأخيرٍ خرج من خلاله نضج.
وكم من ضيقٍ خرج من خلاله دعاء.

قد يخرج الودق من خلال ما كنت تظنه حجابًا عن النور.

ثم يأتي البرد: ﴿**وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ**﴾

السماء ليست فقط مطرًا رقيقًا، بل فيها برد شديد. والبرد قد يكون رحمة في موضع، وأذى في موضع. ﴿**فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ**﴾.

هنا نتعلم أن العطاء والمنع، الإصابة والصرف، المطر والبرد، كلها تحت مشيئة الله. ليس كل ما ينزل من السماء واحد الأثر. الشيء نفسه قد يكون نعمة لقوم، وابتلاءً لآخرين. المطر قد يحيي أرضًا، وقد يغرق أرضًا. والبرد قد ينفع، وقد يتلف. والعبد لا يملك أن يفهم كل أسرار التصريف، لكنه يملك أن يسلم لمن بيده التصريف.

ليس المهم أن تفهم كل ما ينزل عليك، بل أن تعرف من الذي أنزله.

ثم يقول: ﴿**يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ**﴾

البرق لمعان مفاجئ، يكاد يخطف النظر.
بعد آيات النور، تأتي صورة برق يكاد يذهب بالأبصار. وكأن السورة تفرق بين نور يهدي، ولمعان يبهت. ليس كل ضوء صالحًا للنظر الطويل. هناك ضوء يفتح الطريق، وهناك ضوء يخطف العين ثم يتركها في ارتباك.

ليس كل لمعان نورًا هاديًا؛ بعض اللمعان يدهش العين ولا يهدي القلب.

وهذا معنى عميق في زمن اللمعان. أشياء كثيرة تخطف الأبصار: صور، شهرة، زينة، ضجيج، نجاح سريع، كلمات براقة. لكنها قد لا تمنح القلب هداية. قد تبهره لحظة، ثم تتركه أكثر عطشًا. أما نور الله، فهو لا يبهرك ليضيعك، بل يهديك لتعرف الطريق.

ثم تقول السورة: ﴿**يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ**﴾

الليل والنهار يتقلبان.
لا الليل يبقى، ولا النهار يبقى.
لا الظلمة دائمة، ولا الضوء الدنيوي دائم.
كل شيء يتحرك بأمر الله. والزمن نفسه آية متجددة. كل صباح يقول لك: بدأ باب جديد. وكل مساء يقول لك: انتهى شيء من عمرك.

تعاقب الليل والنهار موعظةٌ لا تتوقف، لكن الغافل يراها عادةً لا آية.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾

العبرة ليست لكل عين، بل لأولي الأبصار. لأن البصر الحقيقي ليس أن ترى الأشياء، بل أن تعبر منها إلى معناها. أن ترى الليل فتتذكر ستر الله. وترى النهار فتتذكر بعث الحياة. وترى السحاب فتتذكر التدبير. وترى الطير فتتذكر التسبيح. وترى البرق فتتذكر قدرة الله. وترى المطر فتتذكر رحمته. وترى تقلب الزمن فتتذكر المصير.

البصيرة أن لا تقف عند الشيء، بل تعبر منه إلى الله.

ثم تأتي آية الخلق: **﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**

من الماء الواحد، هذا التنوع العظيم.
كائن يمشي على بطنه.
وكائن يمشي على رجلين.
وكائن يمشي على أربع.
صور لا تنتهي من الخلق، كلها من أصل واحد، وكلها تحت قدرة واحدة.

ما أعظم القدرة حين تصنع من المادة الواحدة عوالم مختلفة. وما أعظم الحكمة حين تعطي كل مخلوق هيئته وطريقته ورزقه وحركته. وما أعجب غرور الإنسان، وهو واحد من هذا الخلق، حين ينسى القدرة التي حملته على رجلين وأعطته عينين ولسانًا وقلبًا.

من عرف أنه مخلوق من ماء، صعب عليه أن يتكبر على خالقه أو على خلقه.

﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾

لا حدود لقدرته. لا يعجزه تنوع، ولا يكرره الخلق حتى يملّ، ولا يضيق علمه بكثرة الصور. هو يخلق ما يشاء، كيف يشاء، متى يشاء. والعبد إذا تأمل هذا، استحيا من ضيق خياله عن رحمة الله وقدرته. من خلق هذا التنوع كله، أليس قادرًا أن يخلق لك مخرجًا؟ من يسوق السحاب، أليس قادرًا أن يسوق إليك رزقًا؟ من يعلّم الطير تسبيحها، أليس قادرًا أن يعلّم قلبك طريقه؟

القدرة التي تدير الكون لا تعجز عن إصلاح قلبك.

ثم تختم هذه المشاهد الكونية بقوله:

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

بعد الطير، والسحاب، والمطر، والبرد، والبرق، والليل، والنهار، والدواب، تأتي الآيات المبينات. كأن الكون كله كتاب مفتوح، والقرآن كتاب منزل، وكلاهما يدل على الله. الآيات في المصحف تشرح الآيات في الكون، والآيات في الكون تجعل القلب أكثر خشوعًا عند آيات المصحف.

لكن الهداية، مرة أخرى، من الله.

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

ليست الهداية إلى انبهار عابر، بل إلى صراط مستقيم. طريق واضح، موصل، ثابت. لأن التأمل إذا لم يوصلك إلى الاستقامة، بقي شعورًا جميلًا. والدهشة إذا لم تتحول إلى عبودية، قد تنتهي كما بدأت. والدمعة عند منظر السماء لا تكفي إن لم تعلّمك أن تخفض بصرك عن الحرام، وتحفظ لسانك، وتقيم صلاتك.

العبرة الحقيقية ليست أن تُعجب بالكون، بل أن تستقيم بعد أن ترى آيات الله فيه.

وهكذا، بعد أن تحدثت السورة عن النور في القلب، ثم عن البيوت، ثم عن الرجال الذين لا تلهيهم التجارة، ثم عن السراب والظلمات، تفتح لنا الكون كله ليكون شاهدًا على الله.

كأنها تقول:
إن لم تجد من الناس من يذكرك، فالطير يذكرك.
وإن ضاقت عليك المدينة، فالسماء واسعة.
وإن كثرت الشائعات، فاسمع تسبيح الوجود.
وإن اختلطت عليك الأضواء، فانظر إلى من يقلب الليل والنهار.
وإن شعرت بالضعف، فانظر إلى قدرة من خلق كل دابة من ماء.

الكون ليس خلفية صامتة لحياتك؛ إنه رفيقٌ في طريقك إلى الله.

فلنخرج من هذا الفصل بعيون جديدة.

إذا رأينا طائرًا، تذكرنا التسبيح.
وإذا رأينا سحابًا، تذكرنا التدبير.

وإذا نزل المطر، تذكرنا الرحمة.

وإذا لمع البرق، تذكرنا القدرة.

وإذا أقبل الليل، تذكرنا السكون والمصير.

وإذا جاء النهار، تذكرنا البعث والعمل.

وإذا رأينا مخلوقًا صغيرًا، تذكرنا أن القدرة لا تغفل عن شيء.

فلا تمر على العالم كالغريب عن آياته.

العالم كله مملوء برسائل من الله.

لكن الرسائل لا يقرؤها إلا من أضاء الله في قلبه بصيرة.

من صار قلبه مشكاة، صار الكون كله حوله كتاب نور.

الفصل السابع عشر

حين يقول اللسان آمنا ولا ينهض القلب

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ۝ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ۝ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۝ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

بعد أن فتحت لنا السورة أبواب الكون، وأرتنا الطير صافات، والسحاب مسوقًا، والمطر خارجًا من خلاله، والليل والنهار يتقلبان بأمر الله، تعود بنا إلى الإنسان.

إلى هذا الكائن العجيب الذي يرى الآيات في السماوات والأرض، ثم قد يعاند.

يسمع النور، ثم يختار زاوية الظل.

يقول بلسانه: آمنا، ثم إذا جاء الامتحان العملي، تراجع قلبه خطوة إلى الوراء.

كأن السورة تقول: ليست المشكلة في قلة الآيات دائمًا، بل في صدق الاستجابة.

الإيمان ليس جملةً يقولها اللسان، بل طريقٌ يمتحن صدقها عند أول حكمٍ لا يوافق الهوى.

تبدأ الآيات بصورة مؤلمة: ﴿**وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا**﴾

الكلمات جميلة.

الإعلان كامل.

الله، والرسول، والطاعة.

لا نقص في العبارة.

لكن القرآن لا يكتفي بجمال العبارة؛ يفتش عما بعدها.

﴿**ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ**﴾

هنا يظهر الفرق بين الإيمان المعلن والإيمان الساكن. هناك من يقول: أطعنا، فإذا دُعي إلى الطاعة تولى. يقول: حكم الله، فإذا جاء حكم الله على غير رغبته ضاق. يقول: رضيت، فإذا امتحن الرضا بقرارٍ يخالف مصلحته، بدأ يبحث عن مخرج.

ما أسهل أن تقول: أطعنا، وما أصعب أن تبقى مطيعًا حين يخسر هواك.

إن اللسان قادر على أن يصنع مشهدًا من الإيمان. يقول ما يحب الناس أن يسمعوه، وما يحب صاحبه أن يراه في نفسه. لكن القلب لا ينكشف تمامًا إلا عند الامتحان. حين يأتي أمر الله في منطقة محبوبة. في مال، أو علاقة، أو خصومة، أو شهوة، أو وجاهة، أو عادة قديمة.

هناك فقط يتبين: هل كان الإيمان سيدًا، أم كان ضيفًا مؤدبًا يجلس في المجلس ما دام لا يعارض أحدًا؟

الإيمان الذي لا يحكم عند الخصومة، سيظل زينةً لا سلطانًا.

ولذلك جاء الحكم القاطع: ﴿**وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ**﴾

ليس لأنهم لم يقولوا. لقد قالوا. وليس لأن العبارة ناقصة. بل لأن القول لم يتحول إلى انقياد. وهذا من أخطر أبواب الخداع: أن يظن الإنسان أن تكرار الألفاظ يعوض غياب الاستجابة.

قد تقول: أحب القرآن.
لكن هل تسمح له أن يصححك؟
قد تقول: أؤمن بالسنة.
لكن هل تقبل حكمها حين تخالف ذوقك؟
قد تقول: الله أعلم.
لكن هل تسلّم حقًا حين لا تفهم الحكمة كاملة؟

ليس الشأن أن تُعجب بالنور، بل أن تسمح له أن يكشف ما لا تحب كشفه في نفسك.

ثم تصف الآية مشهدًا متكررًا في حياة الناس: ﴿**وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ**﴾

لاحظ: القضية ليست دعوة إلى مجلس ذكر فقط، بل إلى حكم. إلى فصل نزاع. إلى موقف قد يربح فيه الإنسان أو يخسر. هنا يظهر الإيمان العملي.

أن تدعو الله ورسوله ليحكما بينك وبين غيرك، لا حين تضمن أن الحكم لك، بل لأنك تؤمن أن الحق أحب إليك من انتصارك.

وما أكثر من يحبون الدين واعظًا، ولا يحبونه قاضيًا.
يحبونه في الخطب، لا في القرارات.
في المواسم، لا في النزاعات.
في التلاوة، لا في توزيع الحقوق.
في لحظات الضعف، لا في لحظات القدرة.

بعض الناس يريدون من الدين أن يواسيهم، لا أن يحكمهم.

والقرآن لا يقبل هذا التقسيم. لا يمكن أن يكون الله نور السماوات والأرض، ثم لا يكون نوره مرجعًا في خصوماتنا. لا يمكن أن نقرأ آية النور بدمعة، ثم إذا وقفنا أمام حقٍّ لغيرنا أطفأنا المصباح بأيدينا. النور الذي لا يدخل المحاكم الصغيرة بيننا، محاكم البيت والمال والكلمة والعلاقة، نور لم نعطه حقه.

حين يختلف الزوجان، أين حكم الله؟
حين يتنازع الشركاء، أين حكم الله؟
حين يُظلم عامل أو قريب أو ضعيف، أين حكم الله؟
حين نغضب ونملك القدرة على الأذى، أين حكم الله؟
حين يكون الحق علينا، لا لنا، هل نأتي مذعنين؟

من علامات صدق الإيمان أن تحب حكم الله وهو يأخذ منك كما تحبه وهو يعطيك.

ثم تكشف الآية مرض الانتقائية: ﴿**وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ**﴾

إذا كانوا يعلمون أن الحكم سيكون لصالحهم، جاءوا مسرعين، خاضعين، مطمئنين، يتحدثون عن الشرع والعدل والحق. فإذا كان الحق عليهم، أعرضوا. فالمشكلة ليست في عدم ثقتهم بالحكم، بل في عبوديتهم لمصلحتهم.

إنهم لا يتبعون الحق لأنه حق، بل لأنه وافقهم.
ولا يرفضون الباطل لأنه باطل، بل لأنه لم يخدمهم.
ولذلك إذا صار الحكم لهم، أحبوا الحكم. وإذا صار عليهم، كرهوا الطريق كله.

من اتبع الحق فقط حين يوافقه، فهو في الحقيقة يتبع نفسه لا الحق.

وهذا امتحان دقيق لنا جميعًا. كم مرة استدعينا النصوص حين كانت معنا، وصمتنا عنها حين كانت علينا؟ كم مرة طالبنا الناس بالعدل ونحن نحتاجه منهم، ثم استثقلناه حين احتاجوه منا؟ كم مرة فرحنا بحكمٍ شرعي لأنه يؤيد موقفنا، لا لأننا نعظم الشريعة؟

إن القلب المريض لا يرفض الدين دائمًا. أحيانًا يستعمله. يأخذ منه ما يقوي حجته، ويترك ما يكسر كبرياءه. يجعل النص سيفًا على غيره، لا مرآة لنفسه.

أخطر استعمال للدين أن تجعله شاهدًا لك دائمًا، ولا تسمح له أن يكون شاهدًا عليك.

ثم يأتي السؤال الكاشف: ﴿**أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ**﴾

القرآن لا يعالج السلوك فقط، بل يذهب إلى القلب. الإعراض عن حكم الله ليس مجرد موقف فكري محايد؛ قد يكون علامة مرض. مرض في الرغبة، في الثقة، في التسليم، في الخوف، في تصور العدل.

المرض هنا ليس ألمًا عابرًا، بل خلل في استقبال الحق. القلب المريض لا يرى الحكم كما هو. يراه تهديدًا إن خالفه، ويراه نعمة إن وافقه. كما أن الجسد المريض قد يستثقل الطعام النافع، كذلك القلب المريض قد يستثقل الحق النافع.

القلب المريض لا يكره الحق دائمًا؛ أحيانًا يكرهه فقط حين يبدأ علاجه.

ثم: **﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾**

هل فيهم ريب؟ هل لم تستقر الثقة في أن الله أعلم، وأن رسوله أعدل، وأن الوحي أهدى؟ الريبة لا تظهر فقط في الأسئلة المعلنة، بل تظهر في التردد العملي. حين لا يسلم الإنسان إلا بعد أن يفهم كل شيء على مراده. حين يجعل عقله القاصر محكمة نهائية على وحي الله. حين يقول بلسانه: الله حكيم، لكنه يتصرف كأنه لا يطمئن لهذه الحكمة.

الريب قد لا يلبس ثوب الإنكار.
قد يلبس ثوب التأجيل.
أو ثوب الحرج.
أو ثوب البحث عن قولٍ أيسر للهوى.
أو ثوب: ليس الآن.
أو ثوب: المسألة تحتاج إعادة نظر، وهو في الحقيقة لا يريد أن ينظر إلا إلى رغبته.

الريب الخفي أن لا تطمئن لأمر الله إلا إذا جاء على مقاسك.

ثم يبلغ السؤال غايته: ﴿**أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ**﴾

يا لها من جملة ترجّ القلب.
أيعقل أن يخاف الإنسان من ظلم الله؟
أيعقل أن يتوجس من حكم الرسول؟
أيعقل أن يظن أن الهوى أرحم به من الوحي، وأن رغبته أعدل من شرع ربه؟

وهذا هو جوهر كل إعراض: سوء ظن بالله، ولو لم يعترف صاحبه. حين يفر الإنسان من حكم الله، فكأنه يقول بفعله: أخاف أن لا ينصفني. أخاف أن يأخذ مني ما أحتاجه. أخاف أن يضيّق عليّ. أخاف أن تفوتني الحياة إذا أطعت.

كل معصية في عمقها سوء ظنٍّ بالله، كأن النفس تقول: في غير طاعتك نجاة أكبر.

لكن الحقيقة تأتي فاصلة: ﴿**بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾

ليس الظلم من الله ولا من رسوله. الظلم منهم. ظلموا أنفسهم حين شكّوا. وظلموا الحق حين أعرضوا. وظلموا الناس حين لم يقبلوا الحكم العادل. وظلموا النور حين أرادوه مشروطًا بمصالحهم.

وهكذا تعيدنا السورة إلى أصلٍ عظيم: الوحي لا يظلم. الله لا يحيف. حكمه ليس عبئًا على الإنسان، بل إنقاذ له من ظلم نفسه. فإذا ثقل حكم الله على القلب، فليفتش القلب عن مرضه، لا عن عيب في الحكم.

إذا ضاق صدرك بأمر الله، فاتهم ضيق صدرك قبل أن تتهم رحمة الأمر.

ثم تأتي الآيات لتصف الوجه الآخر، وجه المؤمنين الصادقين: ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾

هنا يظهر المؤمن في أجمل صورة عملية.

﴿**سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾

ليست عبارة تُقال في ساعة الحماسة فقط، بل موقف حياة. سمعنا حين كان الحكم لنا، وأطعنا. وسمعنا حين كان الحكم علينا، وأطعنا. سمعنا حين فهمنا الحكمة، وأطعنا. وسمعنا حين غابت عنا بعض الحكمة، وأطعنا لأننا نثق بمن أمر.

سمعنا وأطعنا ليست إلغاءً للعقل، بل ثمرة عقلٍ عرف حدوده وعرف كمال ربه.

المؤمن لا يطيع لأنه لا يفكر، بل لأنه فكّر حتى عرف أن الله أحق أن يُتبع. لا يسلم لأنه عاجز، بل لأنه أدرك أن العبودية لله هي أعلى أشكال التحرر

من عبودية الهوى. لا يقول سمعنا وأطعنا مهزومًا، بل يقولها مطمئنًا؛ لأن الذي يدعوه هو الله ورسوله، لا سلطان جائر ولا هوى بشر.

هذه الكلمة تفتح باب الفلاح: ﴿**وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾

الفلاح ليس للذين يعرفون أكثر فقط، بل للذين يطيعون أصدق. ليس لمن يحسنون الكلام عن الإيمان، بل لمن يقبلون حكمه. ليس لمن يستعملون الدين حين ينتصرون به، بل لمن ينقادون له حين يربّيهم ويكسر ما فيهم من كبر.

الفلاح يبدأ حين يصبح الحق أحب إليك من صورتك أمام نفسك.

ثم تجمع الآية مفاتيح الفوز: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾

طاعة، وخشية، وتقوى.

الطاعة فعل الجوارح.
والخشية حياة القلب.
والتقوى حراسة الطريق.

قد يطيع الإنسان ظاهرًا بلا خشية، فتكون طاعته باردة.
وقد يشعر بخشية لحظة، لكنه لا يترجمها إلى طاعة.
وقد يبدأ بالطاعة والخشية، ثم يحتاج إلى التقوى لتستمر الحراسة.

الفوز ليس ومضة شعور، بل طاعةٌ يحييها الخوف وتحرسها التقوى.

والفائزون هنا ليسوا الذين لم يدخلوا معارك داخلية. بل ربما هم الذين غلبوا أنفسهم حين دُعوا إلى الله ورسوله. الفوز أن تنتصر على رغبة الإعراض. أن تأتي إلى الحكم مذعنًا وأنت تعلم أنه قد لا يكون في صالحك الدنيوي. أن تقول: يا رب، أريد الحق ولو أخذ مني.

ما أعظم هذه المرتبة.
أن تفرح بأن يظهر الحق، ولو ظهر ضدك.
أن تحمد الله أن منعك من ظلم، ولو كان الظلم سيمنحك مكسبًا قريبًا.
أن تشعر أن خسارة الهوى ربح، إذا كانت طاعة لله.

من خسر هواه ليربح رضا الله، فقد فاز قبل أن يرى الجائزة.

ثم تعرض السورة مشهدًا آخر من ازدواج القول والعمل: ﴿**وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾

أقسموا بالله جهد أيمانهم.
كلمات كبيرة.
أيمان مغلظة.
استعداد معلن.
لكن القرآن يقول: ﴿**لَا تُقْسِمُوا**﴾.

ليس المطلوب ضجيج القسم، بل صدق الطاعة.
ليس المطلوب أن ترفع صوتك بإعلان الاستعداد، بل أن يظهر صدقك إذا جاء الأمر.

الطاعة لا تحتاج إلى قسمٍ كثير؛ تحتاج إلى قلبٍ ثابت.

كم من إنسان يكثر من الوعود لأنه يشعر في داخله بضعف التنفيذ. يقسم، يؤكد، يبالغ، يعلن، يكرر. لكن الله لا تخدعه البلاغة. الطاعة المعروفة هي التي تظهر من السلوك، لا من كثرة الحلف. ولذلك جاء الختام:

﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

خبير بما وراء القسم.
خبير هل في القلب صدق أم مراوغة.
خبير هل الكلام استعداد حقيقي أم تمثيل ديني.
خبير هل الطاعة معروفة منكم، أم مجرد عبارة مؤقتة.

لا تُتعب لسانك بإثبات صدقك؛ دع طاعتك تشهد.

ثم يأتي الأمر الجامع: **﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾**

هنا تعود السورة إلى طريق الهداية الواضح: **﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾**

الطاعة ليست هامشًا بعد الإيمان. إنها الطريق. ليست قيدًا على النور، بل الطريق إليه. فالذي يريد الهداية بلا طاعة يريد ثمرة بلا شجرة. والذي يقول:

أريد أن أشعر بالنور، لكنه لا يريد أن يستجيب للأمر، كمن يريد المصباح ولا يريد الزيت.

الهداية ليست فكرةً تحفظها، بل طاعةٌ تمشي فيها.

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾

ما أوضحها.

إذا أردتم الهداية، فأطيعوا.
ليس الطريق أن تجمعوا مزيدًا من الحجج فقط.
ولا أن تنتظروا شعورًا غامرًا.
ولا أن تطلبوا نورًا بلا التزام.
الطاعة نفسها تفتح الهداية. كلما أطعت، انكشف لك من الطريق ما لم يكن ينكشف لك وأنت واقف.

بعض أنوار الفهم لا تأتي قبل الطاعة، بل بعدها.

كم من إنسان ينتظر أن يفهم كل شيء ليطيع، ولو أطاع ما علم، لفهم ما جهل. الطاعة تفتح بابًا في العقل والقلب. فمن غض بصره، فهم معنى الطهر أكثر ممن قرأ عنه ولم يجاهده. ومن عفا، فهم معنى المغفرة أكثر ممن كتب عنها ولم يذقها. ومن زكّى ماله، فهم بركة الإنفاق أكثر ممن حسبها بالأرقام. ومن جاء إلى حكم الله مذعنًا، ذاق طمأنينة لا يذوقها من بقي على الحافة.

لا تطلب نور الطريق وأنت ترفض أن تخطو فيه.

ثم تختم الآية: **﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾**

الرسول يبلّغ. يوضح. يدل. ينصح. يقيم الحجة. لكن لا أحد يستطيع أن يطيع بدلًا عنك. لا النبي، ولا العالم، ولا الواعظ، ولا الأم، ولا الصديق. كل إنسان يحمل مسؤوليته. البلاغ مبين، ويبقى السؤال: ماذا ستفعل أنت؟

وهذا يعيد الإنسان إلى جديته. لا يظل يطلب مزيدًا من البيان وهو يعرف المطلوب. أحيانًا لا نحتاج إلى خطبة جديدة، بل إلى طاعة قديمة مؤجلة. لا نحتاج إلى دليل إضافي، بل إلى قلب أشجع. لا نحتاج إلى ضوء أكثر، بل إلى أن نفتح أعيننا للضوء الموجود.

قد لا تكون مشكلتك أن الطريق غير واضح، بل أنك لا تريد أن تدفع ثمن وضوحه.

وفي نهاية هذا الفصل، تقف سورة النور أمامنا بسؤال لا مهرب منه:

هل إيماننا قول أم انقياد؟
هل نأتي إلى حكم الله حين يكون لنا فقط؟
هل نحب النصوص حين تؤيدنا ونفر منها حين تفضحنا؟
هل نقسم كثيرًا على الطاعة ونقصر عند العمل؟
هل نريد الهداية من غير استجابة؟
هل نقول: سمعنا وأطعنا، أم نقولها ما دام الأمر سهلًا؟

إن السورة لا تريد أن تترك النور في منطقة الجمال الوجداني. بعد آية النور، وبعد بيوت النور، وبعد مشاهد الكون، يأتي امتحان الطاعة. لأن النور إذا لم يقدك إلى الانقياد، بقي منظرًا رائعًا على جدار القلب.

أجمل ما يفعله النور فيك أن يجعلك تقول للحق: تقدّم، ولو كنتُ أنا الخاسر.

وهكذا نعرف أن سورة النور لا تبني الإنسان بالخشوع وحده، ولا بالتأمل وحده، ولا بالأحكام وحدها. إنها تبنيه بالصدق عند الامتحان. فالمنافق يحب صورة الإيمان، والمؤمن يحب حكم الإيمان. المنافق يأتي إذا كان الحق له، والمؤمن يأتي لأن الحق حق. المنافق يكثر القسم، والمؤمن تكفيه طاعة معروفة. المنافق يخاف أن يظلمه حكم الله، والمؤمن يخاف أن يظلم نفسه بالإعراض عنه.

فاللهم اجعل قولنا: آمنا، صادقًا في أفعالنا.
واجعل قولنا: أطعنا، ظاهرًا حين نخسر أهواءنا.
واجعلنا إذا دُعينا إليك وإلى رسولك جئنا مذعنين، لا مترددين.
واجعلنا من الذين إذا سمعوا قالوا: سمعنا وأطعنا.
واجعلنا من الفائزين.

من صدق مع النور لم يطلب منه أن يزيّن طريقه فقط، بل أن يحكم قلبه.

الفصل الثامن عشر

حين يصبح الإيمان مشروع أمة

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

بعد أن كشفت السورة حقيقة الطاعة، وميّزت بين من يقول بلسانه ومن ينهض بقلبه، تأتي آية الوعد.

وكأن سورة النور، بعد أن بنت الإنسان من الداخل، وبعد أن طهرت عينه ولسانه وبيته وعلاقته وماله وموقفه من حكم الله، ترفع نظره الآن إلى أفق أوسع: أفق الأمة.

فالنور لا يريد أن يبقى نجاة فردية فقط.
لا يريد أن يكون مصباحًا في صدر رجل ثم ينتهي هناك.
إنه يريد أن يصير عمرانًا، وأمنًا، واستخلافًا، وتمكينًا، وعبادةً ظاهرة في الأرض.

إذا صدق النور في القلب، طلب أن يصير نظامًا في الحياة.

تبدأ الآية بكلمة تملأ القلب طمأنينة: **﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾**

ومن أوفى بوعده من الله؟

ليست أمنية بشرية.
ولا تحليلًا سياسيًا.
ولا حماسة عابرة.
ولا حلمًا يعلّقه الضعفاء على جدار الخيال.

إنه وعد الله.

والوعد حين يأتي من الله لا يُقاس بضعف الأسباب في يد الناس، بل بسعة القدرة في يد من يملك السماوات والأرض. غير أن وعد الله ليس وعدًا رخيصًا لمن شاء أن يتمنى، بل له أهله وشروطه وطريقه.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾

الإيمان والعمل الصالح.

لا إيمانًا كلاميًا بلا أثر.
ولا عملًا اجتماعيًا بلا عقيدة.
ولا شعارات كبيرة تخلو من الطاعة الصغيرة.
ولا حماسة أمةٍ لم تتربّ عيونها وألسنتها وبيوتها على سورة النور.

التمكين لا يُعطى لأمةٍ تحمل اسم النور ثم تعيش بأخلاق الظلام.

هذه الآية لا تأتي في فراغ. لقد سبقتها سورة كاملة من التربية: لا فاحشة، لا قذف، لا شائعة، لا اقتحام للبيوت، لا عين منفلتة، لا زينة مستباحة، لا تعطيل

للزواج، لا استغلال للضعفاء، لا سراب، لا ظلمات، لا إعراض عن حكم الله.

ثم بعد ذلك يأتي الوعد.

كأن التمكين ليس هبةً منفصلة عن البناء الأخلاقي، بل ثمرة له. الأمة التي لا تصون أعراضها كيف تؤتمن على الأرض؟ والأمة التي لا تحرس ألسنتها كيف تحرس العدل؟ والأمة التي لا تعرف أدب البيوت كيف تبني حضارة؟ والأمة التي لا تخضع لحكم الله كيف تُستخلف باسمه؟

قبل أن يستخلف الله الأمة في الأرض، يختبر هل استخلفت أمره على نفسها.

﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾

الاستخلاف ليس مجرد امتلاك أرض، ولا غلبة عسكرية، ولا ارتفاع راية، ولا اتساع سلطان. الاستخلاف في القرآن أمانة. أن تقيم في الأرض ما يرضي صاحب الأرض. أن تعلم أن الأرض ليست لك استقلالًا، بل أنت مستخلف فيها. كل قوة تحمل سؤالًا: ماذا ستفعل بها؟ وكل سلطان يحمل امتحانًا: هل ستعدل أم تطغى؟ وكل نعمة عامة تحمل تكليفًا: هل ستجعلها طريقًا إلى الله أم إلى الغرور؟

الاستخلاف ليس أن تملك الأرض، بل أن لا تنسى مالك الأرض وأنت تمشي عليها.

كم من أمة مُكّنت فظلمت، فكان تمكينها استدراجًا.
وكم من جماعة امتلكت القوة، فلما لم تكن طاهرة من الداخل، نقلت أمراضها إلى الحكم.
وكم من إنسان ظن أن الوصول هو النهاية، فإذا بالوصول بداية حسابٍ أعظم.

فالقرآن لا يجعل القوة قيمةً بذاتها. القوة في يد المؤمن عبادة إذا خضعت لله. وفي يد الغافل فتنة إذا أطلقت غروره. لذلك جاء الوعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات، لا للذين حلموا بالقوة فقط.

من لم يتهذب وهو ضعيف، قد يطغى إذا قوي.

﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾

هذه الآية تربط الأمة بسلسلة التاريخ. لسنا أول من سار في طريق الوعد، ولسنا أول من مُحن، ولسنا أول من خاف ثم أُمن، ولسنا أول من انتظر وعد الله. قبلنا أقوام، وتجارب، وسنن، وصعود، وسقوط.

وفي هذا عزاء وتحذير.

عزاء، لأن طريق المؤمنين ليس جديدًا.
وتحذير، لأن السنن لا تحابي أحدًا.
من أخذ بأسباب النور، نال نصيبه.
ومن نكث بعد التمكين، ذاق عاقبة النكث.

التاريخ في القرآن ليس حكاية من مضى، بل مرآة لمن بقي.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ**﴾

يا لها من عبارة.

الدين الذي ارتضاه الله لهم.

ليس الدين الذي فصّلوه على أهوائهم.
ولا الدين الذي أخذوا منه ما يوافق عاداتهم وتركوا ما يزكيهم.
ولا الدين الذي جعلوه شعارًا بلا خضوع.
بل الدين الذي ارتضاه الله.

والتمكين الحقيقي هو تمكين هذا الدين، لا تمكين الأسماء المجردة. أن يصبح الحق عزيزًا، والعدل ظاهرًا، والصلاة قائمة، والزكاة مؤداة، والحياء مصونًا، والأعراض محفوظة، والبيوت آمنة، وحكم الله مطاعًا.

ليس النصر أن يعلو اسم الدين فقط، بل أن تعلو أخلاقه وأحكامه في حياة الناس.

كم قد يُرفع شعار الدين وتغيب رحمته.
وقد يُذكر اسمه وتُنسى عدالته.
وقد تُرفع رايته وتُكسر قلوب تحتها.
وقد يتحدث الناس عن التمكين وهم لا يمكّنون القرآن من ألسنتهم وأعينهم وبيوتهم.

أما آية النور فتتكلم عن دينٍ ارتضاه الله، لا عن صورة يرضاها الناس. والدين الذي ارتضاه الله لا يبدأ من المنابر فقط، بل من قلب يخاف، ولسان يصدق، وعين تغض، وبيت يستأذن، وسوق لا يلهي، وحكم يُقبل.

من أراد تمكين الدين في الأرض، فليبدأ بتمكينه في عاداته الخفية.

ثم يأتي الوعد الثالث: ﴿**وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا**﴾

ما أجمل هذه الجملة في قلب كل خائف.

الخوف قد يكون طويلًا.
خوف على الدين.
خوف على النفس.
خوف على البيت.
خوف من العدو.
خوف من الفتنة.
خوف من الغربة.
خوف من مستقبلٍ لا تظهر ملامحه.

لكن الله يعد بالتبديل. لا يقول فقط: سيخف خوفهم. بل يبدله أمنًا. وكأن الله قادر أن يأخذ المادة نفسها التي صنعت الرعب في حياة المؤمنين، فيحولها إلى طمأنينة. ما كان يقلقهم يصبح شاهدًا على لطفه. وما كان يطاردهم يصبح ذكرى يقولون عندها: لقد صدق الله وعده.

الأمن الحقيقي ليس غياب الخطر فقط، بل حضور الله في قلب الخائف.

ومع ذلك، فالأمن في الآية ليس مكافأة دنيوية منفصلة عن العبودية. يأتي بعدها مباشرة: ﴿**يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا**﴾

هنا سر الوعد كله.

الاستخلاف لأجل العبادة.
والتمكين لأجل العبادة.
والأمن لأجل العبادة.

ليست الغاية أن يرتاح المؤمنون فحسب، بل أن يعبدوا الله بلا شرك. أن تتحرر الأرض من الخوف الذي يعطل العبادة، وأن تتحرر القلوب من الشرك الذي يفسد العبادة. فالأمن إذا لم يقُد إلى عبادة، قد يتحول إلى غفلة. والتمكين إذا لم يحرسه التوحيد، قد يتحول إلى طغيان.

إذا لم يزدك الأمن عبادة، فقد يتحول من نعمة إلى امتحان صعب.

﴿**لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا**﴾

شيئًا.

لا صنمًا ظاهرًا، ولا هوى مستترًا، ولا خوفًا يزاحم خوف الله، ولا مالًا يأخذ مقام التوكل، ولا بشرًا يُطاع في معصية، ولا شهرةً تصبح قبلة القلب، ولا حزبًا أو جماعة أو ذاتًا أو مصلحةً تعلو على أمر الله.

الشرك ليس صورة واحدة. قد يكون ظاهرًا جليًا، وقد يكون خفيًا يتسلل إلى النية. والآية تجعل التوحيد لبّ التمكين. كأن الأرض لا تصلح للمؤمنين حتى تصلح قلوبهم لله وحده.

أخطر الأصنام تلك التي لا تُنحت من حجر، بل تُخفى في القلب باسم الحاجة أو المصلحة.

ثم يأتي التحذير:

﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

بعد ماذا؟

بعد الوعد.
بعد الاستخلاف.
بعد التمكين.
بعد تبديل الخوف أمنًا.
بعد أن ذاقوا فضل الله.

الكفر بعد النعمة أشد قبحًا. والفسق بعد الأمن أقسى من الفسق في لحظة الضعف. فمن عرف فضل الله ثم أعرض، ومن ذاق النجاة ثم نسي المنجي، ومن آمن حين كان خائفًا ثم غفل حين صار آمنًا، فقد خرج خروجًا عظيمًا عن مقتضى الشكر.

النعمة لا تكشف الشاكر فقط؛ تكشف أيضًا من كان يعبد الله على حافة الحاجة.

كم من إنسان يكون قريبًا من الله في الخوف، فإذا جاء الأمن نسي.
يدعو في الضيق، فإذا فُرج عنه عاش كأن الضيق لم يعلمه شيئًا.
يبكي في الضعف، فإذا قوي جفّت عينه.
يتواضع في الحاجة، فإذا اغتنى قسا قلبه.

والأمة كذلك. قد تتضرع في المحن، فإذا مُكنت نسيت أن التمكين أمانة. لذلك تأتي الآية بالتحذير بعد الوعد، حتى لا يتحول الرجاء إلى غرور.

أخوف ما نخافه ليس أن يتأخر الوعد، بل أن يأتي الوعد فلا نكون أوفياء له.

ثم تأتي الآية التي تردّ الأمة من أفق التمكين الواسع إلى وظائف العبادة الثابتة: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾

بعد الوعد بالاستخلاف، لا تقول الآية: فأعدوا الخطط فقط، ولا: احسبوا موازين القوة فقط، مع أهمية كل سبب مشروع. بل تقول أولًا: أقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأطيعوا الرسول.

كأن أساس الدولة المؤمنة يبدأ من سجدة، ومن مالٍ مطهّر، ومن طاعةٍ صادقة.

الأمة التي لا تقيم صلاتها لا تستطيع أن تقيم نورها في الأرض.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾

الصلاة هنا ليست شأنًا فرديًا معزولًا. إنها عمود الأمة. حين تضيع الصلاة، يضيع ترتيب الأولويات. وحين تُقام، تتعلم الأمة الانضباط، والخضوع، والطهارة، ووحدة الوجهة. في الصلاة يقف الغني والفقير، الحاكم والمحكوم، القوي والضعيف، كلهم أمام الله. هذا المعنى وحده يهدم أوهام الاستعلاء.

الصلاة تذكر الأمة أن فوق كل رأس رأسًا لا ينحني إلا لله.
وأن فوق كل سلطة سلطة الله.
وأن كل قوة ينبغي أن تسجد قبل أن تحكم.

من لم يتعلم السجود لله، قد يطلب من الناس أن يسجدوا له بطرق أخرى.

﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾

الزكاة بعد الصلاة. لأن المجتمع المؤمن لا يكفيه أن يصلي أفراده بينما يجوع ضعفاؤه. الزكاة تجعل النور يتحرك في المال. تمنع الثروة من التحول إلى قلاع معزولة. تذكر الغني أن ما في يده ليس له وحده، وتذكر الفقير أن المجتمع المؤمن لا ينساه.

إن تمكين الدين لا يكون مع شحٍّ يترك المحتاجين على أطراف الطريق.
ولا مع مالٍ لا يعرف حق الله.
ولا مع اقتصادٍ يلمع في الأعلى بينما تنكسر القلوب في الأسفل.

المال الذي لا يرحم، يطفئ من نور المجتمع بقدر ما يتراكم.

﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾

مرة أخرى تعود الطاعة. لأن الصلاة والزكاة لا تنفصلان عن المنهج. وطاعة الرسول ليست ذكرًا تاريخيًا لمقامه، بل اتباعٌ حيّ لهديه. أن يكون مرجع الأمة في تصورها للحق، وفي أخلاقها، وفي ميزانها، وفي طريقة نصرتها للدين، وفي رحمتها وعدلها.

لا تمكين بلا طاعة.
ولا رحمة بلا طاعة.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

كأن الرحمة ثمرة هذه الثلاث: صلاة تقيم الصلة بالله، وزكاة تقيم الصلة بالخلق، وطاعة تقيم الصلة بالوحي.

الرحمة لا تنزل على الفوضى؛ تنزل على قلوبٍ رتبت علاقتها بالله وبالناس وبالرسول.

ثم تقول السورة:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾

بعد الوعد، وبعد الأمر بالصلاة والزكاة والطاعة، يأتي تثبيت القلوب أمام قوة الكافرين. لا تحسبنهم معجزين. لا تظن أن قوتهم تفلت من الله. لا تنظر إلى

اتساع سلطانهم وكأنهم خرجوا من قبضة الملك. قد يملكون أسبابًا، وقد يتحركون في الأرض، وقد يظهرون غالبين لحظة، لكنهم ليسوا معجزين.

لا تخف من قوةٍ تتحرك في ملك الله؛ فكل قوةٍ محكومة بمن خلقها.

هذه الآية لا تدعو إلى الغفلة عن أسباب القوة، ولا إلى الاستهانة بالسنن، لكنها تمنع القلب من الانكسار أمام الباطل. المؤمن لا يعبد موازين اللحظة. يعرف أن الظالم قد يطول مشيه، لكنه لا يخرج من الأرض التي يملكها الله. ويعرف أن من فرّ من حكم الله في الدنيا، ينتظره مصير لا يفر منه.

﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾

المصير هو الكلمة الأخيرة، لا المشهد المؤقت.
ومن لا يرى إلا المشهد المؤقت قد يضطرب.
أما من يرى المصير، فيستقيم قلبه.

العبرة ليست بمن يعلو لحظة، بل بمن ينجو نهاية.

وهكذا تجمع هذه الآيات بين الوعد والعمل والطمأنينة والتحذير.

وعد بالاستخلاف.
وعمل صالح قبل الوعد.
توحيد يحرس التمكين.
صلاة وزكاة وطاعة تجلب الرحمة.
وتثبيت أمام قوة الباطل.

إنها ليست آية سياسية بالمعنى الضيق، ولا آية وعظية بالمعنى المنعزل، بل آية حضارية روحية. تقول للأمة: إن أردتم الأمن، فابنوا الإيمان. وإن أردتم التمكين، فابدؤوا بالطاعة. وإن أردتم أن يبدل الله خوفكم أمنًا، فلا تجعلوا الأمن سببًا لنسيانه.

لا يُبنى مستقبل الأمة بالخطط وحدها، بل بالقلوب التي تستحق أن تحمل الخطط.

وفي هذا الفصل نرى سورة النور وقد بلغت معنى عظيمًا: أن الطهر الشخصي ليس منفصلًا عن النهوض العام. العين التي تغض تسهم في بناء الأمة. اللسان الذي يكف عن الشائعة يسهم في أمن الأمة. البيت الذي يحفظ الاستئذان والستر يسهم في حضارة الأمة. التاجر الذي لا تلهيه تجارته يسهم في تمكين الأمة. الغني الذي يؤتي الزكاة يسهم في رحمة الأمة. والقلب الذي يقول لحكم الله: سمعنا وأطعنا، هو اللبنة الأولى في مجتمع لا يخاف إلا الله.

الأمة الكبيرة تبدأ من طاعة صغيرة صدق فيها صاحبها وهو لا يراه أحد.

فلنسأل أنفسنا:

هل نريد وعد الله ونحن لم نأخذ بشروطه؟
هل نطلب الأمن وبيوتنا مليئة بأسباب الخوف من الله؟
هل نطلب التمكين ودين الله لم يتمكن بعد من عاداتنا؟
هل نريد الاستخلاف ونحن لا نستخلف الصلاة على أوقاتنا، ولا الزكاة على أموالنا، ولا الطاعة على أهوائنا؟
هل نخاف قوة الباطل أكثر مما نخاف ضعف صدقنا؟

إن سورة النور لا تريد أن تتركنا في أمنية وردية. إنها تقول: وعد الله حق، لكن الطريق إليه حق أيضًا. فلا تطلبوا الثمرة وأنتم تهملون الجذر. ولا تطلبوا نورًا عامًا وأنتم تطفئون المصابيح الخاصة في قلوبكم وبيوتكم.

من أراد أن يبدل الله خوفه أمنًا، فليبدل هو غفلته طاعة.

وفي النهاية، تقف آية الوعد كنافذة واسعة في السورة. بعد كل تفاصيل الطهر، تقول لنا: هذه التفاصيل ليست صغيرة. إنها تصنع أمة. من حفظ اللسان حفظ الثقة. ومن حفظ العين حفظ البيوت. ومن حفظ البيوت حفظ المجتمع. ومن أطاع الله ورسوله صار أهلًا للرحمة. ومن تحقق بالتوحيد صار جديرًا بالأمن.

فاللهم اجعلنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات.
واجعل دينك ممكنًا في قلوبنا قبل أن نطلب تمكينه في أرضك.
وبدّل خوفنا أمنًا، وضعفنا صدقًا، وغفلتنا ذكرًا، وتفرقنا اجتماعًا على طاعتك.
ولا تجعلنا إذا أنعمت علينا نسيناك.
ولا تجعلنا نطلب وعدك بألسنتنا وننقض شروطه بأعمالنا.

الوعد الإلهي لا يتأخر عن موعده، ولكن القلوب قد تتأخر عن شروطه.

الفصل التاسع عشر

حين يتعلّم البيت أدب الأسرار

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ...﴾

بعد آية الوعد والاستخلاف، وبعد الحديث عن الأمة والتمكين والأمن، تعود سورة النور إلى البيت.

وهذا من أعجب جمالها.

كأنها تقول: لا تصدقوا أن بناء الأمة يبدأ من الساحات الكبرى وحدها. الأمة تبدأ من الغرفة. من الباب الداخلي. من أدب الطفل حين يدخل. من حرمة وقت الراحة. من معرفة أن للإنسان في بيته أوقاتًا لا يجوز أن تُفاجأ، ولا تُقتحم، ولا تُكشف.

الحضارة التي لا تحفظ أسرار البيوت لا تستحق أن تتحدث كثيرًا عن النور.

تبدأ الآية مرة أخرى بالنداء: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾**

الإيمان هنا حاضر في تفاصيل صغيرة جدًا في ظاهرها: طفل يستأذن، وخادم يستأذن، وأوقات راحة، وثياب توضع، وخصوصية داخل البيت. لكن القرآن

لا يرى هذه التفاصيل صغيرة؛ لأن النور لا يعيش في الشعارات الكبيرة إذا مات في العادات اليومية.

البيت المؤمن ليس مكانًا بلا حدود.
ليس لأن أهله قريبون من بعضهم، تسقط المسافات.
وليس لأن الطفل صغير، يباح له أن يدخل في كل وقت.
وليس لأن الخادم داخل البيت، تضيع حرمة أهله.
وليس لأن الأبواب داخلية، لا تحتاج إلى أدب.

القرب لا يلغي الاستئذان؛ أحيانًا يزيده وجوبًا وجمالًا.

تذكر الآية ثلاث مرات:

﴿مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾
و **﴿حِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ﴾**
و **﴿مِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾**

إنها أوقات انكشاف وراحة وسكون.
قبل الفجر، حيث يخرج الإنسان من نومه.
وفي الظهيرة، حيث يضع ثيابه طلبًا للراحة.
وبعد العشاء، حيث يعود البيت إلى خصوصيته، وتغلق أبواب النهار.

هذه ليست مجرد أوقات. إنها مناطق ستر. والقرآن يعلّم أهل البيت أن يحترموا ستر بعضهم بعضًا، حتى داخل الجدران الواحدة.

ليس الستر أن تخفي نفسك عن الغرباء فقط، بل أن يعرف أهل بيتك متى لا يدخلون عليك.

ما أرقّ هذا التشريع. إنه يربي الطفل من أول عمره أن الناس ليسوا متاحين دائمًا. أن للأم خصوصية. وللأب خصوصية. وللغرفة حرمة. وللراحة أدبًا. وأن الحب لا يعني اقتحامًا، والاعتياد لا يعني إلغاء الحدود.

فالطفل الذي يتعلم الاستئذان في البيت، يكبر وهو يعرف أن للعالم أبوابًا. لا يدخل حياة الناس بعينه، ولا بلسانه، ولا بسؤاله، ولا بفضوله. يتربى داخله حارس صغير اسمه: الأدب.

الطفل الذي يتعلم طرق الباب يتعلم لاحقًا طرق القلوب برفق.

وتسمي الآية هذه الأوقات: ﴿**ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ**﴾

والتعبير هنا بالغ الدقة. العورة ليست عيبًا في الإنسان، بل موضع ستر. إنها تذكير بأن في الحياة مناطق لا ينبغي أن تنكشف بلا اختيار. وأن للإنسان حقًا في أن لا يُفاجأ في ضعفه أو راحته أو خلوته.

كم من البيوت تفتقر إلى هذا المعنى. أبواب تفتح بلا استئذان. خصوصيات تُنتهك باسم العفوية. أطفال يدخلون بلا أدب. كبار لا يراعون مساحات بعضهم. ثم يتساءل الناس لماذا يضيق البيت بأهله، ولماذا تتحول الألفة إلى اختناق.

البيت لا يصير دافئًا بإزالة كل الحدود، بل بوضع حدودٍ رحيمة تحفظ الدفء.

ثم تقول الآية: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾

يا لجمال التوازن.

ليست الحياة كلها استئذانًا ثقيلًا. ولا يريد القرآن أن يجعل البيت مكانًا رسميًا باردًا، يخاف أهله من الحركة فيه. بعد هذه الأوقات الثلاثة، لا حرج؛ لأن أهل البيت يطوف بعضهم على بعض، وتقوم الحياة على حركة دائمة، ودخول وخروج، وخدمة، وقرب.

إن القرآن لا يخنق الألفة، بل يحرسها من الانكشاف المؤذي. لا يحول البيت إلى مؤسسة جامدة، بل يضع له مفاتيح الرحمة. يعرف أن أهل البيت يحتاجون إلى بساطة، لكنه يعرف أيضًا أن البساطة إذا انفلتت أفسدت الستر.

الأدب القرآني ليس تكلفًا؛ إنه ميزان بين الألفة والحرمة.

ثم تقول الآية: ﴿**كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾

عليم بما يصلح البيوت.
حكيم في ما يشرع لها.
يعلم حاجة الإنسان إلى القرب، وحاجته إلى الستر.
يعلم طبيعة الطفل، وحاجة الوالدين، وحركة البيت.

يعلم أن النفس قد تتأذى من اقتحامٍ صغير، وإن لم تستطع التعبير عنه.
ويعلم أن الأدب إذا زُرع في الصغر صار وقارًا في الكبر.

من حكمة الله أنه شرع للبيت ما يحفظ إنسانيته قبل أن يشتكي أهله من فقدانها.

ثم تنتقل الآية التالية إلى مرحلة البلوغ: ﴿**وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾

حين يكبر الطفل، يكبر معه الأدب.
فما كان مخصوصًا بثلاث أوقات، يصبح أوسع.
لأن الإدراك تغير.
والنظر تغير.
والقلب تغير.
والجسد دخل مرحلة جديدة من الوعي والامتحان.

لا يتعامل القرآن مع الطفل وكأنه يبقى طفلًا إلى الأبد.
ولا يتجاهل انتقاله من البراءة الأولى إلى وعي الحلم.
بل يعلّمه أن البلوغ ليس تغيرًا جسديًا فقط، بل دخول في مسؤولية أدبية وروحية.

البلوغ ليس أن يكبر الجسد فحسب، بل أن يكبر معه الحياء.

وهذا من أعظم ما تحتاجه التربية. أن نعلّم أبناءنا الحياء دون أن نخيفهم من أجسادهم. أن نحدثهم عن الاستئذان دون أن نجعلهم يشعرون أن البيت مكان

ريبة. أن نغرس فيهم أن الخصوصية كرامة، وأن الجسد أمانة، وأن النظر مسؤولية، وأن الدخول بلا إذن ليس مجرد خطأ صغير، بل كسر لمعنى الستر.

إن التربية القرآنية ليست صمتًا مرتبكًا، ولا انفلاتًا فوضويًا.
إنها بيان رحيم.
تعطي الطفل لغة للأدب قبل أن تعطيه الدنيا لغة الفتنة.
وتعلمه أن الحياء نور، لا عقدة.
وأن الاستئذان احترام، لا خوف.

إذا لم نعلّم أبناءنا الحياء بلغة النور، ستعلمهم الدنيا الجسد بلغة السوق.

ثم تقول الآية مرة أخرى:

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

يتكرر الوصف: عليم حكيم.
لأن هذه الأحكام تحتاج إلى تسليم. قد يظنها بعض الناس تفاصيل صغيرة، لكن الله العليم الحكيم يعلم أن انهيار الستر يبدأ غالبًا من تفاصيل صغيرة. يعلم أن العين إذا اعتادت على عدم الاستئذان ضعفت حساسيتها. يعلم أن البيوت إذا فقدت أدب الداخل، صعب عليها أن تحفظ أدب الخارج.

لا تستصغر أدبًا علّمك الله إياه؛ فالله لا يشرع العبث.

ثم تنتقل السورة إلى حكم آخر بالغ الرقة والرحمة: **﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾**

هنا يتجلى توازن الشريعة مرة أخرى. فالمرأة التي كبرت، وانصرفت عنها دواعي النكاح عادة، خفف الله عنها في بعض ما يشق، من غير أن يفتح باب التبرج. فهناك رحمة بالسن، ومراعاة للواقع، مع بقاء روح الحياء.

﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾

ليس المقصود خلع الحياء، ولا طلب الأنظار، ولا إعلان الزينة، بل التخفف من بعض الثياب الظاهرة حيث لا فتنة ولا تبرج.

الشريعة تعرف تغير أحوال الإنسان، لكنها لا تتخلى عن نور الحياء في أي عمر.

ثم تقول:

﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾

حتى مع الرخصة، يبقى مقام العفة أعلى.
ليس لأن الرخصة خطأ، بل لأن الزيادة في الستر باب فضل.
والقرآن هنا لا يقسو، بل يفتح درجتين: رخصة مباحة، وفضيلة أعلى.
يعطي السعة، ثم يدل على الأكمل.

وهذا من جمال الإسلام.
ليس كل مباح هو الأعلى.
وليس كل تركٍ للمباح تشددًا.
قد يفتح الله لك باب رخصة، ثم يدعوك إلى باب كمال إن استطعت.
والقلب المضيء يفرّق بين ما يجوز، وما هو أزكى.

النور لا يسأل دائمًا: ما الحد الأدنى المباح؟ بل يسأل أحيانًا: ما الأجمل عند الله؟

ثم تختم الآية: ﴿**وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾

سميع لما يقال حول الستر والحياء.
عليم بالنيات: هل هو تخفف بريء، أم تبرج يريد الأنظار؟
عليم بمن اختارت العفة حبًا، ومن أخذت الرخصة حاجة، ومن التفت على المعنى باسم الرخصة.

فالظاهر وحده لا يكفي.
والرخصة لا ينبغي أن تتحول إلى حيلة على الحياء.
والاستعفاف لا ينبغي أن يتحول إلى قسوة على من أخذت بما أذن الله.

في مسائل الستر، الله لا يرى الثوب فقط؛ يرى القصد الذي يلبسه القلب معه.

ثم تأتي آية واسعة في رفع الحرج الاجتماعي: ﴿**لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ...**﴾

هنا ننتقل من خصوصية البيت إلى رحمة البيت. من أدب الستر إلى أدب المؤانسة والطعام والقرابة. كأن السورة تقول: لا تجعلوا الأدب جفاءً، ولا تجعلوا الحدود قطيعة، ولا تجعلوا الاستئذان سببًا لإغلاق أبواب الرحمة.

الأعمى، والأعرج، والمريض، ومن فيهم عذر، لا ينبغي أن يشعروا أنهم عبء ثقيل على المجتمع. والقرابة لا ينبغي أن تتحول إلى خوف دائم من الحرج. هناك بيوت مفتوحة بالمودة، وصلات قائمة على الثقة، وطعام يجمع القلوب.

النور يحفظ الخصوصية، لكنه لا يبني بين القلوب جدرانًا من الجفاء.

تعدد الآية بيوتًا كثيرة: بيوت الآباء، والأمهات، والإخوة، والأخوات، والأعمام، والعمات، والأخوال، والخالات، وما ملكتم مفاتحه، والصديق.

ما أدفأ هذه القائمة.

إنها شبكة الرحم والصداقة والثقة. كأن القرآن يرسم للمؤمن خريطة اجتماعية لا تقوم على الفردية الباردة، بل على أبواب يعرفها القلب، وبيوت يشعر فيها الإنسان أنه ليس غريبًا.

الأب بيت.
والأم بيت.
والأخ بيت.
والأخت بيت.
والعم والخال والعمّة والخالة امتداد للدفء.
والصديق الصادق بيت من نوع آخر.

من نعم الله أن يجعل لك في الأرض بيوتًا لا تبدأ عند جدرانك وحدك.

لكن هذه السعة كلها لا تلغي الأدب السابق. فلا تؤخذ آية رفع الحرج ذريعة للاقتحام، ولا تؤخذ آية الاستئذان ذريعة للقطيعة. القرآن يجمع المعنيين: باب له حرمة، وقلب له مودة. بيت له ستر، وطعام له ألفة. استئذان يحفظ الخصوصية، وسماحة تحفظ القرابة.

الشريعة لا تريد بيتًا مكشوفًا، ولا بيتًا موحشًا؛ تريد بيتًا مستورًا رحيمًا.

ثم تقول الآية: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا**﴾

حتى طريقة الأكل تدخل في رحمة البيان. لا حرج أن تأكلوا مجتمعين، ولا حرج أن تأكلوا متفرقين. فليست كل صورة واحدة ملزمة للناس في كل حال. قد تجمعهم المائدة، وهذا جميل. وقد تفرقهم الظروف، ولا حرج.

إن الدين لا يجعل العادة قيدًا حين تختلف الحاجات.
ولا يضيق على الناس فيما وسع الله عليهم.
لكن يبقى أن الاجتماع على الطعام له سرّ جميل: فهو يقرّب القلوب،
ويخفف الوحشة، ويجعل النعمة مشتركة في الوجدان.

المائدة ليست موضع طعام فقط؛ إنها مكان تتعلم فيه القلوب معنى الألفة.

ثم يأتي أدب الدخول العام: ﴿**فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً**﴾

يا لجمال الختام.

بعد كل الحديث عن البيوت، والاستئذان، والخصوصية، والطعام، تأتي التحية. السلام مرة أخرى. فالبيت لا يُدخل إليه بالصمت الثقيل، ولا بالاقتحام، ولا بالجفاء، بل بالسلام.

﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾

لأن المؤمنين كالنفس الواحدة. حين تسلم على أهل بيتك، فأنت تسلم على نفسك بمعنى من المعاني. وحين تنشر السلام، فأنت تنشر الأمن في المكان الذي ستجلس فيه.

السلام ليس كلمة عند الباب؛ إنه إعلان أنني دخلت بلا أذى.

﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾

ليست تحية اجتماعية اخترعها الناس فقط. إنها من عند الله. مباركة، لأنها تزيد الخير. طيبة، لأنها تملأ الجو رفقًا. فما أجمل أن يبدأ البيت بالسلام، وأن يتجدد السلام بين أهله، وأن لا يستهين الإنسان بالتحية لأنها تكررت.

قد يدخل الأب فيسلم.
وتدخل الأم فتسلم.
ويدخل الابن فيسلم.
وتدخل البنت فتسلم.
فيتربى البيت على أن الدخول لا يكون مفاجأة صامتة، بل نسمة أمان.

البيت الذي يكثر فيه السلام يخف فيه الخوف.

ثم تختم الآية: **﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾**

هنا جاء التعليل بالعقل.

لأن هذه الآداب ليست طقوسًا بلا معنى، بل نظام عقلي أخلاقي يحفظ المجتمع من الفوضى. من عقلها عرف أنها تبني إنسانًا متوازنًا: يحترم الخصوصية، ولا يقطع المودة. يعرف الحياء، ولا يقع في الوسواس. يفتح بيوت القرابة، ولا يهدم سترها. يسلم إذا دخل، ولا يجعل حضوره عبئًا.

العقل السليم يرى في آداب سورة النور هندسةً دقيقة للرحمة.

وهنا، في نهاية هذا الفصل، يظهر لنا أن سورة النور لا تترك البيت عند عتبته الخارجية. لقد علمتنا أولًا ألا ندخل بيوت غيرنا إلا بإذن. ثم عادت لتعلمنا أدب الدخول داخل بيوتنا. كأنها تطهر المكان من الخارج والداخل.

فالبيت المؤمن له أبواب خارجية تحميه من الناس.

وله أبواب داخلية تحمي أهله بعضهم من بعض.

وله مائدة تجمع.

وله سلام يبارك.

وله رحمة بالضعيف والمريض.

وله رخصة للقريب والصديق.

وله حياء لا يشيخ.

وله أطفال يتعلمون أن الاستئذان من الإيمان.

البيت في سورة النور ليس مأوى للأجساد فقط؛ إنه مدرسة يومية لتربية الأرواح.

فلنسأل أنفسنا:

هل في بيوتنا استئذان؟
هل نربي أطفالنا على الخصوصية بلا تعقيد، وعلى الحياء بلا خوف؟
هل نحترم أوقات الراحة والستر؟
هل نعرف كيف نوازن بين القرب والحدود؟
هل بيوتنا مفتوحة للرحمة، أم مغلقة بالجفاء؟
هل يدخلها السلام، أم يدخلها الصمت والضيق؟
هل مائدتنا تجمع القلوب، أم يأكل كل واحد وفي قلبه غربة؟
هل يشعر الضعيف والمريض وصاحب العذر أنه مرحب به، أم أنه حمل زائد؟

إن سورة النور تريد للبيت أن يكون مشكاة صغيرة.
فيه ستر.
وفيه سلام.
وفيه رحمة.
وفيه عفة.
وفيه أدب.
وفيه مودة.
وفيه عقل.

إذا صلح البيت، وجد النور مكانًا يستريح فيه قبل أن يخرج إلى العالم.

وهكذا نرى أن آيات الاستئذان الداخلية ليست تفاصيل عابرة بعد آية الاستخلاف، بل هي جزء من الاستخلاف نفسه. الأمة التي تريد أن تحمل

النور في الأرض يجب أن تحفظ النور في غرفها. فالأجيال لا تتعلم الكرامة من الخطب وحدها، بل من باب يُطرق قبل الدخول، ومن سلام يقال عند اللقاء، ومن حياء يراعى، ومن مائدة تجمع، ومن كبير يحترم صغيرًا، ومن صغير يتعلم أن الستر ليس خوفًا بل شرف.

فاللهم اجعل بيوتنا آمنة بالستر، مباركة بالسلام، واسعة بالمودة، مضيئة بالذكر، عاقلة بآداب كتابك.

البيت الذي يحرس أسراره بالحياء ويفتح قلبه بالسلام، بيتٌ أذن الله أن يقترب من النور.

الفصل العشرون

حين يعرف المؤمنون أدب الاجتماع

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

بعد أن علّمتنا سورة النور أدب البيوت، وأدب الدخول، وأدب الاستئذان بين الأطفال والكبار، تنتقل إلى أدبٍ أوسع: أدب الجماعة حين تجتمع على أمرٍ جامع.

فالمؤمن ليس فردًا معزولًا فقط.

إنه جزء من جماعة.

وجزء من مشروع.

وجزء من صفٍّ له إمام، وغاية، ونظام، ومسؤولية.

وكما أن للبيت بابًا لا يُدخل إلا بإذن، فللجماعة باب لا يُخرج منه إلا بإذن.

من لم يتعلم أدب الاستئذان في البيت، صَعُب عليه أدب الانضباط في الأمة.

تبدأ الآية بحصرٍ عظيم: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾**

كأن السورة تريد أن تقول: هنا علامة من علامات الإيمان لا تقل شأنًا عن الشعائر الظاهرة. الإيمان ليس شعورًا في القلب وحده، ولا قولًا باللسان وحده، بل التزامٌ في الجماعة. أن تعرف متى تبقى. ومتى تستأذن. ومتى لا تجعل شأنك الخاص يبعثر الأمر العام.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾

الإيمان بالله ورسوله يظهر هنا في سلوكٍ عملي جدًا: عدم الانصراف من الأمر الجامع بلا إذن. وهذا يعلمنا أن الإيمان إذا صدق، دخل في تفاصيل النظام، لا في لحظات التعبد الفردي فحسب.

الإيمان الذي لا يصنع انضباطًا في صاحبه يبقى ناقص الأثر في حياة الجماعة.

﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾

الأمر الجامع هو ما تحتاج إليه الجماعة، ما يجمع شأنها، ما لا يصح أن يتفرق الناس عنه بحسب أهوائهم. قد يكون مشورة، أو جهادًا، أو مصلحة عامة، أو اجتماعًا تحتاج فيه الأمة إلى حضور أبنائها.

ليس كل شأنٍ يحتمل الانفراد.
وليس كل إنسان يملك أن ينسحب متى شاء إذا كان انسحابه يضعف الصف.
هناك لحظات يصبح البقاء فيها جزءًا من الوفاء.
وهناك مواقف لا يُقاس فيها الإنسان بما يحب، بل بما تحتاجه الجماعة منه.

الأخلاق الكبرى تظهر حين يتعارض شأنك الخاص مع حاجة الصف العام.

ثم تقول الآية: ﴿**لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ**﴾

لم يذهبوا.

ليس لأنهم بلا حوائج.
ولا لأنهم بلا مشاغل.
ولا لأن بقاءهم سهل دائمًا.
ولكن لأنهم يعرفون أن الجماعة المؤمنة ليست ساحة فوضى. وأن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس خطيبًا يستمعون إليه ثم ينصرفون بلا نظام، بل قائدٌ ومربٍّ ومرجع.

الاستئذان هنا ليس شكليًا. إنه إعلان أنني لست أملك نفسي وحدي حين أكون داخل أمرٍ جامع. أنا جزء من معنى أكبر. وحضوري له وزن، وغيابي له أثر.

في الأمور الجامعة، الغياب ليس قرارًا فرديًا خالصًا؛ قد يكون ثغرة في الصف.

ما أكثر ما تحتاج المجتمعات اليوم إلى هذا المعنى.
أن يلتزم الناس بما اجتمعوا عليه.
أن لا يكون كل فرد أمةً مستقلة.
أن لا تُدار الأعمال العامة بالأمزجة العابرة.
أن لا ينسحب الإنسان من المسؤولية لأن شيئًا صغيرًا ضايقه.
أن لا يترك الصف لأن رأيه لم يؤخذ، أو لأن مقامه لم يُذكر، أو لأن نفسه مالت إلى الراحة.

إن السورة تربينا على أن النور ليس فوضى. النور نظام.
كما نظم الله العين، واللسان، والباب، والبيت، ينظم الآن الجماعة.

النور إذا دخل الأمة، صار أدبًا في الصف كما كان أدبًا في القلب.

ثم تؤكد الآية: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾

يا لرفعة الاستئذان.

الذين يستأذنون هم الذين يؤمنون بالله ورسوله.
كأن الاستئذان في هذا الموضع ليس تصرفًا إداريًا فقط، بل علامة صدق.
لأن من استأذن، فقد اعترف بمرجعية الرسول، وبحرمة الأمر الجامع، وبأن له حاجةً لا تلغي حق الجماعة عليه.

وهذا يختلف عن المنافق الذي يتسلل.
المؤمن يستأذن.
المؤمن واضح.
المؤمن لا يختفي من الصف.
المؤمن لا يترك الناس يكتشفون غيابه بعد أن يحتاجوا إليه.

المؤمن لا ينسحب من المسؤولية في الظل؛ إن احتاج أن يذهب، ذهب بصدقٍ وإذن.

ثم تأتي رحمة القيادة:

﴿**فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ**﴾

القرآن لا يلغي حاجات الأفراد. لا يقول: إذا كنتم في أمر جامع فلا شأن لأحدكم بنفسه أو بيته أو ضرورته. بل يعترف بأن للناس شؤونًا. ﴿**لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ**﴾.

ما أرحم هذا الدين.
يعرف الجماعة، ولا يسحق الفرد.
يعرف النظام، ولا يلغي الحاجة.
يعرف الأمر العام، ولا يتعامى عن الهمّ الخاص.

الشريعة لا تبني الجماعة على سحق الأفراد، ولا تبني الفرد على هدم الجماعة.

والإذن هنا مفوض إلى نظر الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿**فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ**﴾. لأن القيادة ترى من المصالح ما لا يراه الفرد. قد يكون انصراف هذا ممكنًا، وانصراف ذاك مؤذيًا. قد تكون الحاجة حقيقية، وقد يكون البقاء أوجب. فالأمر يحتاج إلى حكمة، لا إلى مزاج فردي.

وهنا نتعلم أدبًا مزدوجًا:

على الفرد أن يستأذن.
وعلى القائد أن يراعي.
على الفرد أن لا ينسحب بلا نظام.
وعلى القائد أن لا يحوّل النظام إلى قسوة عمياء.

النظام بلا رحمة يتحول إلى ثقل، والرحمة بلا نظام تتحول إلى فوضى.

ثم تأتي الجملة التي تفيض رقة: ﴿**وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ**﴾

مع أنهم استأذنوا.
ومع أن لهم شأنًا.
ومع أن الإذن قد يُعطى لهم.
ومع ذلك يقول الله لنبيه: استغفر لهم.

لماذا؟

لأن الانصراف عن الأمر الجامع، ولو لعذر، فيه شيء من فوات الخير، وربما شيء من النقص البشري، وربما لأن المؤمن مهما فعل يحتاج إلى استغفار. فالحاجة قد تكون مشروعة، لكن القلب يبقى محتاجًا إلى عفو الله عن تقصيره المحتمل، وعن ضعف نيته، وعن كل ما لا يراه في نفسه.

حتى الأعذار الصادقة تحتاج إلى استغفارٍ يحفظ القلب من الغرور بها.

وهذا يعلّمنا أن المؤمن لا يتعامل مع الاستثناءات كأنها انتصار شخصي. إذا رُخّص له، استحيا. وإذا أُذن له، شكر. وإذا غاب لعذر، لم يفرح بفوات الواجبات العامة، بل سأل الله أن يغفر له وأن يعوضه خيرًا.

كم من الناس إذا وجد عذرًا، بالغ في الاتكاء عليه.
وإذا أذن له، شعر أنه خرج من كل مسؤولية.
أما القلب المضيء، فيأخذ الرخصة بأدب، كما يأخذ العزيمة بأدب.

الرخصة باب رحمة، لا باب استهتار.

ثم تختم الآية: ﴿**إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾

الغفور الرحيم حاضر في شأن الجماعة كما هو حاضر في شأن الفرد. يغفر للذين اضطرتهم حاجاتهم، ويرحم ضعفهم، ويرحم الجماعة بأن شرع لها النظام، ويرحم الأفراد بأن لم يجعل النظام سجنًا.

ما أجمل هذا التوازن في سورة النور.
كلما شددت، فتحت رحمة.
وكلما فتحت رحمة، حفظت حدودًا.
وكلما نظمت، لم تنس الإنسان.

من جمال الشريعة أنها تعرف أن الإنسان ليس آلةً في الصف، ولا فوضى خارجه.

ثم تأتي الآية التالية بأدبٍ عظيم مع مقام الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿**لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا**﴾

لا تجعلوا نداءه كنداء بعضكم بعضًا.
ولا دعاءه لكم كدعاء غيره.
ولا أمره كأمر غيره.
ولا حضوره كحضور أي قائد أو رجل.

للرسول مقام.
ولخطابه هيبة.
ولأمره وزن.
ولندائه حرمة.

الأمة التي لا تعرف مقام نبيها، يختلّ ميزان النور في قلبها.

إن الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم ليس عاطفةً تاريخية فقط، بل جزء من الإيمان. أن لا يُتعامل مع سنته ككلامٍ عادي، ولا مع أمره كاختيار ثقافي قابل للإهمال، ولا مع هديه كتراث جميل لا سلطان له.

لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضًا.

أي لا تذيبوا هيبته في مألوف العلاقات.
ولا تتعاملوا مع ندائه بخفة.
ولا تساووا بين دعوته ودعوة غيره.

فالذي جاء بالنور ليس كغيره.
والذي بلّغ عن الله ليس كغيره.
والذي كانت طاعته طريق الهداية ليس كغيره.

محبة النبي لا تكتمل حتى يصير أمره في القلب أهيب من رغبتنا.

ثم تقول الآية: ﴿**قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا**﴾

يا له من تصوير.

يتسللون لواذًا.

أي يخرجون خفية، يستتر بعضهم ببعض، يلوذ هذا بذاك، كأنهم لا يريدون أن يُرى انصرافهم. هذا ليس استئذان المؤمنين، بل انسحاب المتثاقلين.
خروج بلا وضوح. فرار من الأمر الجامع. جسد كان في الصف، وقلب يبحث عن مخرج.

التسلل من الواجبات يبدأ غالبًا قبل حركة الجسد؛ يبدأ حين يفتش القلب عن حيلة للغياب.

كم يختلف هذا عن الاستئذان.

المؤمن يستأذن بوجهه.

والمتسلل يخرج بظهره.

المؤمن يعلن حاجته.

والمتسلل يخفي رغبته.

المؤمن يحفظ هيبة الجماعة.

والمتسلل لا يهمه إلا أن ينجو بنفسه من التكليف.

والله يعلم.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾

يعلم من بقي صدقًا، ومن بقي حياءً من الناس لا حبًا للحق.

يعلم من ذهب بعذر، ومن ذهب بهوى.

يعلم من استأذن، ومن تسلل.

يعلم من يلوذ بغيره، ويجعل الزحام غطاءً لضعف وفائه.

يمكن أن تختفي عن عيون الناس في الزحام، لكنك لا تختفي عن علم الله.

ثم يأتي التحذير: **﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**

هذه من الآيات التي ينبغي أن يرتجف عندها القلب.

﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾

أمر النبي صلى الله عليه وسلم ليس خفيفًا. مخالفته ليست مجرد اختلاف رأي. قد تصيب صاحبها فتنة. والفتنة هنا قد تكون في القلب قبل أن تكون في الخارج. فتنة تلتبس عليه فيها الحقائق. فتنة يزين له فيها الباطل. فتنة يفقد بها حساسية الطاعة. فتنة يرى فيها أمر الرسول ثقيلًا ورأيه هو أرجح.

أخطر عقوبة للمخالفة أن يُفتن القلب حتى لا يرى المخالفة مخالفة.

قد يعصي الإنسان ثم يتوب؛ فهذا يرجى له خير عظيم.
لكن الفتنة أن يعصي ثم يبرر.
أن يخالف ثم يتكبر.
أن يسمع الأمر ثم يبحث عن ألف مخرج لا لأنه عاجز، بل لأنه لا يريد.
أن يصبح أمر النبي صلى الله عليه وسلم في قلبه مادة نقاش بارد، لا نداء هداية.

ثم: **﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**.

فتنة في الدنيا، أو عذاب أليم.
والعبد العاقل لا يستهين بأمرٍ ختم الله مخالفته بهذا التحذير.

لا تقِس خطر المعصية بحجمها في عينك، بل بمقام من عصيت أمره.

وهنا تعود بنا السورة إلى أصل الطاعة الذي سبق: **﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾**. الطاعة هداية، والمخالفة فتنة. طريقان واضحان. ليس النور غامضًا. من

أطاع، ازداد نورًا. ومن خالف مستكبرًا، خاف عليه من ظلمة لا يدري متى تسكن قلبه.

ثم تختم السورة تقريبًا بآية الملك والعلم:

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

﴿أَلَا﴾

أداة تنبيه.

استيقظوا.

انتبهوا.

لا تنسوا الحقيقة الكبرى بعد كل هذه التفاصيل.

﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

كل شيء له.

البيوت له.

الأجساد له.

الأبصار له.

الألسنة له.

الأموال له.

الجماعات له.

الأوامر له.

الأرض التي تستخلفون فيها له.

والسماء التي ترفعون إليها وجوهكم له.

من عرف أن كل شيء لله، استحيا أن يستعمل شيئًا من ملك الله في مخالفة الله.

﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾

ما أنتم عليه.

ليس فقط ما تقولون.

ولا فقط ما تظهرون.

بل الحال كله.

حقيقة الموقف.

باطن الطاعة.

صدق الاستئذان.

خديعة التسلل.

نور القلب.

غبار الزجاجة.

مرض النية.

تعب المجاهدة.

كل ما أنتم عليه يعلمه الله.

يا لها من خاتمة لسورة النور.
بدأت السورة بآيات بينات لعلنا نتذكر، وها هي تختم بعلم الله بكل شيء، لعلنا نستحي.

أن يعلم الله ما أنت عليه، نعمةٌ إذا كنت صادقًا، ورهبةٌ إذا كنت مراوغًا.

ثم: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾

كل السير ينتهي بالرجوع.
كل الأبواب، والبيوت، والأسواق، والمجالس، والأسرار، والألسنة، والأبصار، والجماعات، والخصومات، والرخص، والعزائم، كلها ترجع إلى الله.

ثم: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾

سيخبرهم.
لا لأن الله يحتاج إلى إخبارهم ليعلموا فقط، بل ليواجهوا حقيقة أعمالهم.
كم من عمل نسيه صاحبه.
وكم من كلمة ظنها ذهبت.
وكم من نظرة لم يحسبها شيئًا.
وكم من باب اقتحمه.
وكم من حق ضيعه.
وكم من نور حفظه لله.
كل ذلك سيُنبَّأ به.

سيأتي يوم تسمع فيه قصة حياتك من العليم الذي لا ينسى.

ثم الخاتمة: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

بكل شيء.

لا يخرج عن علمه شيء من نور ولا ظلمة.

يعلم الإفك ومن حمله.

والعفو ومن صدق فيه.

والنظرة ومن غضها.

والزينة ومن حفظتها.

والاستئذان ومن أدبه.

والبيت ومن رفعه.

والتجارة ومن لم تلهه.

والسراب ومن ركض خلفه.

والظلمات ومن غرق فيها.

والطير في تسبيحه.

والقلب في تردده.

والمؤمن حين يقول: سمعنا وأطعنا.

والمتسلل حين يلوذ بالزحام.

سورة النور تبدأ بتعليمنا كيف نحرس الضوء، وتختم بتذكيرنا أن الله يرى كل مصباحٍ وكل ظل.

وهكذا نصل إلى أواخر السورة وقد تغير معنى النور في القلب. لم يعد النور كلمة جميلة فقط. صار نظام حياة كاملًا.

النور أن تصون الجسد.

أن تحرس اللسان.

أن تتثبت من الخبر.

أن تقتل الشائعة.

أن تعفو حين يكون العفو رفعة.

أن تستأذن عند أبواب الناس.

أن تغض بصرك.

أن تسهّل الحلال.

أن تستعفف إن لم تجد.

أن لا تستغل ضعف أحد.

أن تجعل قلبك مشكاة.

أن ترفع بيتك بالذكر.

أن تدخل السوق ولا يسرقك السوق من الله.

أن لا تغتر بالسراب.

أن ترى الكون مسبحًا.

أن تطيع الرسول.

أن تنضبط في الجماعة.

أن تعرف أن كل شيء لله، وأنك راجع إليه.

النور ليس لحظة إشراق، بل عهد طويل مع الله في التفاصيل.

وفي نهاية هذا الفصل، لا بد أن يسأل القارئ نفسه:

هل أنا ممن يستأذن أم ممن يتسلل؟
هل أحترم الأمر الجامع أم أضع شأني فوق كل شأن؟
هل لمقام النبي صلى الله عليه وسلم هيبة في قلبي؟
هل أخاف مخالفة أمره كما أخاف خسارة شيء من الدنيا؟
هل أعيش وأنا أعلم أن لله ما في السماوات والأرض؟
هل يطمئنني أن الله يعلم ما أنا عليه، أم يخيفني؟

إن سورة النور لا تتركنا نغادرها بلا مسؤولية.
لقد أضاءت لنا الطريق، ثم قالت: الله يعلم ما أنتم عليه.
كأنها تضع المصباح في أيدينا، ثم تذكرنا أن صاحب النور يرانا.

من خرج من سورة النور ولم يخف على قلبه من الظلمة، فقد مرّ بالمصباح ولم يحمل منه شيئًا.

فلنختم هذا الفصل بدعاء يليق بآخر السورة:

اللهم يا نور السماوات والأرض، اجعل لنا نورًا في قلوبنا، ونورًا في ألسنتنا، ونورًا في أبصارنا، ونورًا في بيوتنا، ونورًا في أعمالنا، ونورًا في اجتماعنا، ونورًا يوم نرجع إليك.

اللهم لا تجعلنا ممن يقولون آمنا ثم يتولون.
ولا ممن يخالفون عن أمر رسولك.
ولا ممن يتسللون من مواضع المسؤولية.
واجعلنا ممن إذا دُعوا إلى الله ورسوله قالوا: سمعنا وأطعنا.

وممن إذا وقفوا عند بابٍ استأذنوا.

وإذا سمعوا شائعةً قتلوها.

وإذا رأوا فتنةً غضّوا.

وإذا أُعطوا قوةً عبدوك بها لا أشركوا.

وإذا مُكّنوا شكروك.

وإذا رجعوا إليك وجدوا نورًا يسعى بين أيديهم وبأيمانهم.

آخر درس في سورة النور: لا شيء يضيع في الضوء؛ فالله بكل شيء عليم.

الخاتمة

ماذا يبقى في القلب بعد سورة النور؟

حين يخرج القارئ من سورة النور لا يخرج كما دخل.

لقد دخل إليها وهو يظن أن النور معنى رقيق، فإذا بالسورة تعلّمه أن النور نظام حياة. دخل إليها يبحث عن آية المشكاة والمصباح والزجاجة، فإذا بها تأخذه أولًا إلى اللسان، والعين، والبيت، والباب، والجسد، والعلاقة، والمال، والسوق، والجماعة، والطفل، والشيخ، والمرأة، والرجل، والكون كله.

كأن السورة تقول له في كل خطوة:

لا تبحث عن النور في السماء وحدها،
وابحث عنه في طريقة مشيك على الأرض.

النور ليس ما تتأمله بعيدًا عن الحياة، بل ما تحمله في أدق تفاصيلها.

سورة النور لا تسمح لنا أن نفصل بين الروح والسلوك. لا تسمح أن نقول: قلبي نقي، ولساني يجرح. ولا أن نقول: أحب الله، وعيني لا تستحي. ولا أن نقول: أنا مؤمن، وبيتي بلا ستر. ولا أن نقول: أريد الهداية، وأنا أتبع خطوات الشيطان خطوة خطوة. ولا أن نقول: نعظم القرآن، ثم نعرض عن حكمه حين يمسّ مصالحنا.

إنها سورة تكشف هذا الانفصام العميق بين ما نحب أن نكونه، وما نحن عليه في التفاصيل.

قد يكون الإنسان قريبًا من المعاني الكبيرة، بعيدًا عن صدقها في الأشياء الصغيرة.

في سورة النور يتعلم القلب أن الطهر ليس ترفًا أخلاقيًا، بل ضرورة لسلامة الإنسان. فالزنا ليس علاقة عابرة، والقذف ليس كلمة عابرة، والشائعة ليست خبرًا عابرًا، والنظرة ليست حركة عابرة، والدخول إلى البيوت ليس تصرفًا عابرًا، والانسحاب من الأمر الجامع ليس قرارًا عابرًا.

كل شيء له أثر.
كل شيء له ظل.
كل شيء إما أن يزيد النور، أو يفتح للظلمة منفذًا.

لا توجد أفعال صغيرة حين يكون القلب هو المتلقي الأخير لها.

لقد علّمتنا السورة أن الجسد أمانة، لا سلعة.
وأن العرض حرمة، لا مادة للفضول.
وأن اللسان قد يكون بابًا إلى الجنة أو جسرًا إلى الظلم.
وأن الشائعة إذا لم تجد من يوقفها، مشت على أقدام الصالحين قبل الفاسدين.
وأن العفو مقام عظيم، لكنه لا يلغي عدل الله.
وأن البيوت ليست جدرانًا فقط، بل أسرار وستر وكرامة.
وأن العين إذا لم تتربّ، أتعبت القلب بما لا يطيق.
وأن الزواج ليس مظهرًا اجتماعيًا، بل طريق عفاف وسكن.

وأن الاستعفاف بطولة خفية لا يعرفها إلا الله.
وأن آية النور ليست جملة للزينة، بل قلب السورة وروحها.
وأن البيوت المرفوعة ليست الأغلى ثمنًا، بل الأصدق ذكرًا.
وأن التجارة إذا لم تحرسها الصلاة أكلت القلب.
وأن السراب قد يلمع أكثر من الماء، لكنه لا يروي.
وأن الكون كله يسبح، وأن الغفلة نشاز في نشيد الوجود.
وأن الإيمان لا يصدق حتى يقول عند الحكم: سمعنا وأطعنا.
وأن وعد التمكين لا ينفصل عن شروط الإيمان والعمل والتوحيد.
وأن البيت الصغير جزء من مشروع الأمة الكبير.
وأن الله يعلم ما نحن عليه.

سورة النور ليست سورة تحفظ بها عينك فقط، بل تحفظ بها معنى الإنسان كله.

وإذا أردنا أن نختصر السورة في معنى واحد، فلعلنا نقول:

إنها سورة **حراسة النور**.

تحرس النور من الشهوة إذا انفلتت.
ومن الكلمة إذا طاشت.
ومن الشائعة إذا مشت.
ومن العين إذا جاعت.
ومن البيت إذا انكشف.
ومن العلاقة إذا ابتذلت.
ومن المال إذا ألهى.

ومن القوة إذا أنست صاحبها الله.

ومن الجماعة إذا تسلل أفرادها من مسؤولياتهم.

ومن القلب إذا ظن أنه يملك النور من ذاته.

النور لا يبقى نورًا إلا إذا وُجد من يحرسه بالحياء والطاعة.

لكن السورة، وهي تحرس، لا تخنق.

وهي تمنع، لا تقسو.

وهي تكشف الذنب، لا تغلق باب التوبة.

وهي تضع الحدود، لا تقتل الرحمة.

وهي تربي الحياء، لا تحتقر الجمال.

وهي تصون البيوت، لا تزرع الجفاء.

وهي تدعو إلى العفة، لكنها تفتح باب الزواج.

وهي تجرّم القذف، لكنها تفتح باب التوبة والإصلاح.

وهي تحذر من المخالفة، لكنها تذكر المغفرة والرحمة.

إنها سورة الميزان.

لا نور بلا عدل، ولا عدل بلا رحمة، ولا رحمة بلا طاعة.

وما أجمل أن يخرج الإنسان من سورة النور وفي قلبه أسئلة جديدة:

ما الباب المفتوح في حياتي للظلام؟

ما النظرة التي أحتاج أن أغضها؟

ما الكلمة التي أحتاج أن أدفنها قبل أن تجرح أحدًا؟

ما الشائعة التي ينبغي أن أوقفها؟

ما العلاقة التي تحتاج أن تعود إلى الحلال أو تنتهي؟
ما البيت الذي يحتاج أن يُرفع بالذكر؟
ما المال الذي يحتاج أن يُزكى؟
ما الحكم الشرعي الذي ما زلت أتعامل معه كأنه اقتراح؟
ما الخطوة الصغيرة التي تمشي بي إلى غير الله؟
وأين مشكاتي؟ هل فيها مصباح؟ أم غبار؟ أم ريح تهدد الضوء؟

التدبر الحقيقي يبدأ حين تتحول الآية إلى سؤال لا يتركك كما كنت.

ربما كانت أعظم هدية تقدمها سورة النور أنها تعلّم الإنسان أن لا يثق كثيرًا بظاهره.
فاللسان قد يقول: آمنا.
والعين قد تبدو هادئة وفيها جوع.
والبيت قد يكون مرتبًا وفيه ظلمة.
والعمل قد يكون كبيرًا وهو سراب.
والقلب قد يتحدث عن النور وهو لم يسمح للنور أن يحكمه.

لهذا كانت السورة صادقة وقوية.
لا تترك لنا فرصة أن نختبئ خلف الكلام الجميل.
تأخذنا إلى المواقف: ماذا تفعل إذا سمعت شائعة؟ إذا رأيت فتنة؟ إذا وقفت عند باب؟ إذا قيل لك ارجع؟ إذا خالفت رغبتك حكم الله؟ إذا جاءك المال؟ إذا اجتمعت الأمة على أمر جامع؟ إذا ظُلمت؟ إذا قدرت أن تعفو؟

هناك، في هذه المواضع، يظهر نصيبك من النور.

ليس النور ما تدّعيه في هدوئك، بل ما يبقى منك حين تُختبر.

وفي قلب السورة تبقى الآية الكبرى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾

كل شيء يعود إليها.

إذا أظلمت الشهوة، فالله نور.
إذا أظلمت الشائعة، فالله نور.
إذا أظلم الظلم، فالله نور.
إذا أظلم البيت، فالله نور.
إذا أظلم السوق، فالله نور.
إذا أظلم القلب، فالله نور.
إذا صار العمل سرابًا، فالله نور.
إذا غرق الإنسان في بحر لجي، فالله وحده يجعل له نورًا.

ومن لم يجعل الله له نورًا، فما له من نور.

لا تطلب مصباحك الأخير من يد مخلوق؛ النور الذي لا ينطفئ لا يوهب إلا من الله.

فيا قارئ سورة النور، لا تخرج منها وفي يدك إعجاب فقط.
اخرج منها وفي يدك عهد.
عهد أن لا تجعل لسانك طريقًا إلى ظلمة أحد.
وعهد أن لا تجعل عينك خائنة لقلبك.
وعهد أن لا تقتحم ستر الناس.
وعهد أن تسهّل الحلال ما استطعت.

وعهد أن تقول لحكم الله: سمعنا وأطعنا.
وعهد أن تجعل بيتك أهلًا لأن يقترب من البيوت التي أذن الله أن تُرفع.
وعهد أن تفتش كل يوم عن زجاجة قلبك: هل غطاها غبار؟

من قرأ سورة النور ثم لم يحرس نوافذه، فقد رأى المصباح وترك الريح تدخل عليه.

إن القلب بعد سورة النور ينبغي أن يصير أرقّ وأهيب.

أرقّ على أعراض الناس.
أرقّ على المظلومين.
أرقّ على التائبين.
أرقّ على المقهورين.
أرقّ على أهل بيته.

وأهيب من الحرام.
أهيب من الكلمة.
أهيب من النظرة.
أهيب من الظن.
أهيب من مخالفة أمر الله ورسوله.
أهيب من يومٍ تتقلب فيه القلوب والأبصار.

وهذا هو جمال القرآن: يجمع فيك الرقة والهيبة.
يجعلك رحيمًا بلا تسيب، وحازمًا بلا قسوة، ونقيًا بلا كبر، وطائعًا بلا جمود، ومضيئًا بلا ادعاء.

النور الحق يجعل القلب لينًا أمام الخلق، خاضعًا أمام الحق.

وفي آخر الطريق، لا نملك إلا الدعاء.

اللهم يا نور السماوات والأرض،
يا من تهدي لنورك من تشاء،
اجعل في قلوبنا مشكاة لا تطفئها الفتن،
ومصباحًا لا تزعزعه الرياح،
وزجاجة صافية لا يعتمها الكبر ولا الحسد ولا الشهوة ولا الغفلة.

اللهم طهّر ألسنتنا من القذف والخوض والغيبة والبهتان.
وطهّر أبصارنا من الخيانة والفضول والجوع إلى الحرام.
وطهّر بيوتنا من الفوضى والجفاء وانكشاف الأسرار.
وطهّر أموالنا بالزكاة والبركة.
وطهّر علاقاتنا بالحلال والصدق والوفاء.
وطهّر مجتمعاتنا من إشاعة الفاحشة ومن حب الفضائح.
وطهّر قلوبنا من كل سرابٍ حسبناه ماء.

اللهم اجعلنا من أهل البيوت التي أذنت أن تُرفع.
ومن الرجال والنساء الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكرك.
ومن الذين إذا دُعوا إليك وإلى رسولك قالوا: سمعنا وأطعنا.
ومن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فاستحقوا وعدك.
ومن الذين يحملون النور ولا يطفئونه في غيرهم.

اللهم لا تجعلنا نمدح النور بألسنتنا ونطفئه بأعمالنا.

وإذا كان لا بد لهذا الكتاب أن يترك في القلب جملة أخيرة، فلتكن هذه:

سورة النور تعلّمنا أن الطريق إلى الله ليس هروبًا من الحياة، بل عبورٌ لها بمصباحٍ لا نسمح للظلام أن يقترب منه.

فامضِ في الحياة بعينٍ تستحي.
ولسانٍ يتثبت.
وقلبٍ يتوب.
وبيتٍ يستر.
ويدٍ تعين على العفاف.
وسمعٍ يقتل الشائعة.
وروحٍ تذكر أن الله بكل شيء عليم.

فإنك إن فعلت، لم تكن قد قرأت سورة النور فحسب؛
بل سمحت لها أن تقرأك، وتغسلك، وتضيء فيك ما انطفأ.

ومن أضاء الله قلبه بسورة النور، صار هو نفسه مشكاةً صغيرة في طريق العابرين.

ملحق النور الأول

كيف نعيش سورة النور بعد أن نغلق المصحف؟

ليست الغاية أن نقرأ سورة النور ثم نغلق المصحف ونمضي كأن شيئًا لم يحدث.
فالسورة التي فتحت أبواب القلب، ووقفت عند اللسان والعين والبيت والسوق والجماعة، لا تقبل أن تبقى ذكرى جميلة في صفحة. إنها تريد أن تتحول إلى عادة، وإلى يقظة، وإلى أسلوب حياة.

فالقرآن لا ينزل على القلب ليمنحه لحظة تأثر فحسب، بل لينشئ فيه طريقًا جديدًا.

الآية التي لا تغيّر فيك عادةً، ما زالت تنتظر منك أن تسمح لها بالدخول.

بعد سورة النور، يصبح السؤال العملي هو:
كيف أحرس نوري؟

كيف أجعل هذه المعاني تمشي معي في يومي العادي؟
حين أفتح هاتفي.
حين أجلس في مجلس.
حين أسمع خبرًا عن إنسان.
حين أطرق بابًا.
حين أنظر.

حين أغضب.

حين أختلف.

حين أكون وحدي.

حين أملك القدرة على الحرام ولا يراني أحد.

هنا يبدأ الامتحان الحقيقي.

ما أكثر من يحبون النور في التأمل، وما أقل من يصحبونه في التفاصيل.

مصباح اللسان

أول ما ينبغي أن تخرجه سورة النور من قلبك إلى حياتك: أن يتغير لسانك.

لا تتكلم في عرض أحد بلا بينة.

لا تنقل ما لا تعلم.

لا تقل: سمعت.

لا تقل: الناس يقولون.

لا تجعل فمك ممرًا للظلام.

لا تفتح مجلسًا على غائب لا يستطيع الدفاع عن نفسه.

لا تفرح بخبر سقوط إنسان.

لا تستمتع بفضائح الناس ولو لبست ثوب الغيرة.

قبل أن تتكلم، اسأل نفسك:

هل هذه الكلمة نور؟

هل أملك عليها بينة؟

هل أحب أن تقال عني؟

هل سأستطيع أن أدافع عنها أمام الله؟

هل إن سكتُّ عنها نقص ديني، أم نجا قلبي؟

أحيانًا تكون أصدق عبادة في المجلس أن تسكت.

والسكوت هنا ليس ضعفًا.

إنه قوة من نوع آخر.

قوة أن تملك الكلمة ولا تطلقها.

أن تشعر بلذة المشاركة في الحديث، ثم تتركها لله.

أن تكون قادرًا على إضافة تفصيل مثير، ثم تقول: لا أعلم.

أن تسمع الشائعة في أولها، فتكون أنت قبرها لا جناحها.

طوبى لمن ماتت عند لسانه شائعةٌ كانت ستؤذي قلبًا لا يعرفه.

مصباح العين

ثم يأتي مصباح العين.

أن تتعلم بعد سورة النور أن النظر ليس حقًا مفتوحًا بلا حساب.

العين تؤثر.

وتخزن.

وتقارن.

وتوقظ.

وتفسد.

وتطهّر أيضًا إذا تأدبت.

ليست البطولة أن لا ترى شيئًا، فهذا مستحيل.

البطولة أن تعرف متى تصرف بصرك.

أن لا تمنح الصورة حق الإقامة في قلبك.

أن لا تعيش مستسلمًا لكل مشهد يعبر أمامك.

أن لا تجعل الشاشات تدرب عينك على الجوع، ثم تشكو من اضطراب قلبك.

من أكثر إدخال الصور إلى قلبه، صعب عليه أن يسمع صوت السكينة.

غض البصر ليس حرمانًا.

إنه استرداد لسيادة القلب.

إنه أن تقول للصورة: لستِ أنتِ التي تقودينني.

وأن تقول للشهوة: لكِ طريقك الحلال، ولن أفتح لك كل نافذة.

وأن تقول لله: يا رب، تركت هذه النظرة لك، فاجعل في قلبي بدلها نورًا.

كل نظرة تركتها لله، لم تذهب إلى الفراغ؛ ذهبت إلى خزائن النور.

مصباح البيت

ثم اسأل بيتك: هل هو بيتٌ من سورة النور؟

هل يُستأذن فيه؟

هل يكثر فيه السلام؟

هل تُحفظ فيه الخصوصيات؟

هل يتعلم الأطفال أن الأبواب لا تفتح بلا إذن؟

هل المائدة تجمع القلوب؟

هل للقرآن فيه صوت؟

هل للذكر فيه وقت؟

هل فيه ستر أم انكشاف؟

هل فيه رحمة أم مراقبة قاسية؟

هل فيه حدود رحيمة أم فوضى باسم العفوية؟

البيت ليس مكان نوم وطعام فقط.

إنه المصنع الأول للحياء.

والمدرسة الأولى للثقة.

والحضن الأول لمعنى الستر.

إذا لم يتعلم الطفل حرمة الباب في بيته، صعب عليه أن يحترم أبواب الناس في الحياة.

اجعل في بيتك شيئًا من سورة النور.

سلامًا عند الدخول.

استئذانًا قبل الاقتحام.

رحمةً عند الخطأ.

وضوحًا في تعليم الحياء.

تيسيرًا للحلال.

تطهيرًا للمجلس من الغيبة.

وقتًا للذكر ولو قليلًا.

وسكينةً تجعل الداخل يشعر أن هذا البيت ليس فندقًا للأجساد، بل مأوى للأرواح.

البيت المضيء ليس الذي لا تقع فيه المشكلات، بل الذي يعرف كيف يعود إلى الله حين تقع.

مصباح العلاقات

بعد سورة النور، راجع علاقاتك.

من يقربك من الله؟

ومن يجرّك إلى الظلام؟

من إذا تحدثت معه خرجت أنقى؟

ومن إذا حادثته خرجت أجرأ على المعصية؟

من يحرس حياءك؟

ومن يستهين به؟

من يذكرك بالنور؟

ومن يعلّمك أسماء جديدة للظلام؟

ليس كل قرب محبة.

وليس كل حديث أنسًا.

وليس كل اهتمام طهرًا.

بعض العلاقات تبدأ دافئة وتنتهي رمادًا في القلب.

وبعض الأبواب إن لم تغلقها في أول الطريق، احتجت بعد ذلك أن تخرج منها ممزقًا.

العلاقة التي تطفئ حياءك ليست رزقًا، ولو جاءت في ثوب العاطفة.

الحب في سورة النور ليس ممنوعًا.
لكنه مؤدب.
الحب لا يطلب أن تعصي الله لأجله.
ولا يطلب أن تخفيه في الظلام.
ولا يجعلك تخسر نفسك لتربح إنسانًا.
ولا يسرق منك الصلاة والسكينة والوضوح.

الحب الذي يليق بالنور هو الذي يقول: تعالَ نقترب من الله، لا تعالَ نختبئ منه.

من أحبك حقًا، لم يجعلك أقل حياءً من الله.

مصباح المال

وسورة النور لا تترك مالك خارج المصباح.

هل يلهيك عملك عن الصلاة؟
هل تدخل تجارتك معك إلى السجود؟
هل تخاف على رزقك أكثر مما تخاف على قلبك؟
هل مالك يخرج منه حق الله؟
هل يسهم مالك في عفاف أحد، أو ستر أحد، أو تفريج كربة أحد؟
هل أنت عبد لما تملك، أم مستخلف فيه؟

المال قد يكون نورًا إذا صار عونًا على الطاعة.

وقد يكون ظلامًا إذا صار سيد القلب.

ليس الخطر أن يكون في يدك، بل أن يصير في مركز روحك.

المال إذا جلس على عرش القلب، أخرج منه كثيرًا من النور.

اجعل مالك خادمًا للنور.

أعن به محتاجًا.

يسر به زواجًا إن استطعت.

واسِ به قريبًا.

طهّره بالزكاة.

ولا تسمح لطلب الرزق أن يطرد الرازق من قلبك.

من عرف أن الله يرزق بغير حساب، لم يبع طمأنينته بحساباتٍ ضيقة.

مصباح الطاعة

بعد سورة النور، لا تجعل علاقتك بالقرآن علاقة إعجاب.

قل عند الأمر: سمعنا وأطعنا.

ليس فقط حين يوافقك.

بل حين يربّيك.

حين يخالف مزاجك.

حين يطلب منك أن ترد كلمة.

أو تغض بصرًا.

أو تقطع علاقة.

أو تعفو.
أو تقبل حكمًا ليس لصالح هواك.

هنا يصدق النور.

لا يظهر صدق العبودية حين يوافقك الأمر، بل حين يكسرك برحمة.

وقد تكون الطاعة في البداية ثقيلة.
لكنها تفتح بابًا لا يفتحه التأمل وحده.
كم من معنى لا تفهمه إلا بعد أن تعمل به.
وكم من نور لا يصل إلى القلب إلا بعد سجدة طاعة.
وكم من حلاوة لا تأتي إلا بعد أن تترك شيئًا لله وأنت تشتهيه.

بعض أبواب الفهم لا تُفتح بالمفاتيح، بل بالطاعة.

مصباح التوبة

ولا تظن أن سورة النور لا يدخلها إلا الطاهرون.

بل يدخلها المتعبون.
والعائدون.
والذين تلوثت أعينهم ثم ندموا.
والذين خاضت ألسنتهم ثم بكوا.
والذين دخلوا أبوابًا خاطئة ثم رجعوا.
والذين تأخروا طويلًا ثم سمعوا النداء.

في السورة حدود، نعم.

لكن فيها توبة.

فيها حزم، نعم.

لكن فيها رحمة.

فيها خوف، نعم.

لكن فيها نور لمن عاد.

التوبة ليست خروجًا من سورة النور، بل أحد أبواب الدخول إليها.

لا تقل: لقد أطفأت مصباحي.

قل: يا رب، أعد إشعاله.

لا تقل: غطى الغبار زجاجتي.

قل: يا رب، علمني كيف أمسحها.

لا تقل: تأخرت.

قل: ما دام قلبي يطلب النور، فبابك لم يغلق.

ليس العيب أن تجد في قلبك ظلمة، العيب أن تصالحها وتمنع عنها المصباح.

مصباح اليوم الواحد

ومن أراد أن يعيش سورة النور، فليجعل له في كل يوم أسئلة قصيرة:

هل حفظت لساني اليوم؟

هل غضضت بصري اليوم؟

هل قتلت شائعة أو شاركت في حملها؟

هل طرقت بابًا من أبواب الناس بأدب؟

هل سلمت على أهل بيتي؟

هل جعلت في بيتي ذكرًا؟

هل صليت كمن يريد النور؟

هل ساعدت أحدًا على العفاف أو الستر؟

هل كان عملي خادمًا لعبوديتي أم خصمًا لها؟

هل رجعت إلى الله حين أخطأت؟

ليست هذه الأسئلة للمحاسبة القاسية، بل للإضاءة.

فالقلب مثل البيت؛ إن لم تتعاهده كل يوم، تراكم غباره دون أن تشعر.

حراسة النور لا تكون بقرارٍ واحد، بل بيقظةٍ صغيرة تتكرر كل يوم.

وقد يضعف الإنسان.

لكن الضعف لا يعني سقوط الطريق.

كلما انطفأت زاوية، أعد إشعالها.

كلما تكلمت بما لا ينبغي، تب.

كلما نظرت نظرًا لا يرضي الله، ارجع.

كلما قسا قلبك، اجلس عند آية النور.

كلما شعرت أن الدنيا صارت سرابًا، قل: ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

المهم ألا تسمح للظلمة أن تصبح أثاثًا دائمًا في قلبك.

مصباح الدعاء

وفي آخر هذا الملحق، لا نحتاج إلى نظرية طويلة.
نحتاج إلى دعاءٍ صادق.

اللهم اجعل سورة النور حياة فينا، لا كلماتٍ على ألسنتنا.
اللهم اجعل لنا من اسمك النور نصيبًا في قلوبنا وبيوتنا وأعمالنا.
اللهم لا تجعل أعيننا أبوابًا للفتنة، ولا ألسنتنا طرقًا للشائعات، ولا بيوتنا أماكن للغفلة، ولا أموالنا حجابًا بيننا وبينك.
اللهم إن في قلوبنا زجاجاتٍ غطاها الغبار، فامسحها برحمتك.
وفي صدورنا مصابيح ضعفت، فأوقدها بهدايتك.
وفي حياتنا أبوابٌ دخلت منها الظلمة، فأعنا أن نغلقها بطاعتك.

يا رب، لا تجعلنا نطلب النور في كلماتنا ونرفضه في عاداتنا.

واجعلنا إذا قرأنا سورة النور تذكرنا أن الضوء أمانة.
وأن اللسان أمانة.
وأن العين أمانة.
وأن البيت أمانة.
وأن الجسد أمانة.
وأن المال أمانة.
وأن العلاقات أمانة.
وأن كل ذلك سيعود إليك.

فإن عشنا بها، صارت السورة رفيقة أيامنا.

وإن غفلنا، بقيت تنادينا.

وإن سقطنا، فتحت لنا باب التوبة.

وإن أظلمنا، دلّتنا على المصباح.

سورة النور لا تنتهي عند آخر آية؛ تبدأ حقًا حين تسأل نفسك: أيُّ نورٍ سأحرسه اليوم؟

ملحق النور الثاني

وصايا المشكاة: عهود صغيرة لحراسة النور

بعد سورة النور لا يحتاج القلب إلى اندفاعٍ كبير بقدر ما يحتاج إلى عهود صغيرة صادقة.
فكثير من الناس يتأثرون تأثرًا عظيمًا، ثم يتركون التأثر بلا أبواب يدخل منها إلى الحياة. كأنهم يحملون مصباحًا جميلًا، لكنهم لا يختارون له مكانًا في البيت.

والنور إذا لم يجد عادةً تحمله، بقي ومضة.
والمعنى إذا لم يجد سلوكًا يترجمه، بقي عابرًا.
والتدبر إذا لم ينتهِ إلى عهد، صار متعةً روحية لا تغيّر الطريق.

كل معنى عظيم يحتاج إلى عادة صغيرة تحرسه.

ليكن لسورة النور في حياتنا عهود.
لا عهودًا صاخبة فوق الطاقة، بل عهودًا رقيقة ثابتة.
فالقلب لا يتغير غالبًا بالقرارات الضخمة وحدها، بل بالخطوات التي يكررها في صمت حتى تصير جزءًا من طبيعته.

النور لا يطلب منك أن تصير ملاكًا في يوم، بل أن لا تصالح الظلمة في أي يوم.

العهد الأول: لن أكون طريقًا لشائعة

قل لقلبك:

لن أكون طريقًا لشائعة.

لن أحمل خبرًا يجرح عرض إنسان.

لن أقول: لا أدري، لكنهم يقولون.

لن ألبس الفضول لباس الخوف على الفضيلة.

لن أفتح أذني لكل من جاءني بظلامٍ يريد له منفذًا.

وإذا جاءك الخبر المريب، فليكن أول جوابك من سورة النور:

ما يكون لنا أن نتكلم بهذا.

الشائعة لا تحتاج إلى عدوٍّ كبير؛ يكفيها صديقٌ خفيف اللسان.

إن من أعظم العبادات في زمن الكلام أن تكون إنسانًا يقف عنده الباطل ولا يعبر.

أن تكون آخر نقطة في سلسلة الأذى.

أن يشعر الناس أن مجالسك لا تصلح لرمي الغائبين.

أن يعرف حامل الشائعة أنه إن جاءك بها أطفأت نارها لا زدت لهبها.

اجعل لسانك قبرًا للشائعة، لا جناحًا لها.

العهد الثاني: لن أفتح عيني لكل شيء

قل لنفسك:

ليست كل صورة تستحق أن تدخل قلبي.

وليست كل لقطة عابرة بريئة من الأثر.
وليست كل نظرة تمضي كما جاءت.
أنا لا أحرس عيني لأنني أكره الجمال، بل لأنني أحب قلبي.

غض البصر في زمن الصور الكثيفة ليس تفصيلًا جانبيًا، بل مقاومة يومية.
مقاومة أن لا يكون قلبك ساحة مفتوحة لكل إعلان، وكل جسد، وكل مقارنة، وكل فتنة.

من لم يملك عينه، كثرت الأشياء التي تملك قلبه.

وإذا ضعفت، فتب سريعًا.
لا تجعل النظرة بابًا إلى جلد الذات، بل اجعلها بابًا إلى الرجوع.
قل: يا رب، عيني ضعيفة، وقلبك هو القوي، فاحرسني.

كل غضّ بصرٍ هو إعلان صغير أن الله أحب إليك من لحظة عابرة.

العهد الثالث: سأطرق الأبواب برفق

لا تدخل حياة الناس كما تدخل الريح من نافذة مكسورة.
استأذن.
في الزيارة.
في السؤال.
في النصيحة.
في الدخول إلى الوجع.
في طلب التفاصيل.
في الاقتراب من خصوصياتهم.

فليس كل صمت دعوةً للسؤال.

وليس كل قرب إذنًا بالاقتحام.

وليس كل محبة إلغاءً للمسافة.

القلوب لها أبواب أيضًا، وبعضها لا يُفتح إلا بالطمأنينة.

إذا قال لك أحدهم: ليس الآن، فارجع بلا مرارة.

إذا اعتذر، فلا تحمله فوق اعتذاره ثقل عتبك.

إذا حفظ مساحته، فلا تفسر ذلك نقصًا في محبتك.

ربما كان يحتاج إلى سترٍ لا تعرفه، أو تعبٍ لا يقدر على شرحه.

أحيانًا يكون احترام الباب المغلق أبلغ من ألف كلمة محبة.

العهد الرابع: سأجعل بيتي قابلًا للنور

اسأل بيتك كل أسبوع:

هل فيك سلام؟

هل فيك ذكر؟

هل فيك ستر؟

هل فيك رحمة؟

هل فيك مائدة تجمع، ولو مرة؟

هل فيك مجلس لا تُغتاب فيه الناس؟

هل فيك أطفال يتعلمون الحياء بلا خوف؟

هل فيك كبار يستأذنون كما يطلبون من الصغار أن يستأذنوا؟

البيت لا يضيء بالمصابيح وحدها.
يضئه صوت السلام، وهدوء الستر، وصدق المودة، ووجود الله في التفاصيل.

البيت الذي لا يُذكر فيه الله كثيرًا، تبدأ جدرانه بالضيق ولو اتسعت غرفه.

اجعل في بيتك وردًا صغيرًا من القرآن.
لا يشترط أن يكون طويلًا.
لكن ليكن ثابتًا.
آية تُتلى.
دعاء يقال.
سلام يتكرر.
استغفار عند الخطأ.
جلسة لا يدخلها الهاتف قليلًا.

البيوت لا ترتفع مرة واحدة؛ ترتفع بذكرٍ صغير يتكرر حتى تصير له رائحة في المكان.

العهد الخامس: سأعين على الحلال ما استطعت

سورة النور لا تريد منا أن ننهى عن الظلام فقط، بل أن نفتح أبواب الضوء.
فإن استطعت أن تيسر زواجًا، فافعل.
وإن استطعت أن تخفف شرطًا، فافعل.

وإن استطعت أن تعين شابًا أو فتاة على العفاف، فافعل.
وإن استطعت أن تكون سببًا في ستر بيت، فافعل.

لا تكن ممن يعقّدون الحلال ثم يكثرون البكاء على انتشار الحرام.

من أعان على العفة، فقد شارك في إشعال مصباحٍ لا يعلم مداه إلا الله.

وتذكر دائمًا أن التيسير لا يعني إلغاء الحكمة.
بل يعني أن نميز بين ما يحفظ البيت فعلًا، وما اخترعته المظاهر والناس.
كم من شرطٍ اسمه الكرامة، وهو في حقيقته عبء.
وكم من بساطةٍ يراها الناس نقصًا، وهي عند الله باب بركة.

الحلال حين يصير قريبًا، تنغلق على الشيطان أبواب كثيرة.

العهد السادس: سأقول للحق سمعنا وأطعنا

ليس أصعب ما في الدين أن تعرف الأمر، بل أن تسلم له حين يخالف رغبتك.
أن تقول: هذا حكم الله، وأنا أحتاج أن أرتفع إليه، لا أن أنزله إلى مزاجي.
أن تسمع الآية فلا تبحث فورًا عن مهرب، بل عن موضع الطاعة.

قل لنفسك:
لن أتعامل مع أوامر الله كأنها اقتراحات.
ولن أحب القرآن واعظًا فقط وأرفضه حاكمًا.
ولن أستدعي النصوص حين تكون لي، وأفر منها حين تكون عليّ.

علامة الصدق أن تفرح بالحق حين ينقذك من ظلم نفسك.

إذا جاءك حكم الله على غير هواك، فاعلم أنك أمام باب عظيم من أبواب النور.

ربما كانت تلك اللحظة هي لحظة صدقك الحقيقية.

حين تخسر جدالًا لتربح قلبك.

وتترك شهوة لتربح طمأنينتك.

وتقبل حقًا عليك لتربح نفسك عند الله.

ما أخذه منك الحق لم يكن رزقًا لك، بل كان حجابًا يريد أن يزول.

العهد السابع: سأحذر خطوات الشيطان لا نهاياته فقط

لا تنتظر حتى تصبح في الهاوية ثم تصرخ.

راقب الخطوة الأولى.

الرسالة الأولى.

النظرة الأولى.

المجلس الأول.

الكلمة الأولى.

التبرير الأول.

الفضول الأول.

فالشيطان لا يبدأ غالبًا بقوله: تعال إلى المعصية.

بل يقول: اقترب فقط.

استمع فقط.

انظر فقط.

جرّب فقط.

لا تكن قاسيًا على نفسك.

كل هاوية لها بداية كانت يومًا ما مجرد خطوة صغيرة.

اجعل لك حساسية من البدايات.

فإذا شعرت أن الطريق يأخذك بعيدًا عن الله، لا تفاوضه كثيرًا.

ارجع مبكرًا.

فالرجوع من أول الطريق أيسر من العودة بعد أن تتكاثر القيود.

من رحمة الله أن ينبهك عند أول الطريق؛ فلا تؤجل النجاة إلى آخره.

العهد الثامن: سأغسل زجاجة قلبي كل يوم

القلب زجاجة.

قد لا تنكسر، لكنها تتغبر.

غبار من نظرة.

غبار من كلمة.

غبار من حسد.

غبار من عتب.

غبار من قسوة.

غبار من غفلة طويلة.

ولا بد لهذه الزجاجة من مسحٍ دائم.

بالاستغفار.

بالقرآن.

بالصلاة.

بالصدقة.

بالاعتذار.

بردّ المظالم.

بترك ذنبٍ صار مألوفًا.

بدمعة صادقة لا يراها أحد.

كل استغفارٍ صادق مسحة نور على زجاجة القلب.

لا تنتظر أن يتراكم الغبار حتى لا ترى المصباح.

تعاهد قلبك كما تتعاهد وجهك كل صباح.

واسأل نفسك: ما الذي عتم داخلي اليوم؟

من الذي احتاج أن أسامحه؟

أي كلمة أحتاج أن أستغفر منها؟

أي باب ينبغي أن أغلقه؟

القلب المهمل لا ينطفئ فجأة؛ يتدرج في العتمة حتى ينسى كيف كان الضوء.

العهد التاسع: سأرى الكون بعين الذاكرين

بعد سورة النور، لا تمر على الطير كأنها مجرد طير.

ولا على السحاب كأنه مجرد بخار.

ولا على المطر كأنه مصادفة.
ولا على الليل والنهار كأنهما عادة.

انظر إلى العالم ككتاب مفتوح.
الطير يذكرك بالتسبيح.
والسحاب يذكرك بالتدبير.
والمطر يذكرك بالرحمة.
والبرق يذكرك بالقدرة.
والليل يذكرك بالستر.
والنهار يذكرك بالبعث والعمل.

من أضاء الله بصيرته، صار كل مشهدٍ في الكون واعظًا صامتًا.

لا تجعل العادة تسرق منك الدهشة.
كم مرة رأيت الفجر ولم تتذكر أن الله أعاد إلى العالم ضوءه؟
كم مرة رأيت المطر ولم تشعر أن السماء ما زالت ترسل رسائل الرحمة؟
كم مرة رأيت طائرًا ولم تسمع في قلبك معنى: **كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه؟**

الغفلة أن يتكرر الجمال أمامك حتى لا يعود يقول لك شيئًا.

العهد العاشر: سأطلب النور من مصدره

لا تطلب النور من التصفيق.
ولا من الشهرة.
ولا من الجمال.
ولا من المال.

ولا من الانتصار على الناس.

ولا من كثرة الكلام عن نفسك.

كل هذه أضواء عابرة.

بعضها يلمع ثم يترك القلب أكثر ظلمة.

اطلب النور من الله.

قل كثيرًا:

يا نور السماوات والأرض، اجعل لي نورًا.

نورًا في قلبي.

نورًا في سمعي.

نورًا في بصري.

نورًا في لساني.

نورًا في بيتي.

نورًا في عملي.

نورًا في قبري.

نورًا يوم ألقاك.

من جعل الله مصدر نوره، لم يطفئه انطفاء الناس حوله.

قد يقل مديح الناس لك، ويبقى نورك.

قد تضيق بك الدنيا، ويبقى نورك.

قد تخسر شيئًا تحبه، ويبقى نورك.

قد تمشي وحدك، ويبقى نورك.

لأن النور الذي من الله لا يعيش على هواء التصفيق.

النور الرباني لا يزيده جمهور ولا ينقصه غيابهم.

عهد أخير

قل في نهاية كل يوم:

يا رب، ماذا فعلت بنوري اليوم؟
هل حفظته أم بددته؟
هل قربت منه أم ابتعدت؟
هل كنت سببًا في نور أحد، أم سببًا في عتمته؟
هل تركت وراءي كلمة طيبة، أم كلمة جارحة؟
هل مشيت اليوم خطوة إلى المشكاة، أم خطوة إلى الظلام؟

ثم لا تيأس من الجواب.
إن وجدت خيرًا، فاحمد الله.
وإن وجدت تقصيرًا، فتب.
فالنور لا يحب اليأس، والتوبة باب مفتوح ما دام القلب يطرقه.

لا يكبر النور في قلبٍ لا يحاسب نفسه، ولا يموت في قلبٍ يتوب كلما تعثر.

وهكذا تصبح سورة النور رفيقة اليوم.
ليست سورة تُقرأ في المصحف فقط، بل ميزانًا نزن به الكلام، والنظر، والدخول، والخروج، والعلاقات، والمال، والطاعة، والبيوت، والأحلام.

فإذا تكلمت، سألتك السورة: هل هذا نور؟
وإذا نظرت، سألتك: هل هذه أمانة؟

وإذا سمعت خبرًا، سألتك: أين البينة؟

وإذا وقفت عند باب، سألتك: أين الأدب؟

وإذا أحببت، سألتك: أين الحلال؟

وإذا عملت، سألتك: أين الصلاة؟

وإذا خفت، سألتك: أين وعد الله؟

وإذا أظلمت، قالت لك: **الله نور السماوات والأرض**.

من عاش مع سورة النور، صار يحمل في داخله سؤالًا دائمًا: هل هذا الطريق يزيد المصباح أم يطفئه؟

ملحق النور الثالث

مرايا الآية: تأملات قصيرة لمن أراد أن يراجع قلبه

هناك آيات لا يكفي أن نفهمها مرة.
نحتاج أن نعود إليها كما يعود الإنسان إلى المرآة، لا ليرى وجهه فقط، بل ليرى ما تراكم عليه من غبار الطريق.

وسورة النور من هذا النوع.
كلما عدت إليها، كشفت لك زاوية جديدة.
كلما ظننت أنك فهمت النور، سألتك: وماذا عن لسانك؟
وكلما قلت: حفظت لساني، سألتك: وماذا عن عينك؟
وكلما قلت: غضضت بصري، سألتك: وماذا عن بيتك؟
وكلما قلت: أصلحت بيتي، سألتك: وماذا عن قلبك إذا خالف الحكم هواك؟

السورة التي لا تزال تسألك بعد أن تنتهي من قراءتها، سورةٌ دخلت إلى حياتك لا إلى ذاكرتك فقط.

هذه تأملات قصيرة، تصلح أن تُقرأ متفرقة، كأنها ومضات صغيرة حول المصباح الكبير.

١. عند أول السورة

﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾

ليست كل بداية ناعمة.

بعض الرحمة تبدأ بالحزم.

وبعض النور لا يدخل إلا إذا فتح له القلب باب التسليم.

لا تقل: لماذا بدأت السورة بالأمر؟

بل قل: كم كنت سأضيع لو تركني الله لمزاجي؟

من رحمة الله أنه لم يجعل نجاتنا تابعةً لتقلباتنا.

---

٢. عند حدّ الفاحشة

الفاحشة ليست لحظة جسد فقط.

إنها تصدع في معنى الإنسان.

حين يخرج الجسد من العهد، يخرج معه شيء من السكينة.

ليس الجسد عدوًا.

العدو أن يفقد الجسد قبلته.

الجسد إذا لم يسكن في الطاعة، بحث عن مأوى في الفوضى.

---

٣. عند القذف

الكلمة حجر، لكنها حجر لا تراه اليد.
تخرج من الفم صغيرة، ثم تقع على بيت كامل.

لا تقل: أنا قلت فقط.
فالقرآن سماه رميًا.

بعض الكلمات لا تُقال؛ تُقذف.

---

٤. عند حادثة الإفك

الشائعة لا تحتاج إلى أشرار كثيرين.
يكفيها أناس طيبون لم يتثبتوا.
أناس قالوا: لا ندري.
ثم نقلوا ما لا يدرون.

البراءة قد يجرحها عدو واحد، لكن الشائعة لا تكبر إلا بمساعدة الغافلين.

---

٥. عند قوله:

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾

ليس كل ما أبكاك كان شرًا خالصًا.

بعض الدموع غسلت عينك لترى.

وبعض المحن كشفت لك من يحبك حقًا.

وبعض الظلم أخرج من قلبك دعاءً ما كان ليخرج في الرخاء.

قد يكون الخير مستترًا في ثوبٍ لا تحبه النفس أول الأمر.

---

٦. عند قوله:

﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾

كم من شيء حسبناه هينًا.

نظرة.

تعليق.

إعادة نشر.

ضحكة في مجلس.

تلميح في غياب إنسان.

ثم نقرأ: **﴿وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾**.

يا رب، نجّنا من الأشياء التي نستصغرها وهي عندك عظيمة.

الميزان الحقيقي للكلمة ليس خفتها على لسانك، بل ثقلها عند الله.

---

٧. عند قوله:

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾

هذا السؤال لا يُجاب باللسان فقط.

يُجاب حين تقدر أن تنتقم، فتترك لله.

حين تستطيع أن تفضح، فتستر لله.

حين يعود الوجع، فتقول: يا رب، عفوت طلبًا لعفوك.

العفو الصادق أن تجعل حاجتك إلى مغفرة الله أكبر من حاجتك إلى إيلام من آذاك.

---

٨. عند الاستئذان

الباب امتحان.

قد يكشف من النفس ما لا تكشفه الخلوة.

هل تصبر؟

هل تحترم؟

هل تقبل الرجوع؟

هل ترى خصوصية غيرك حقًا أم عقبة في طريق رغبتك؟

من لا يحترم الأبواب المغلقة، قد لا يحترم القلوب المتعبة.

---

٩. عند قوله:

﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾

كم نحتاج هذه الآية في علاقاتنا.

ارجع بلا كرامة مجروحة.

ارجع بلا عتب ثقيل.

ارجع وأنت تعلم أن الناس ليسوا ملزمين أن يكونوا مستعدين لك دائمًا.

قبول الرجوع أدبٌ لا يملكه إلا من تواضعت نفسه.

---

١٠. عند غض البصر

العين تجمع.

والقلب يدفع الثمن.

لا تقل: نظرة عابرة.

فبعض العابرين يتركون في الداخل إقامة طويلة.

غض البصر ليس حرمانًا من الجمال، بل حمايةٌ من أن يتحول الجمال إلى سلاسل.

---

١١. عند الحياء

الحياء ليس اختفاءً.

إنه حضورٌ مهذب.

أن تكون في العالم بلا صخبٍ يطلب العيون.

وأن تملك جمالك دون أن تجعله إعلانًا عامًا.

الحياء أن يعرف الجمال مكانه، فيزداد كرامةً لا انطفاءً.

---

١٢. عند الزواج

الزواج في سورة النور ليس نهاية قصة عاطفية.

إنه مؤسسة عفاف.

بيتٌ يفتح للحلال، حتى لا يصبح الحرام أسهل الطرق.

كل من يعين على زواجٍ صالح، يشارك في بناء جدارٍ ضد الفتنة.

لا يكفي أن نلعن الظلام؛ ينبغي أن نفتح أبواب الضوء.

١٣. عند الاستعفاف

هناك أبطال لا يعرفهم أحد.
يغلقون الأبواب في الخفاء.
يصبرون على احتياجٍ موجع.
يتركون الحرام لا لأنهم لا يقدرون، بل لأنهم يستحيون من الله.

الاستعفاف عبادة الذين يقاتلون في صمت.

١٤. عند آية النور

كل السورة تمشي نحو هذه الآية.
كأن كل حكم قبلها يقول: نظّف مكان المصباح.
وكأن كل أدب بعدها يقول: احمل المصباح في الحياة.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

إذا عرفت هذا، لم تعد تسأل الناس أن يكونوا شمسك.
كلهم مصابيح مستعارة.
وحده النور الذي لا ينطفئ.

من جعل الله نوره، لم يضره أن تنطفئ حوله أضواء كثيرة.

١٥. عند المشكاة

القلب مشكاة، لكنه قد يكون مثقوبًا.

كل شهوة بلا مقاومة ثقب.

كل حقد ثقب.

كل كبر ثقب.

كل غفلة ثقب.

ثم نسأل: لماذا لا يستقر النور؟

لا تطلب ثبات المصباح وأنت تترك الريح تدخل من كل جهة.

١٦. عند الزجاجة

الزجاجة لا تصنع النور، لكنها تكشفه أو تحجبه.

كذلك أخلاقك.

قد يكون في قلبك إيمان، لكن قسوتك تعتمه.

وقد يكون فيك خير، لكن كبرك يغطيه.

أحيانًا لا يحتاج القلب إلى مصباح جديد، بل إلى زجاجة أنقى.

١٧. عند قوله:

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾

النور يتكاثر.

طاعة تفتح طاعة.

توبة تفتح دمعة.

دمعة تفتح خشوعًا.

خشوع يفتح بصيرة.

بصيرة تفتح حياءً.

حياء يفتح حفظًا.

حفظ يفتح قربًا.

كما أن الظلام درجات، فالنور أيضًا مدارج لمن صدق.

١٨. عند البيوت المرفوعة

ليست كل البيوت التي يمدحها الناس مرفوعة عند الله.

قد يكون البيت صغيرًا، لكنه عامر بالذكر.

وقد يكون واسعًا، لكنه ضيق بالغفلة.

اسأل بيتك:

هل يعرف الله؟

هل يسمع القرآن؟

هل يدخله السلام؟

هل تخرج منه الغيبة؟

هل فيه مكان لسجدة خفية؟

البيت لا يرتفع بما فيه من أثاث، بل بما فيه من ذكر.

---

١٩. عند الرجال الذين لا تلهيهم تجارة

ليس المطلوب أن لا تعمل.

بل أن لا يسرقك العمل.

أن تدخل السوق ثم تخرج وقلبك لم يبع آخرته.

أن تربح دون أن تخسر الصلاة.

أن تحسب مالك دون أن تنسى حسابك.

أخطر خسارة في التجارة أن تكسب الصفقة وتخسر حضورك مع الله.

---

٢٠. عند السراب

كم من شيء ركضنا إليه كأنه ماء.

فلما اقتربنا، وجدناه يزيد العطش.

السراب ليس في الصحراء فقط.

قد يكون في شهرة.

أو علاقة.

أو منصب.

أو إعجاب.

أو لذة.

أو انتصارٍ على أحد.

كل ما وعدك بالامتلاء بعيدًا عن الله، سيخذلك عند العطش.

---

٢١. عند الظلمات

ليست كل الظلمات خارجية.

بعضها في الداخل.

ظلمة أن لا ترى عيبك.

ظلمة أن تبرر ذنبك.

ظلمة أن تكره من ينصحك.

ظلمة أن تضحك من الطاعة.

ظلمة أن تعتاد البعد حتى لا يعود يوجعك.

أسوأ الظلام ما أقنع صاحبه أنه يرى.

٢٢. عند قوله:

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾

هذه الآية تقطع الغرور من جذوره.

لا ذكاؤك يكفي.
ولا ثقافتك تكفي.
ولا مكانتك تكفي.
ولا الناس يكفون.

إن لم يجعل الله لك نورًا، فأنت محاط بأضواء لا تهديك.

النور الحقيقي لا يُصنع باليد؛ يُطلب من الله.

٢٣. عند تسبيح الطير

الطير صافات، والسماء محراب.
والكون يذكر.
ثم يأتي الإنسان، ومعه عقل ولسان وقلب، فيغفل.

يا رب، لا تجعلنا أقل وفاءً من طائرٍ عرف تسبيحه.

كل مخلوق يسبح بطريقته؛ فابحث عن تسبيحك أنت.

٢٤. عند السحاب

الله يسوق السحاب، ثم يؤلف بينه، ثم يجعله ركامًا، ثم يخرج الودق من خلاله.

كذلك قد يسوق إلى حياتك أشياء متفرقة لا تفهمها.
ثم يؤلف بينها في وقتها.
ثم ينزل منها مطرًا لم تكن تتوقعه.

بعض الغيوم في حياتك ليست حجابًا عن الرحمة، بل طريقها إليك.

٢٥. عند الطاعة

﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾

هذه ليست كلمة سهلة.
إنها كلمة تكلّفك أحيانًا شيئًا تحبه.
تكلّفك عادة.
أو علاقة.
أو كبرًا.
أو مالًا.
أو انتصارًا لنفسك.

لكنها تفتح باب الفلاح.

لا يفتح الفلاح بيدٍ تمسك الهوى وترفض أن تتركه.

---

٢٦. عند وعد الاستخلاف

لا تطلب تمكين الدين في الأرض إذا لم تمكّنه في نفسك.
ماذا نفع أن يحلم الإنسان بأمة عظيمة، وهو عاجز أن ينتصر على نظرة، أو كلمة، أو شهوة، أو كبر؟

الأمم المضيئة تبدأ من أفراد صدقوا في الخفاء.

---

٢٧. عند أدب الأطفال

علّم الطفل أن يستأذن.
لكنك قبل ذلك، استأذن عليه.
لا تطلب منه أدبًا لا يراه فيك.
لا تقتحم غرفته ثم تطلب منه أن يحترم خصوصيتك.

التربية ليست أوامر تُلقى على الصغار، بل نورٌ يروه في الكبار.

٢٨. عند السلام

السلام ليس عادةً باردة.

إنه إعلان أمان.

حين تدخل بيتك، سلّم كأنك تقول: جئتكم بلا أذى.

حين تدخل مجلسًا، سلّم كأنك تزرع فيه طمأنينة.

حين تسلم على أهلك، لا تجعلها كلمة ميتة.

السلام إذا خرج من قلبٍ حي، بدّل هواء المكان.

٢٩. عند الأمر الجامع

إذا اجتمع الناس على خير، فلا تكن أول المتسللين.

لا تجعل راحتك الشخصية دائمًا فوق حاجة الجماعة.

لا تكن حاضرًا بجسدك غائبًا بقلبك.

ولا تكن غائبًا بلا إذن، ثم تطلب ثمار الحاضرين.

من نور المؤمن أن يعرف أن وقته ليس له وحده حين تحتاجه الأمة.

٣٠. عند خاتمة السورة

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

هذه الجملة تكفي ختامًا لكل شيء.

يعلم ما قلت.

وما سكتّ عنه لله.

وما نظرت إليه.

وما غضضت عنه.

وما دخلته بإذن.

وما رجعت عنه امتثالًا.

وما عفوت عنه وأنت تتألم.

وما قاومته في السر.

وما أخفيته عن الناس.

إذا كان الله بكل شيء عليمًا، فلا عمل خفيّ يضيع، ولا ذنب خفيّ يختفي.

وصية ختامية في هذا الملحق

لا تجعل سورة النور سورةً للمناسبات.

اجعلها سورة المراقبة اليومية.

إذا تكلمت، فاذكر القذف والإفك.

إذا نظرت، فاذكر غض البصر.

إذا دخلت، فاذكر الاستئذان.

إذا أحببت، فاذكر الحلال.

إذا عملت، فاذكر الرجال الذين لا تلهيهم تجارة.

إذا أظلمت، فاذكر آية النور.

إذا اغتررت، فاذكر السراب.

إذا خفت، فاذكر وعد الله.

إذا اجتمعت، فاذكر أدب الأمر الجامع.

إذا انتهى اليوم، فاذكر: **والله بكل شيء عليم**.

ومن عاش مع هذه السورة، لم يعد يبحث عن النور بعيدًا؛ صار يفتش عنه في كل كلمة، وكل نظرة، وكل باب، وكل خفقة قلب.

تم بحمد الله وتوفيقه

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
1	صفحة الغلاف
2	صفحة العنوان
3	البسملة والآية الافتتاحية
4	الإهداء
6	مقدمة المؤلف: على عتبة السورة
12	تمهيد: لماذا سورة النور؟
19	افتتاحية الكتاب
22	النور: السورة التي تعلّمنا كيف نحرس النور
27	الفصل الأول: حين يبدأ النور بالأمر
36	الفصل الثاني: حين تُهان قداسة الجسد
47	الفصل الثالث: حين تكشف العلاقة معدن الروح
57	الفصل الرابع: حين تتحول الكلمة إلى حجر
72	الفصل الخامس: حين يدخل الاتهام إلى البيت
85	الفصل السادس: حين تصبح الشائعة ظلامًا له أقدام
102	الفصل السابع: خطوات الشيطان حين تمشي بهدوء
115	الفصل التاسع: حين يحرس الله براءة الغافلين
127	الفصل العاشر: حين يقف النور عند عتبة الباب
141	الفصل الحادي عشر: حين تكون العين بابًا إلى القلب
156	الفصل الثاني عشر: حين يصير الزواج طريقًا إلى العفاف
172	الفصل الثالث عشر: حين تبلغ السورة قلبها الأكبر
186	الفصل الرابع عشر: البيوت التي تأذن السماء برفعتها
200	الفصل الخامس عشر: حين يلمع السراب كأنه ماء

الصفحة	الموضوع
213	الفصل السادس عشر: حين يصبح الكون كلّه محرابًا
227	الفصل السابع عشر: حين يقول اللسان آمنا ولا ينهض القلب
241	الفصل الثامن عشر: حين يصبح الإيمان مشروع أمة
255	الفصل التاسع عشر: حين يتعلّم البيت أدب الأسرار
269	الفصل العشرون: حين يعرف المؤمنون أدب الاجتماع
286	الخاتمة: ماذا يبقى في القلب بعد سورة النور؟
295	ملحق النور الأول: كيف نعيش سورة النور بعد أن نغلق المصحف؟
308	ملحق النور الثاني: وصايا المشكاة؛ عهود صغيرة لحراسة النور
321	ملحق النور الثالث: مرايا الآية؛ تأملات قصيرة لمن أراد أن يراجع قلبه
337	وصية ختامية في هذا الملحق
338	تم بحمد الله وتوفيقه